يوم انحدر الجمل من السقيفة

نبيل فياض

علي صراط الحق

الأعمال الأخيرة لنبيل فياض:

صدف سعيدة أم مشروع « يتكامل » ؟

من المتعارف عليه عموماً في عالم البحثية الغربية أنّ ثمّة تناقضات هامة في الرأي حول أصول الاسلام؛ فالنظرة إلى الدين الشرق-أوسطي الأهم في ـاية هذا القرن في عالم البحثية الغربية غير محكومة على الاطلاق بأية قيود ما-ورائية، والبذرة الالهية لشجرة الدين الباسقة أُلغيت، مرة وربما إلى الأبد.
إذا ما حاولنا تناول المسألة بنوع من الاختصار، يمكن القول إنّ الآراء تنقسم في مسألة نشوء الاسلام إلى تيارين رئيسين: ينظر التيار الأول إلى الاسلام باعتباره النتاج الطبيعي والتواصل غير المنقطع لطائفة النصارى التي تواجدت ذات يوم على هامش المسيحية؛ في حين يعتبر التيار الآخر الاسلام الابن الشرعي الفعلي لليهودية الحاخامية، بتلمودها ومدراشها وتراثها الهاغادي-الهالاخي.

التيار الأول: مقاربة تعريفية

في أربعينيات هذا القرن، قدم باحث ألماني هام يدعى شويبس، كتاباً فريداً في نوعيته ومادته دعاه « عقائد اليهود المتنصرين وتاريخهم »؛ وفي هذا العمل النادر كان ثمّة فصل هام حمل عنوان « العقائد الابيونية والاسلام ». في الشرق ظهرت أعمال من النوعية ذا ـا، لم يشر فيها مؤلّفوها إلى الباحث الألماني لا من قريب ولا من بعيد، وكان أبرزها: « القرآن دعوة نصرانية » للأب الكاثوليكي درة الحداد، « قس ونبي » لكاتب حمل اسماً مستعاراً هو أبو موسى الحريري، و « الاسلام بدعة نصرانية » لكاتب غير معروف يدعى الياس المر، فما هو ملخص تلك الأعمال التي أحدثت - وماتزال تحدث - ضجة غير مسبوقة؟

من المتعارف عليه في التاريخ العقائدي للمسيحية أن الجماعة المسيحية الأولى عرفت نوعاً من الانشقاق بسبب دخول الأمم في الدين الجديد: ففي حين تمسك اليهود الذين آمنوا بيسوع كمسيح منتظر بالشرائع الموسوية، واعتبروا أن لا تناقض بين إيما ـم المسيحي والشرائع اليهودية، رفض معتنقو الدين الجديد من الأمم نير الشريعة اليهودية، واعتبروا أن الايمان بيسوع كمسيح ومخلّص كاف لخلاصهم. وبحسب مصطلحات التاريخ العقائدي المسيحي، تدعى الجماعة الأولى بالنصارى، وكان يعقوب أبرز ممثلي هذا التيار، في حين كان المسيحيون التسمية التي أُطلقت على الجماعة الثانية، التي كان بولس ممثّلها الأبرز. وكانت القدس عاصمة النصارى في مرحلتهم الأولى، بينما في أنطاكية « دعي التلاميذ للمرة الأولى مسيحيين ». عن النصارى انشقّت جماعة دعيت « بالابيونيين » أو القراء بالعبرية، ازدادت تطرفاً في تمسكها بالعقائد والشرائع الموسوية، والتي انشقّت بدورها إلى جماعة أخرى حملت اسمهم ذاته، وكانت أكثر تطرفاً منها.

لقد حاول بعض الباحثين في الغرب والشرق، بعد مقارنات غير مختصرة بين أعراف النصارى والابيونيين وعقائدهم ومايماثلها إسلامياً، استنباط نتيجة مفادها أنّ الاسلام نصراني-ابيوني. بل تطرف بعضهم أيضاً، دون دليل محسوس، فقال إنّ النصارى-الابيونيين، الذين تسكت المراجع المسيحية فجأة عن تناول تاريخهم، هجروا إلى شبه جزيرة العرب، لأ م كانوا محاطين بالأعداء من كلّ جانب: اليهود من جهة، والكنيسة المسيحية التي كانت تمتد بطريقة كاسحة في كل مكان، من جهة أخرى.

التيار الثاني:

منذ أن قدم الحاخام الألماني أبراهام غايغر عمله الشهير « ماذا أخذ محمد عن اليهودية » في اية القرن التاسع عشر، والحديث لا يهدأ عن الأثر المفرط في قوته لليهودية الحاخامية في الاسلام؛ بل تطرف بعضهم فاعتبر أن الاسلام لم يتمايز عن اليهودية الا بعد الحروب الصليبية، مثل الباحث السوفيتي موروزوف.

من أشهر أتباع هذا التيار، الباحث الألماني هـ. شباير، صاحب الكتاب الشهير، « الحكايا الكتابية في القرآن »؛ والباحث الألماني أيضاً ي. هوروفيتس، صاحب مجموعة كبيرة من الأعمال وأستاذ السابق.

بعد هؤلاء جاءت باتريشيا كرونه، التي قدمت مع مايكل كوك في السبعينات عملاً أثار من اللغط الكثير، هو الهاجريون، حاولت فيه تقديم صورة بانورامية لنشوء الاسلام، معتبرة أن هذا الدين، الذي كان « قوة بربرية حملت قيماً يهودية »، انشق عن أصوله الحاخامية في مرحلة ما، وكون لذاته شخصية مستقلّة.

في الشرق العربي، يبدو الباحث السوري العلماني، نبيل فياض، المرتبط مع باتريشيا كرونه بعلاقـة لا تفتقد إلى الحميمية، كممثّل أوحد لهذا التيار: ربما بسبب العوز إلى الثقافة العبرانية بـين البـاحثين العرب. ويبدو أنّ أعمال نبيل فياض عموماً، التي تبدو للوهلة الأولى غير مترابطة أو متنوعة المواضيع، تعمل كلّها لصالح هذا الهدف: التأكيد على الأصل التلمودي-المدراشي للفكر الاسلامي. ففي عمله الهام « النصارى »، نجد أن فكرة بعينها تستحوذ على عقل الكاتب: إثبات أن النصارى لا يختلفون عقائدياً عن المسيحيين، وبالتالي عدم امكانية ربطهم بالاسلام؛ وفي سبيل ذلك يكرس فيـاض كـلّ امكانياته المعرفية في التراثين المسيحي (آباء الكنيسة) واليهودي (التلمود والمدراش). كذلك فهـو يؤكّد على مسألة أنّ أية معرفة مباشرة عن النصارى بتيارا م غير ممكنة عملياً، لأنّ معلوماتنـا عـن

هؤلاء مستمدة أساساً من كلام آباء الكنيسة ورموز الحاخامية الذي لا يخلو من العنصر النقدي عنهم، فكتابات الطوائف النصرانية ضائعة بالكامل، بما في ذلك إنجيلهم المسمى « بحسب العبرانيين ». إنّ ورود عبارة « الانجيل بالحرف العبراني » في بعض المراجع الاسلامية، برأي فياض، لا يكفي لتأسيس تراكمية معرفية حول العلاقة الاسلامية-النصرانية كون هذه العبارة تشير عند بعض آباء الكنيسة إلى إنجيل النصارى أو الإبيونيين. كذلك لايوجد أدنى دليل على أنّ ورقة بن نوفل كان قس التصارى في مكّة. دون أن ننسى بالطبع أن مصطلح « ابيوني » غير وارد على الاطلاق في أي مرجع أو مصدر اسلامي. وعلى السؤال المتعلّق بشخص المسيح « عيسى ابن مريم » في التراث الاسلامي وتناقض ذلك مع ما يدعيه فياض من تلمودية-مدراشية البنى التحتية للإسلام، كون اليهود يرفضون بالكامل الاعتراف بمسيحية يسوع، يجيب فياض بأنّ عيسى الاسلامي ليس يسوع المسيحي، أقلّه أنّ مريم أمه المفترضة لا تتماثل مع مريم أم يسوع: الأولى تتطابق تماماً مع مريم أخت موسى وهارون وبنت عمران المعروفة جيداً في العهد القديم، أما الثانية فهي ابنة يواكيم وحنة وتفصلها مئات السنين عن الأولى. إذن، برأيه، المسألة برمتها بحاجة إلى معطيات توضيحية أخرى، قد يساعد الزمن في تقديمها.

المنهج - حكايا الصعود:

العلمانية المطلقة هي ما يميز طروحات نبيل فياض؛ لذلك فهو لا يتردد في نزع القدسية عن أي نص في سبيل دراسته موضوعياً: فالقدسية، برأيه، تعمي البصيرة الموضوعية وتشعل في الذات قناديل الذاتية المضلّلة! وهكذا، ففي « حكايا الصعود »، عمله الصغير المحكم، نجد نبيل فياض وهو يقدم نظرته الخاصة للتعامل مع النص التاريخي، مقدساً كان أم غير مقدس. وربما بتأثير من بولتمان، باحثه اللاهوتي المفضل، يفرز فياض بوضوح بين الوثيقة الميثولوجية والوثيقة التاريخية: كل ما هو غيبي هو ميثولوجي حكماً؛ وكلّ ما هو مادي تاريخي على الأرجح. وهكذا فالنصوص لا تدرس باعتبار أ ا مرسلة أو م لة، بل على أساس أن الغيبي منها مأخوذ عن الذي هو أقدم منه؛ وكما يقول شخصياً: « كل نص ميثولوجي مشابه لنص ميثولوجي آخر موجود عند جماعة أخرى يعني أنّ الأحدث مأخوذ عن الأقدم ». وهذه هي نقطة الانطلاق التي يستهل ا فياض أعماله كلّها.

مشروع الدين المقارن: نظرة فاحصة!

إذا كان فياض في مشروع الدين المقارن حاول أن يدلّل على آرائه بدقّة وصرامة غير مسبوقتين في اللغة العربية، فإنّ المواقف السلبية التي أحاطت بالمشروع - منها على سبيل المثال، ما جرى في معرض كتاب الكويت قبل أكثر من عامين - جعلت فياض ينهي المبادرة كاسم دون التوقف عن جوهرية العمل أساساً. في الجزء الأول من هذا المشروع، مدخل إلى مشروع الدين المقارن، نجد بوادر تلميحية عن الأصل اليهودي لكثير من التراثيات الاسلامية؛ لكن في الجزء الثاني، القصص الديني، نتفاجأ بدقّة

الطرح وحسميته فيما يتعلّق بالأصل الحاخامي لبعض من أقدس النصوص في الاسلام. ولا تتلطّف المسألة إلاّ نسبياً في الجزء الثالث، القرآن ككتاب مقدس.

نصان يهوديان حول بدايات الاسلام:

عنوان غير مألوف اختاره فياض لآخر أعماله، الذي لم يخرج قط عن دائرة الاهتمام ذا ا: لقد كتب اليهود بضع مدراشات حول الاسلام في زمن ظهوره وبعد ذلك قليلاً، فجاء ا فياض وترجمها إلى اللغة العربية وشرحها وعلّق عليها: تلك هي المسألة باختصار.- لكن أين الخطورة في تلك النصوص؟ الواقع أن المدراشات آنفة الذكر تتعامل مع الاسلام بانفتاحية وود غريبين، بل تنظر إلى الغزوات الاسلامية - العبارة التي يستخدمها عادة - لبلاد الشام كبداية لتحرير اليهود من ربق المسيحيين وإعادة مادمروه من مقدسات، وعلى رأس ذلك، قبة الصخرة المقدسة. وهكذا، فعمر بن الخطاب، برأيهم، هو الفاروق - أي المخلّص - وحبيب اسرائيل، الذي يرمم صدوعها وصدوع هيكلها. وفي اعتقادنا، أن هذه الألفاظ المختصرة المبهمة المتعلّقة بعمر بن الخطّاب هي الحافز الرئيس (الوحيد ربما) على تقديم هذا العمل: الباحث يريد بكل ما يمكن أن يقع تحت أيديه من خزينة معرفية إثبات أن الاسلام هو الامتداد الطبيعي لليهودية الحاخامية، وجمل كهذه في بضع مدراشات يهودية تبدو وافية بالغرض تماماً.

مساحة للنقد: الذاتية بقناع موضوعي؟

التطرف العلماني، كسائر أشكال التطرف، يعمي بظلامية ذاتيته مجمل بصائر الموضوعية: مهما حاول المرء ادعاء العكس؛ وفي اعتقادنا أن العلمانية غير المنضبطة تلعب دوراً سلبياً في توجيه مسارات باحثنا وتحد بالتالي من حياديته التي يحاول إقناعنا ا. إنّ دور العنصر الذاتي يتجسد بأوضح صوره في الانتقائية الذكية التي تتخلّل كثيراً من أعماله، والتي قد لايسهل اكتشافها على غير المختص. فعلى سبيل المثال، نجده يوجه الا ام تلو الا ام، في أشهر أعماله، يوم انحدر الجمل من السقيفة، لرموز ما أسماه باسلام الحكم؛ ويحشد لأجل ذلك شواهد موثّقة من مراجع لا تحد - وما أسهل ذلك في التراث الاسلامي - في حين لا يحاول بالمقابل المس برموز ما أسماه باسلام المعارضة لا من قريب ولا من بعيد، رغم أن الأخطاء هنا لا تقلّ عن مثيلا ا هناك: على رأس ذلك نجد مسألة الخلافة التي ا م فياض بشأ ا جماعة اسلام الحكم بأ ا أراد ا وراثية في حين أن اسلام المعارضة كرس دينياً التوارث للحكم فأخرجه بالتالي من أية امكانية لأن يكون ديمقراطياً.

نبيل فياض باحث أراد الهروب من الاسلام بزورق الموضوعية، فحطّت به أشرعة الذاتية على شاطئ التطرف العلماني.

- نبيل فياض
- يوم انحدر الجمل من السقيفة

- طبعة صيف ١٩٩٩
- توزيع دار الفنون

صحوة أم صحوة « موت »!؟

في أوساط الإسلاميين، تستعمر العقول « **فوبيا** » من النوع الأخطر، لا تستثني قائداً ولا مقاداً، تحمل عنواناً مبرقشاً: **الصحوة** الاسلامية! ولأن هذا المصطلح متداول في تلك الأوساط أكثر من تداول القمع، لا حاجة بنا لتقديم مقاربات تفسيرية له.- مع ذلك، فاعتقادنا الراسخ الذي لا سبيل إلى دحضه بحجة دامغة - يمكن دحضه بسهولة عبر سلاح المصادرة الاسلامي الأشهر -) هو أنّ هذه الصحوة هي صحوة «**موت**»! فهذا المريض المبتلى بمجمل ضروب الآفات المزمنة المهلكة، والذي صحا فجأة (!!!) مع ضخ نفط ودولارات وإرهاب في عروقه، لا يمكن للزمن إلاّ أن يقضي عليه: الصحوة **الزائفة** لا تستطيع الصمود في وجه أي اختبار صحي حقيقي. لا شك أنّ الورثة يستـ فون طاقا م وأوقا م مـن أجل بثّ نَفَس الحياة في أنف مريضهم المحتضر عبر محاولة خلق جو عقيم - أي: المصادرة والإرهاب - حوله، إلاّ أنّ جراثيم الحرية ستتسلّل لا محالة إلى غرفة احتضاره، وسنشهد قريباً ربما طقوساً جنائزية **غير** محزنة تضع هذا المريض أخيراً في مكانه الحقيقي!

لكن هل نرغب فعلاً برؤية هذا المحتضر المزعج وقد غادر سرير احتضاره إلى تابوت من النوعية الأرخص؟ الأمر لا يعنينا! إنه يعني الطبيعة؟ الطبيعة **هي** التي حكمت على هذا المحتضر بالموت عاجلاً أم آجلاً! وكنا قد أثبتنا في عملنا الفلسفي غير المنشور*، *الابستمولوجيا الارتقائية*، أنّ الانسان الذي يغلق باب عقله بمفتاح زماني-مكاني معين، لاسبيل إلى رميه أو استبداله، سوف **ينقرض** كما انقرضت حيوانات أخرى كثيرة قبله لم تفهم غزائرياً منطق الصيرورة، وأنّ العقل غير قابل للسجن في قالب معين، أياً كان صانعه.

✸ لمّا كنت لا أعلم على وجه الدقّة عدد الذين سرقوا كتابي هذا طباعة أو تصويراً، فقد ارتأيت تسميتها طبعة الألوف الخمسة والعشرين، على أساس أن هذا الرقم هو الشيء الوحيد الذي أجدني متأكداً منه!

✸ هذا العمل، الذي أنجزته مع الفيلسوف الألماني الشهير، غيرهارد فولمر، لم أوافق على نشره لأسباب تتعلّق بشرف الكلمة وحرية الكتابة: فبعد الحملة الصليبية التي شنتها أطراف إسلامية على كتابي *الجمل* في سوريا، وبعد رفضي مهادنة أحد المتنفذين السابقين من أجل موضوعة النشر، والذي عرفت عليه في مكتب الإعلام القطري، ساد على مايبدو عرف في الدوائر الرقابية السورية، يتضمن منعي عن النشر بأية وسيلة - في حين تتناثر أعمال الوهابيين والأخوان المسلمين الذين قتلوا ذات زمن خيرة شباب الوطن في غير مكان: لديهم نفط ودولارات وعلاقات أميركية!- وهكذا وجدتني أضطر الى تقديم العديد من أعمالي للرقابة باسم غير اسمي، ثم أدخل اسمي بعد ذلك إلى جانب الاسم المزعوم كمشارك في التأليف! المشكلة أنني قدمت العمل هذا باسم بائع مرطبات حمصي! ولمّا كنت قد كذبت على فولمر وأنا أقنعه بالعمل معي في سوريا بأن الأخيرة موضع الظلّ والخضرة الوحيد في صحراء العرب القاحلة، فقد وجدت أنه من الصعب علي أن أناقض نفسي إذا حكيت له عن كيفية أخذي للموافقة الرقابية السورية! وكان الحل هو الاعتذار عن نشر هذا العمل المغرق في أهميته!!

مشكلة المسلمين انحباسهم في زنزانات نصوصهم المقدسة: فهم لا يستطيعون حملها والدخول ا إلى عالم الحضارة، ولا يستطيعون رميها خوفاً على ذوا م من التعرية التراثية. والحقيقة أننا لن نحزن كثيراً إذا انقرضوا، لأ م صاروا بالفعل، عبر هذا الإنسجان الذاتي، عبئاً على الحضارة - دو م يمكن للحضارة أن تصبح أكثر جمالاً وتحرراً وفراشية: من لا يصدق ذلك، ما عليه إلا أن يفتح خارطة العالم ويتفحص هوية أماكن الاضطراب والإرهاب والحروب المعيقة لتقدم البشرية وتحضرها.

هل هي صحوة؟

١ - التاريخ:

بثقة حاخامية مريعة، يجلس الإسلامي «الباحث »، في محطة نفطية أنتيكية، ليبث أساطير غبية على مسامع شعب يضع أقدامه في القرن الحادي والعشرين ورأسه في القرن السابع، تحمل عناوين براقة زائفة من نمط: «تاريخنا ا يد»، «حضارتنا العظيمة»، «خلفاؤنا الفاتحون»، «قادتنا الرحيمون» «شيوخنا الأجلاء» ، «أجدادنا الأتقياء»...! وحتى لا يتبرع أحدهم للاصطياد في الماء «الأعكر»؛ نقول: نحن - كسوريين - نؤمن بأننا «**كنا**» (- وكان فعل مضى حتى الموت-) نمتلك ماضياً حضارياً عظيماً، لكن الغزو العربي - الإسلامي «تحديداً»، حطّم ذلك كلّه حتى السحق بحيث يبدو من المستحيل بناء أي شكل جديد للحضارة.

مثال:

إذا قارنا، كسوريين، بين شكلي حكم عرفتهما سوريا، واحد قبل الإسلام، هو الإمبراطورية الزنوبية، وآخر بعده، هو الخلافة الأموية، لوصلنا إلى النتائج التالية:

كانت زنوبيا « حاكمة » وطنية - حضارية بالمعنى الكامل للكلمة: أشادت عاصمة أسـطورية عجزت عن إزالتها كلّ عوامل البغي والتصحر؛ كونت جيشاً كـاد أن يسـحق رومـا بعظمتـها وسطو ا؛ حاربت أعداءها القوميين ببسالة لا تضاهى، واختارت الموت واقفة علـى الاستسـلام؛ والأهم من هذا وذاك أن زنوبيا هذه كانت **مفكّرة** قومية من طراز رفيع: فقـد جـاءت ببـولس السميساطي، بطريرك أنطاكية آنذاك، إلى بلاطها، كي يخلق لهـا مسـيحية سـورية؛ واسـتدعت الفيلسوف لونجينوس الحمصي، كي يضع لها الأسس لفلسفة سورية. - وانتهى الاثنان بانتهاء الملكة الأعظم: فماذا خلّف لنا بنو أمية؟.

كانت سوريا، قبل الغزو العربي الإسلامي، أغنى دول العالم ربما بالحركية الفكرية. وكان أفضل تعبير عن تلك الحركية الدينية هو ذاك التنافس الفاعل بين المذاهب (التيارات الفكرية) الدينية. وإذا ما استشهدنا بالمسيحيين فقط لاكتشفنا ببساطة حقيقة أن غالبية تيارا م المتنافسة آنذاك كانت سورية الأصل أو الأيديولوجيين. فالتيار المونوفيزيتي ترسخ عملياً بفعل جهود راهب سوري اسمه يعقوب

البرادعي؛ التيار المونوتيلتي أسسه الموارنة السوريون؛ النسطورية جاءت من نسطوريوس السوري؛ آريوس كان تلميذ لوقيانوس الأنطاكي السوري الشهيد؛ ولا حاجة بنا لذكر التيار الخلقيدوني السوري، لأن مفكّريه كانوا أكثر من أن يعدوا: هل تكفي الإشارة إلى ثيودوروس القورشي؟ (- لا يمكن نسيان تيارات مسيحية منقرضة أسسها سوريون، ما تزال محفوظة في ذاكرة أسفار تاريخ العقائد المسيحية -)! هذا كلّه، **كلّه**، انتهى بضربة واحدة من الغزو العربي - الإسلامي، وأضحت الحضارة السورية محصورة في بضع أديرة وبلدات، معزولة، متعبة.

لقد حاربت زنوبيا من أجل استقلال الوطن عن روما: فما هي المعارك **المفصلية** التي خاض الأمويون غمارها؟ **الحرة** التي قُتل فيها، في المدينة « المنورة »، خيرة الصحابة والتابعين، وتحولت بعدها عاصمة النبي من منبع للفقه إلى سوق نخاسة يصدر القيان والسذّج إلى دمشق، عاصمة الأمويين! **كربلاء** التي قُتل فيها أولاد علي بن أبي طالب، وسيقت نساء بني هاشم وحملت رؤوس رجالهم من العراق إلى دمشق حيث أمير مؤمني عصره! **مكّة** التي قُتل فيها عبد الله بن الزبير وصلب ميتاً حتى كاد أن يبلى... الخ!

ماتت زنوبيا دفاعاً عن وطنها كأرزة واقفة: فكيف مات أمراء المؤمنين، خلفاء بني أمية؟ باستثناء معاوية الداهية الذي أوصله حرصه وخوفه من ميتة كميتة علي بن أبي طالب إلى الموت على فراشه كما يموت البعير، فقد مات خلفاء بني أمية عموماً بطريقة تذكّرنا بموت أبطال روايات كافكا (غريغور سامسا بطل //ـ *Vrewandlung* مثلاً) أو مسرح اللامعقول! فإحدى روايات موت أمير المؤمنين يزيد بن معاوية تقول إنه مات بعد أن عضه قرد سكران في زلعومه، وكان القرد آنذاك سمير أمير المؤمنين في جلسات أنسه؛ معاوية بن يزيد سمه أولاد عمه بعد أن تخلّى عن الخلافة المغتصبة بإرادته؛ مروان ابن الحكم خنقته زوجته - أرملة يزيد - وجواريها بعد أن شتم ابنها من يزيد علناً، بقوله: يا ابن رطبة الإست(!!!!)؛ عمر بن عبد العزيز سمه أولاد عمومته؛ هشام بن عبد الملك مات قرب إحدى القيان التي ماتت قبله، وكانا يسكران معاً، فأخرج الجثّة من القبر بعد دفنها وظلّ بجانبها حتى فارق الحياة؛ الوليد بن يزيد قتله أخوته وأولاد عمومته؛ مروان بن محمد قتله العباسيون وقطعوا رأسه، فأكل منه سنور شيئاً... الخ!!!

بقي أن نذكر أنّ أشهر ما ينسب للأمويين من الأوابد الحضارية في دمشق، الجامع الأموي، ليس من صنعهم. كان كنيسة مسيحية (قبل ذلك كان معبداً وثنياً) تحمل اسم يوحنا المعمدان، فسرقوها وحولوها جامعاً لهم.

ملاحظة: العباسيون، الذين لا يقلّون تحضراً عن أخو م من بني أمية، حولوا ذلك الجامع، حين دخلوا دمشق، إلى اسطبل لحيوانا م!

هل هي صحوة؟

٢ - الشرع:

يحمل الإسلاميون سيف شريعتهم الدموي حيثما يحلون، يريدون أن يهووا به على كلّ رأس يفكّر **بغير** طريقتهم المحنطة. - لماذا؟ لأ م يعتقدون أنّ هذه الشريعة ذات مصدر إلهي: ومن ذا البشري الذي يستطيع معارضة الإلهي؟! لكن هل يكفي الاعتقاد بحقيقة شيء حتى يصبح هذا الشيء حقيقياً؟ لا! الاعتقاد بأن شيئاً حقيقي وكون شيء حقيقياً بالفعل مسألتان غير متطابقتين على الدوام! من هنا، فنحن نعتقد أنه لا مانع أن يطبق المرء على ذاته شريعة يعتقد أن مصدرها إلهي، لكننا سنمانع بشدة سعيه لتطبيقها على غيره، خاصة إذا كان يفتقد الأدلّة الحسية على صحة اعتقاده!

بالمقابل، فنحن نمتلك أدلّة كثيرة ليست في صالح ما يزعم بشأن إلهية مصدر تلك الشريعة. وإذا ابتدأنا بالدليل الداخلي، نقول: لقد أظهر العمل الإثنا عشري الشيعي الهام، *النص والاجتهاد*، دون لبس، أن رموز الإسلام الأولي، كعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعائشة بنت أبي بكر، **خالفت** الشريعة على نحو فاضح! ونحن « نعتقد » أ م لو كانوا « يعتقدون » بألوهية مصدرها لما خالفوها! أما دليلنا الخارجي، فيقول: إنّ الجانب التشريعي في الدين المقارن يظهر لكل ذي عقل أن الشريعة الإسلامية مأخوذة بالكامل تقريباً عن أختها الكبرى، الهالاخا اليهودية.

هل هي صحوة؟

٣ - العقيدة:

ما يصح على الشريعة يصح **أيضاً** على العقيدة. وكان ابراهام غايغر من أوائل الذين أشاروا إلى الأصل اليهودي للعقائد الإسلامية في كتابه الطليعي، *ماذا أخذ محمد عن اليهودية*؟؛ وجاء بعده شباير الذي فصل ذلك بدقة في عمله الهام، *الحكايا الكتابية في القرآن*، الذي نشرنا بعضه تحت عنوان، *القصص الديني*، فأقام دنيا المسلمين ولم يقعدها؛ وصودر في كل الدول العربية، عدا لبنان!

علمياً، يكفي البرهان على زيف جانب بسيط من العقيدة حتى يتسلّل الشك إليها كلّها. وفي *القصص الديني* بدا واضحاً للغاية أنّ تفاصيل خلق العالم والعائلة البشرية الأولى مأخوذة عموماً عن الهاغاداه اليهودية. ولا نعتقد أن هنالك مسلماً عاقلاً واحداً يمكنه أن يقر بالمصدر الإلهي للهاغاداه. لكن هذا الوضوح يصل إلى قمته في حكاية النبي ابراهيم الإسلامية المأخوذة بتفاصيلها المملّة عن سفر *معاسه أبراهام* الهاغادي. مع ذلك، ثمة سؤال « علمي » يطرح ذاته بإلحاح مزعج هنا: كيف يمكن للإله، الذي أوجد البشرية منذ ملايين السنين، أن يسمي كائناته البشرية الأولى بلغة (-العبرية!!!-) لا يتجاوز عمرها ألوف السنين؟ ولماذا «تحديداً» لغة هذا الشعب **المفضل على العا**لمين، دون غيرها من لغات الشعوب الحضارية؟ هنا يقفز إلى صدر الصورة سؤال أكثر إزعاجاً وإبغاضاً: كيف لم يأتِ إلى هذا الوجود يوماً رجل دين مسلم استطاع تحرير عقله والتساؤل عن الحقيقة التاريخية الكامنة

خلف قصة خلق العالم والعائلة الأولى العقائدية، التي لا يخفى طابعها الأسطوري؟ يبدو أن سيف التكفير الإسلامي الأشهر يهدد العنق مانعاً الرأس عن **أية** حركية فكرية!

مستقبل العقل... والإنسان!

لا يمكن لهذا الوضع أن يدوم، وسينتهي مع انتهاء النفط وسيطرة البدو على العقل في المنطقة. وستجتاح العولمة رغم كل شيء، شبكات العناكب نصف المهترئة، ولن يستطيع سيف قديم ملطخ بآثار الدماء منع التقنيات الحديثة عن نقل ما تشاء من أفكار إلى تلك العقول المحنطة! - فما هي صورتنا للإسلام، إذا تسلّلت كل تلك المحظورات إلى دواخلنا، دون خوف أو وجل؟

مما لا شك فيه أننا، حين نتكلم عن الإسلام، فنحن نعني بذلك طبعاً الإسلام السني - الأشعري، المقولب، الذي أقفل في وجه ذاته كلّ أبواب اجتهاده (- اعتقل عقله بذاته -) منذ أيـام الخليفـة الأسوأ سمعة، المتوكل على الله العباسي! الإسلام السني - الأشعري، دون مواربة أو مداورة، يحمـل في داخله جرثومة مقتله. وإذا كانت **السيوف** حمت هذا التيار الإسلامي الأعرض - للأسف - مـن أن ينقرض بفعل احتكاكه مع التيارات الأخرى، إسلامية كانت أم غير إسلامية، فإن انتهاء مفعـول السيوف (- لم تعد تستعمل إلاّ في الرقص الشعبي -) و اوي المصادرات أمام العولمة، سيجعل من الإسلام السني-الأشعري أحد المذاهب التي ستنقرض حتماً في القرن القادم، مـع أختـه الكـبرى، اليهودية الأرثوذكسية. ولا نشك للحظة أن عموم السنة الشعريين سينتهون إما إلى مذهب إسـلامي آخر أو كعلمانيين أو إلحاديين. قد تظلّ هنالك جزر سنية أشعرية معزولة في هذا المكان أو ذاك؛ لكن تلك المناطق ستكون محددة بالشعوب **المعاقة** فيزيولوجياً عن صيرورة التفكير؛ وهكذا تتحد الإعاقـة الفيزيولوجية بالإعاقة الدوغماتية ليتولّد بالتالي أصلب العقائد سكونية فكرياً وأعصاها على الصيرورة حركياً، وخير أنموذج على ذلك إسلام السودان الحالي. بكلمة واحدة: سيصبح **الإسلام** في القـرن القادم، على الأرجح، **دين الزنوج القومي**!!!!

هذا لا يعني أن الإسلام كلّه في طريقه إلى الانقراض من عالمنا في القرن القادم: ثمة تيارات رائعة داخله، قابلة للحياة إلى « ما شاء الله »: وعلى رأسها تقف الإسماعيلية الـ ارية القاسمية، التي لا تمانع أبداً عن التضحية بالنقل على مذبح العقل. قد تنافس العلوية الإسماعيلية في صراع البقاء؛ لكن نجاحها مشروط **بتحررها** من الأصولية الإثني - عشرية. من ناحية أخرى، فالاثنا عشريون الذين تشاءمنا كثيراً بشأن مستقبلهم مع ظهور التيار الخميني ذي التوجه المغرق في الأصولية بينهم، أعادوا إلينا بعض الأمل بفضل ما نراه ونلحظه من تفتح لبراعم العقلانية في حقولهم - خاصة في لبنان وإيران...!

كلمات... له:

هو: ابن أحد المراجع الدينية الشافعية السنية الإسلامية السورية غير العربية الهامة للغاية، والذي ورط أباه الطيب في علاقات لا تفتقد الشبهة مثل تلك التي كانت (ما زالت؟!) مع صن ميونغ مون، صاحب الكنيسة الموحدة، والذي عين ذاك المرجع الهام رئيساً فخرياً لجماعته السيئة السمعة.

هو: كان أحد أبرز المحاربين لكتاب *يوم انحدر الجمل من السقيفة* - ولصاحبه؛ واستخدم في ذلك ما تحت يده من سلطات لوالده وعلاقات لاعتقال العمل وصاحبه، كي يكمل ثالوث الاعتقال عند هؤلاء: *الجمل* وصاحبه والعقل!

هو: يعرف جيداً أنّ *الجمل* ليس من ابتداعنا، بل إنّ أبسط اطلاع على تاريخ الإسلام كاف لأن يكشف حقيقة ما نقول. مع ذلك، لم يترك هذا **المو**ني، ـمة عمالة إلا وألصقها *بالجمل* وصاحبه. ولأنه ابن فلان - كالعادة في شرق اللاعقل - فقد صدق لفترة، وقُبض لفترة: لكن الحقائق جرفته - وجرفت معها أساطيره، من مونية وغير مونية.

« ليس بإمكان العقل السني الأشعري

أن يتمشى عارياً تحت شمس الحقيقة دون ظلال سيوف الوهم »

« سوريا فوق كل شيء »

مقدمة الطبعة الثالثة: عقول وغثاء!

في كتابه الهام *الفلسفة اليوم* كان المفكّر الإيطالي « مكيلّي فدريكو شياكا » خائفاً من سقوط حضارة أوروبا تحت أقدام « اللاحضارة » الأميركية التي تقتحم العقول بدولارا ا - وهذا ما كان. ونحن اليوم خائفون من طغيان « لا حضارة » بدو النفط، تحت وابل من الريالات، على أقدم مركزين للحضارة في العالم: سوريا ومصر - ألا ترون كم النقاب (رمز البداوة) مثلاً، في شوارع دمشق والقاهرة.

لقد فاجئني اعتراض الكثيرين على موقفي في هذا الكتاب من الوهابيين والأخوان والمتأسلمين الشعوبيين، لكن الحوادث المتتالية أثبتت صحة رأيي ذه الجماعات حتى قبل أن تمضي ثلاثة أشهر على صدر الطبعة الأولى. فيوم ١٤١٥/٧/٢٦هـ، صدرت عن مكتب حبر الوهابيين الأعظم (عبد العزيز بن باز) فتوى حملت الرقم ١/٢٠٧٢ رداً على سؤالٍ مرسلٍ إليه يوم ١٤١٥/٦/١٧هـ، من مجلة
« *المسلمون* »، حول مسألة الصلح مع إسرائيل وزيارة المسجد الأقصى، في هذه المرحلة الحرجة بالذات، وكان الرد حرفياً: « تجوز الهدنة مع الأعداء مطلقة ومؤقتة إذا رأى وليّ الأمر مصلحة في ذلك... زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه سنة إذا تيسر ذلك... ننصح الفلسطينيين جميعاً بأن يتفقوا على الصلح ويتعاونوا على البر والتقوى حقناً للدماء... ».

لقد بدأت خردقة الإسرائيليين الممنهجة لهذه الأمة مع دخول كعب الأحبار الإسلام وذهابه لتسلّم القدس مع عمر بن الخطاب، الذي بدوره « نظف لهم مكان الصخرة »، وأعاد لهم « بناء حضورهم في القدس بعد حقبة ٥٠٠ سنة »، فاستحق أن يسمى في أحد أسفارهم الهامة، « صديق إسرائيل »✸، واستمرت حتى ابن باز وأمير المؤمنين المغربي، رئيس لجنة القدس.

من ناحية أخرى، فالحوادث تزيدنا قناعة بأن بعض المتأسلمين من الشعوبيين يعملون فعلاً على خدمة المشروع الصهيوني عبر الدعوة إلى هوية دينية (كما في إسرائيل) في وطن يتضمن أكثر من خمس عشرة طائفة - وقومية واحدة.

✸ ورد هذا الكلام في *الموسوعة اليهودية*، الطبعة الإنكليزية، نسخة مكتبة الأسد، رقم ٨٩٩. M، ط١٩٧٨، ا لد ١٢، ص١٣٨٢. السفر الهام هو مدراش *نستاروت شمعون بار يوحاي*.

لقد وقف السيد زياد الأيوبي في مناسبة دينية ليتحدث عن « الشعب العربي والأمة الإسلامية ». وحتى لا يخدَع أحد بهذا الطرح، سنسأل السيد الأيوبي ما نتمنى أن يجيب عليه بغير الأسلوب الإنشائي الشهير:

١ - لماذا يصر الأكراد، الذين يعرفهم السيد (الأيوبي) أفضل مني حتماً، على إقامة وطن قومي، في قلب هذه الأمة الإسلامية؟

٢ - لماذا احتلت إيران جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى من دولة الإمارات الإسلامية؟

٣ - لماذا الصراع البحريني القطري، السوداني المصري، المغربي الصحراوي، العراقي الإيراني، اليمني السعودي،...؟

٤ - ما هو المذهب الذي سيعتَمَد في هذه الأمة؟ وهل يقبل الفقيه الأيوبي بأن نعرض كل المذاهب الموجودة على معياري العقل والالتزام بالتجربة المحمدية، ونسقط كل ما لا يتفق مع هذين المعيارين؟

(ملاحظة: كلمة عقل تخيف المتصوفين، خاصة أخوتنا النقشبنديين، لأنها ستمنع الشيخ أن يدعي الحج - هَلوسةً - وهو في مسجده!).

٥ - وإذا كانت أمة إسلامية واحدة، فلماذا تحتكر كل صراعات العالم وحروبه الداخلية: هل نذكر اليمن، البحرين، الباكستان، عمَان، ماليزيا، الصومال، أفغانستان، السعودية، البوسنة (بين فكرت عبديتش وعلي عزت بيغوفيتش)؟ دون أن ننسى صراعات - الإسلاميون طرف فيها -: الجزائر، مصر، أذربيجان، طاجكستان، السودان، الشيشان، أندونيسيا، الهند، سيرلانكا، بورما. ودول الصراعات فيها تحت الرماد: تونس، المغرب، بنغلادش، إيران..؟؟؟

إن السبب الأوحد لهذه الصراعات هو هوس السلطة. وفي سبيل هذه السلطة تعلَك أقوال وتطرَح شعارات، نعرف جميعاً بأنها صارت من « ملاك المتاحف »، فالجهاد صار خرافة لم تعد تخيف أحداً، لأنه حتى « بوركينا فاسو » **ترفض** أن تعطيكم « فيزا » جهادية، خوفاً على أمنها « وحضارتها »، كما انتهت معركة اليرموك، ومات خالد بن الوليد على « فراشه كما يموت البعير [لا كما يموت مالك بن نويرة]! لا نامت أعين الجبناء »، وقُتِل عمر بن الخطاب بمؤامرة رسم خطوطها كعب الأحبار أستاذ أبي هريرة وابن باز، ولم يبقَ من ذكر هارون الرشيد « المفترى عليه » غير حكايا السيدة عريب والآنسة العباسة، والسيد أبي نواس، والسيرك الأموي مغلق « إلى الأبد »، فقد هلك مدرب القرود فيه، أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، بعدما عضته نسناسة سكرى في زلعومه، واستشهد الخليفة المتوكل « على الله » مخموراً على يد أحد أبنائه من إحدى حظاياه، ومات صلاح الدين الأيوبي وعمنا ابن ميمون والمستشار ابن المالي...

أما الذي لم ينتهِ فهو أن إسرائيل تمتلك أكثر من ٣٠٠ قنبلة نووية، وأ ا أرسلت ثالث قمر اصطناعي إلى الفضاء! وأن أميركا سترسل إلى الفضاء أيضاً حتى عام ٢٠٠٤، ٤٢٩ جسماً مأهولاً وغير مأهول!

إن السادة الفقهاء، الذين لا يبالون إلا بالآخرة (عذاب القبر وحوريات الجنة وعسلها وغلما ا هي المقولات الأشهر عند هذه الكائنات) هم **أفضل** من يخدم إسرائيل بإغراق الناس بحكايا تخديرية تقنعهم أن مكا م في السماء: وتمضي إسرائيل في قضم الأرض، قطعة قطعة.

هذا الكتاب، الذي يكشف زيف ادعاءا م الأفيونية، موجه أصلاً للشباب - شباب سوريا ولبنان - الذين هم **وحدهم** الأمل، بتراثهم الحضاري الراسخ، للوقوف في وجه المشروع الإسرائيلي التفتيتي والمروجين له في الداخل والخارج، وهابيين كانوا أم إخواناً أم أعضاء فخريين في كنيسة « صن - مون - الدعوة »، والتي يعرفها الأستاذ الأيوبي، حتماً، أفضل مني.

أما تلك العقول الأفيونية المحنطة، والتي لا تشبه سوى القثاء الأعوج، فلا أمل في تقويمها، لأ ا ستنكسر...!

لقد رأينا حين كنا نعيش في مصر، كيف قضت جماعات التطرف الديني على إنجازات ثورة يوليو، عبر انتشارها الاجتماعي - الثقافي أولاً، ثم حملها للسلاح في مرحلة لاحقة - وكله في سبيل السلطة.

لقد كانت ثمة فرصة عظيمة بعد ضرب جماعات الإرهاب المتستر بالدين لخلق ما يمكن تسميته بالمعجزة السورية على غرار المعجزة الكورية والمعجزة اليابانية. لكن جماعات البداوة الحضارية، كالجراثيم التي تغير من تركيبها لتقاوم مضاد حيوي، تأقلمت بسرعة مع الجو الجديد، وراحت تنتشر ببطء ورسوخ، خاصة على أيدي الشيخات، تحت شعار « بخر جهراً وكفّر سراً »، حتى صارت لدينا تنظيمات اجتماعية - دينية، غاية في الدقة والانضباط، والتي يمكن أن تنقلب إلى سياسية بين عشية وضحاها - هل نذكر مثلاً: جم**عية الفتح الإسلامي** و**الأخوات القبيسيات**؟

إن حالة التخلّف المعرفي التي نعيش، تقف على ساقين رئيستين: الشيخات المهتاجات اللواتي يعممن الجهل والطائفية والتفتيت، ويسعين للسيطرة على المدارس (هل تسمعون بمدرسة ساطع الحصري في دمشق؟) لتضليل الجيل منذ الطفولة، ومعرض الكتاب السنوي الذي تنطلق عبره، بالطرق الشرعية وغير الشرعية، كتب التكفير والأشباح والجن والشياطين لتتوزع في مكتبات الحلبوني وغيرها، هل قرأتم هذا العام كتاب « *حوار صحفي مع جني مسلم* » أو « *إغاثة اللهفان* » الذي وزعته « دار بيت الحكمة » المصرية؟

عالجوا **سبب** (وليس أسباب) التهيج عند الشيخات، وأغلقوا باب (وليس أبواب) دخول كتب التفتيت - فتلك أولى خطوات الانطلاق الثابتة نحو القرن الجديد.

لسنا ضد أحد... لكننا سنقاوم بكل السبل سعي إسرائيل، عن طريق عملائها، لنقل صراعنا الوجودي معها من حدودها إلى صراعات داخلية في كل قطر عربي.

دمشق في **١٩٩٥/١/١٠**

مقدمة الطبعة الرابعة:

مشكلا م وحواراتنا!

لماذا يخشى الكثيرون الحقيقة؟

تساؤلٌ أضحى يطرح بإلحاح بعد الأصداء المتباينة التي أحدثها كتاب «*يوم انحدر الجمل من السقيفة*» في مختلف الأوساط منذ صدوره وحتى الآن. كان الدافع لهذا التساؤل هو مالمسه المتسائلون من سعي محموم عند رموز شريحة بعينها إلى منع تداول هذا الكتاب، وذلك كي تبقى الساحة الفكرية في تلك ا الات حكراً عليهم وحدهم، وهؤلاء اعتادوا أن يكون صو م هو الصوت الأوحد المسموع، وأن تبقى بقية الأصوات خائفة أو خافتة أو خفية. إن نوع الحوار الوحيد الذي يسمح به هؤلاء هو ذلك المقنن في تلقي الآخرين لآرائهم التي تملى، كالقدر، على الجميع. بالمقابل، فالموقف المسموح به من «الآخرين» هو التصديق والتسليم دون اعتراض أو مناقشة، حتى لو كانت الآراء عارية عن أي دليل أو مصادمة لكل الأدلة.

لكن سعيهم «المشكور» لمنع تداول الكتاب، أثار فضول كل من تناهت إليه أخباره حتى بات يوزع مصوراً على أوسع نطاق من قبل جهات ذات أغراض تجارية، متجاوزة كل حقوق التأليف والنشر. وهكذا يمكن القول إن هذا الكتاب أضحى الأوسع انتشاراً خلال العام المنصرم (١٩٩٦)، ولعله من العدالة أن يؤدي الخوف من انتشار الحقيقة من قبل العاجزين عن مواجهتها إلى ازدياد «تفشيها» وأن تؤدي محاولا م المحمومة لمحاصر ا إلى أن تحاصر هذه الحقيقة أولئك الذين يهلعون منها ويسعون بالتالي إلى وأدها، إحياء لعادة جاهلية حرمها الإسلام. (أدعياء الإسلام يحترفون وأد بنات الأفكار في عصر احتضار موانع حرية التفكير وسقوط حواجز انتقال المعلومات).

ولعله من الأمانة أن نذكر أن تساؤلاً آخر طُرِح بشكل مواز للتساؤل الأول، يتحرى الجدوى المأمولة من تناول أحداث تاريخية تنطوي على حقائق اعتاد كثيرون التعتيم عليها أو تجاهلها كو ا تصادم ما ألفوه من أفكار أحيطت الة تقديسية تسليمية موروثة. وارتأى بعض المتسائلين أنه مامن فائدة ترجى من إثارة قضايا تاريخية عفا عليها الزمن بل بالغ بعضهم فاعتبرها إحياء لخلافات ذات طابع تاريخي صرف وإذكاء لفتنة «يرو ا» نائمة - ويفضلون بالتالي المحافظة على حالة السكونية الراكدة والتي هي أشبه ماتكون بركودية مياه مستنقع آسن؛ فتحت السطح تخمرت المخلفات المتفسخة الملوثة للماء والهواء. مع ذلك يصر أصحاب العقليات التقليدية المتزمتة والأفكار المحنطة على إرواء الأجيال بمياه هذا المستنقع باعتباره الماء الزلال وتنسيمها هواءه باعتباره النسيم العليل، ويستبسلون في الحيلولة دون أية محاولة لتنقية

هذه المياه مما يشو ا، لتقديمها في حالة أكثر صفاء ونقاء. وهكذا صار عادياً أن يتهموا كل من «تسول» له نفسه محاولة فرز الحقائق عما يعتريها بسوء النية أو دناءة القصد. أما إذا بلغ حسن ظنهم ذروته، فإ م يعتبرونه ساذجاً مغرراً به، يخدم دون أن يعي أعداء «الأمة»، ويروج لأفكار فئات مبتدعة على حساب الفئة الناجية الموعودة بالجنة - والمحتكرة للإسلام وفق مسطر ا المذهبية دون غيرها من المسلمين.

صخور في المستنقع:

رغم معرفتنا الوافية بقوة ترسانات الطائفية والجهل المتحصنة خلف تلك المستنقعات، وتوقعنا الكامل لكل عواصف العفن والحشرات التي يمكن أن تثار في وجه كل من يفكر برمي حجر في المياه الآسنة فقد أصرينا على رمي صخور كثيرة في مستنقع الطائفية والجهل ذاك؛ وكانت الدوافع لذلك عديدة:

* إن الجهل هو أساس التعصب الطائفي: الجهل بالآخر لا يواجه إلا بالمعرفة والتعصب الطائفي لا يفرغ إلا بالتواصل.

* الورقة الطائفية هي الورقة الأخطر في معظم الدول العربية؛ ورقة حاضرة أبداً، خاصة في ظل الظروف الحالية، لخدمة أطماع أولئك الذين لا يهمهم سوى إشغال المنطقة بصراعات داخلية لصرفها عن صراعها الحضاري وإغراقها في مستنقعات التخلف التي لا خلاص منها.

* إن معالجة الخلل الطائفي لا تتأتى من احتفالات إعلامية فارغة ولا من مؤتمرات كرنفالية مزينة بشعارات توفيقية نفاقية - لأ ا لا تتعدى كو ا محاولات لتجميل السطح دون معالجة جوهر المشكلة.

* إن مغازلة رموز التعصب الطائفي ومحاولة احتوائها وخطب ودها عن طريق إعطائها هوامش إضافية لممارسة تأثير أوسع على شرائح عريضة من العامة، كل ذلك سيساهم في تفاقم الإشكالات لا حلّها، خاصة في ظروف الإحباط السياسي والضغط الاقتصادي التي تعاني منها المنطقة.

* إن الحل الجذري والفاعل لإشكالات الطائفية لا يكون إلا بدعم التوجهات العقلانية الواعية التي تسعى إلى تسليط أضواء العقل على مجاهل التراث منعتقة من قيود التقليد الموروث - وتمارس التواصل الصادق مع الآخر من موقع الفهم المرتكز على معرفة حقيقية لعقائد هذا الآخر بعيداً عن التعصب والاستعلائية.

الصخرة الأولى:

إيماناً منا بضرورة تعميق الفهم المتبادل بين أولئك المنتمـين إلى طوائف مختلفة، تصدينا أثناء إقامتنا في لبنان لنشر سلسلة دراسات تم بتلك المسألة في بعض الصحف اللبنانية. وقتها، كانت

اللعبة الطائفية في لبنان في ذرو ا: كان اللاعبون يشحنون العامة بخطاب طائفي تعصبي تجهيلي إن عبر الصحف أو الكتب أو المحطات الإذاعية والتلفزيونية أو حتى من خلال مايسمى بالمنابر الدينية على اختلاف انتماءا ا. وهكذا فقد نشرنا دراسات تناولت بالتعريف عدداً من الطوائف الإسلامية والمسيحية، وتوقفنا على نحو خاص عند مايثار حول عقائدها من تساؤلات أو مايلصق ا من شبهات. وتوخياً للموضوعية، اعتمدنا في دراساتنا تلك على مصادر الطائفة المعتمدة والتقينا - قدر الإمكان - مع أبرز شخصيا ا في حوارات حاولنا أن تتسم بالصراحة والمصداقية حيث كثيراً ماكنا نوجه أسئلة تنطوي في اعتقادنا على إشكالات تطرح من خارج الطائفة بل إن بعضها يطرح همساً ضمن الطائفة. كذلك فقد زرنا كل طائفة في مواقعها الطبيعية وبذلنا مافي وسعنا للتعرف على مراكزها الدينية حتى تأتي الدراسات بأكثر مايمكن من المصداقية والحيادية. كان لتلك الدراسات الأثر الطيب في الأوساط الثقافية فاستقطبت اهتماماً بالغاً حتى من القارىء العادي. من الطوائف التي تناولتها هذه الدراسات نذكر: السنة، الشيعة، الاسماعيلية، العلوية، المرشدية، الأحمدية، اليزيدية، البهائية، الشبك، السريانية، الآشورية... الخ.

رغم الطابع التوصيفي البحثي المبسط لتلك المقالات حين يتعلق الأمر بالطائفة كبنيان حضاري ثقافي تاريخي، فإن هذا الطابع يصبح نقدياً جريئاً حين يكون مضمون المقالة حواراً مع شخصية دينية تمثل هذه الطائفة أو تلك، الأمر الذي يضفي على المقالة نوعاً من الحيوية والإثارة.

كانت تلك الدراسات شبه وحيدة في محاولتها تجسير الهوة بين الطوائف، مقابل كم هائل من الكتب والمقالات التي تعزف على وتر الطائفية المشدود والتي تتناول الطوائف الأخرى بالتشنيع والتشويه والانتقاص مما يزيد من تعميق الجهل بالآخر وتبادلية سوء الفهم وبالتالي تصعيد التعصب، في زمن تمارس فيه السياسات لعبة الورقة الطائفية في بلد تتعايش فيه طوائف مختلفة متقاربة عددياً.

حجر صغير: لقاء سماحة الدكتور البوطي!

لقد آثرنا أن تكون المقالة المتعلقة «بالسنة» لقاء مع شخصية يمكن أن تمثل هذه الطائفة التي تشكل أكبر أقلية في سورية ولبنان، والغالبية العظمى في دول عربية أخرى. ونظراً لانتمائنا العائلي إلى هذه الطائفة فإن معرفتنا ا ربما تكون أفضل من غيرنا. وقد وجدنا أن الأكثر إلحاحاً من التعريف ا هو تناول بعض المحاور ذات الإشكال وطرحها بشكل تساؤلات على شخصية من هذه الطائفة للتعرف على رؤية هذه المحاور ومعالجة تلك الإشكالات، من منظور هذه الشخصية. وكما يعرف الجميع، كان السنة طائفة مهيمنة تاريخياً ومنتشرة جغرافياً: وهكذا كان صو ا مسموعاً على الدوام، وحرية التعبير عن الذات متاحة باستمرار، وممارسة الشعائر معلنة دون تردد. وكما يعرف الجميع أيضاً، لم تتعرض هذه الطائفة قط للاضطهاد الذي تعرضت له بقية الطوائف: لأ ا غالباً ماكانت

مدعومة من السلطات الحاكمة ومتبناة من قبلها؛ بل لقد أتيح لها حرية التعبير والتدريس والعبادة في ظل الخلافة الفاطمية في مصر التي تبنت المذهب الاسماعيلي مثلاً، في حين لم تمنح الحرية ذا ا لبقية الطوائف من قبل الأيوبيين والعثمانيين ، بل أُصدرت الفتاوى الموسومة بالشرعية تبيح دماء أبناء هذه الطوائف وتستحلّ أموالهم، وعلى أساس هذه الشرعية ارتكبت - وماتزال ترتكب - جرائم كثيرة.

من ناحية أخرى، ليس هنالك داع للتعريف بطائفة السنة خاصة إذا عرفنا أن جميع أبناء الطوائف الإسلامية - وأحياناً غير الإسلامية - تفرض عليهم دراسة الإسلام «رسمياً» وفق اعتقادات هذه الطائفة وفقهها - وهم بالتالي يعرفون عنها أكثر بكثير مما يعرفه أبناء طائفة السنة عن بقية الطوائف.

إضافة إلى ماسبق، فالتساؤلات الكثيرة التي في جعبتي والتي تنطوي على إشكالات هامة متصلة بالفكر الإسلامي المعاصر إنما تعتمد أساساً على اعتقادات طائفة السنة وفقهها. كذلك ثمة تساؤلات أخرى تتصل بالتراث الديني السني الضخم: تراث يحتاج حتماً إلى عملية تنقية نقدية وفق منهج علمي: عوض التقوقع على الذات في مرجعية هي إفراز لعصر الانحطاط والجمود والصراع المذهبي : عصر إغلاق باب الاجتهاد على مناهج ومعايير وأحكام وتفسيرات وصحاح ومسلمات يجدر إعادة النظر ا بعيداً عن سطوة التقديس المتعسف الذي أحاطها بظلامية دامسة حجبت نور العقل بصرامة لا تحتمل. وزاد الطين بلة ارتباط فقهاء هذه الطائفة عموماً بالحكام على مدى العصور الأمر الذي أسبغ عليهم نوعاً من النظرة الاستعلائية التعصبية والتوجه النرجسي فحبسوا ذوا م في شرنقة توهمهم بأ م وحدهم يمتلكون حق تمثيل الاسلام، وأن بقية الطوائف فرق ضالة أو مبتدعة منحرفة. وهكذا فقد خولوا أنفسهم حق فرض رؤاهم المذهبية على غيرهم بل ومنعهم من مزاولة شعائرهم وفق مذاهبهم الخاصة. ولايزال هذا المنطق التعصبي يمارس للأسف حتى اليوم في مجتمعات عديدة.

وهكذا، اخترت عدداً من الأسئلة: منها ماهو متصل بما هو معاصر؛ ومنها ماهو تراثي اشكالي له حضور فاعل في عصرنا - ورحت أتساءل عن شخصية دينية من طائفة السنة تستطيع الإجابة على تساؤلات كهذه. قيل لي إن هنالك شخصية دينية أضحت تطل من خلال برامج تلفزيونية كان أبرزها لقاءات مع الدكتور طيب تيزيني في مناظرات دينية - علمانية: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، الأستاذ في كلية الشريعة وعميدها الأسبق، خطيب جامع دنكز الدمشقي، وصاحب المؤلفات العديدة التي «يمكن» أن تعبر عن فكر طائفة السنة وعقائدها.

اللقاء:

اتصلت بسماحته في كلية الشريعة وسلمته أسئلتي مدونة. ودون أن يطلع عليها، أجاب بكل ثقة أنه سيسلمني إجاباته بعد أسبوع. لكن الموعد تأجل أكثر من مرة إلى أن سلمني إجاباته بعد أن

حضرت درسه الأسبوعي في الجامع الدمشقي الشهير. ونشرت الأسئلة والأجوبة مع تعقيب لي على أجوبته في صحيفة لبنانية، وأرسلت إلى سماحته نسخة من العدد بريدياً.

أحدث اللقاء صدى لابأس به - لكن لا يمكن مقارنته مع صدى مقالتي «اليزيدية» أو «الشبك» مثلاً - وأثار جدلاً في مختلف الأوساط. حتى أن اعتراضات على بعض إجاباته وانتقادات لها صدرت عن مثقفين من طائفته ذا ا.

تتابعت بعد ذلك، بشكل طبيعي، دراساتي المتعلقة بطوائف وشخصيات أخرى، إضافة إلى دراسات ذات طابع فلسفي أو ترجمات مختارة. وكاد النسيان أن يلف لقائي بالشيخ البوطي كغيره من اللقاءات، لولا أن فوجئت بعد نشره بعام تقريباً بالشيخ يصدر كتاباً يحمل عنوان «*هذه مشكلا م*» (آذار - مارس ١٩٩٣) في ٢٤٨ صفحة من القطع الكبير، توسع فيه بإجاباته على أغلب تساؤلاتي فأفرد لكل سؤال تقريباً فصلاً كاملاً. كذلك فقد نشر في كتابه النص الكامل للأسئلة التي وجهتها إليه وإجاباته عليها - وهو مانشر في الصحيفة اللبنانية - لكنه أسقط التعقيب الهام الذي قدمته في ختام أجوبته، والذي يضم بضع ملاحظات يبدو أن الشيخ وجد في تجاهلها مايعفيه من تنكّب عناء البحث عن مخرج من المأزق الذي قد تسببه له.

مشكلات من؟!

هذه مشكلا م، كعنوان، يعني أن الإشكالات التي أثار ا الأسئلة هي مشكلات السائل وليست مشكلات الذي أجاب!!

ولدى اطلاعي على فصول الكتاب، تفاجأت بسيل الا امات الموجهة لي العارية عن أي دليل، وباستخدام الشيخ تعابير وألفاظ لا تليق بأن تصدر عمن هو دون مكانته بكثير، إضافة إلى تورطه بأخطاء علمية لا تحتمل تعدد الآراء، هذا دون أن ننسى المغالطات الموضوعية والخلل المنهجي، وهو ما أوقعه في تناقضات أثارت ضده انتقادات جديدة حتى ضمن مثقفي السنة خاصة في مجال التاريخ الاسلامي.

في تلك الآونة اكتشفت للمرة الاولى، أن الشيخ لا يمثل طائفة السنة فيما يطرحه من أفكار وآراء. بل يوجد من يخالفه حتى بين أتباع المذهب الشافعي الذي يتبعه الشيخ ذاته. واكتشفت أيضاً أن الشيخ يطرح رأيه الشخصي واجتهاداته الخاصة - للأسف - على أ ا الإسلام، بل يعتبر كل من يخالف رأيه أو رأي مذهبه الفقهي أو تياره الاعتقادي الاشعري، مخالفاً للإسلام ومتهماً بالتالي بالانحراف أو الفسق أو الضلال. وتأكد لي ذلك قطعياً حين اطلعت على بعض كتبه: سواء تلك التي يدرسها في كلية الشريعة أو التي توزعها دور النشر؛ أو كتب منتقديه، ومنهم الشيخ ناصر الدين الألباني.

التواصل بعد «مشكلا م»:

وشاءت الظروف أن ألتقي بمن له صلة وطيدة بالشيخ البوطي وأتبادل معه الرأي حول كتاب *«هذه مشكلا م»*، فاقترح علي اللقاء بالشيخ خاصة بعدما علم أني اشتريت كمية من كتابه ووزعتها على مختلف الأوساط الثقافية من المعارف والأصدقاء. وبالفعل، التقيت الشيخ في م له عدة مرات. ثم زارني في م لي بحضور عدد من المثقفين الإسلاميين. تداولنا مواضيع شتى. وتبين للشيخ - بعد أن عرفني عن قرب - خطأه فيما وجهه إلي من ا امات دون أن يعرف عني غير اسمي وأسئلتي. وهكذا فقد بادر في مقدمة الطبعة الثانية من *«هذه مشكلا م»* إلى تصحيح ما أمكن تصحيحه - وأعلن اعتذاره مني على ماصدر منه معتبراً إياي باحثاً عن الحقيقة. وشكرت له بدوري هذه «الفضيلة» التي إن دلت على شيء فإنما تدل على جوهر أصيل في داخله جعله يرتقي فوق أي حرج يحول دون إحقاق الحق وإعلان الاعتذار من باحث في عمر ابنه. توسمت في مبادرة الشيخ كل خير، وأشرقت في داخلي رغبة عارمة في متابعة الحوار معه حول ما أورده في كتابه عسى أن نقارب الحقيقة أو أن نشكّل بحواراتنا مثلاً يحتذى في زمن تندر فيه الحوارات المثمرة التي يحكمها الاحترام المتبادل والرغبة الصادقة في مقاربة الحقيقة وليس هوس تأكيد الذات. فأبديت للشيخ في أحد لقاءاتنا عن رغبتي بتناول الأسئلة ذا ا التي وجهتها إليه والإجابة عليها تفصيلياً من وجهة نظري، إضافة إلى مناقشة النقاط ذات الاشكال في *«هذه مشكلا م»*، ونشر كل ذلك في كتاب منفصل. فأبدى ترحيبه وسروره.

حواراتنا... وارتداد الشيخ:

في أيلول - سبتمبر ١٩٩٢، أي بعد مضي عام ونصف على صدور *هذه مشكلا م*، أنجزت كتابي *«حوارات في قضايا المرأة والتراث والحرية»*. وقبل أن أدفع به إلى المطبعة، أرسلت مخطوطة الكتاب مع صديقنا المشترك إلى الشيخ البوطي لإطلاعه عليه علّه يلفت نظري إلى ملاحظات يجدر الأخذ ا قبل وصول الكتاب إلى القراء - وذلك تقديراً مني لموقفه الاعتذاري ورغبة مني في خروج الكتاب إلى القارىء بأفضل صورة. لكن الشيخ لم يستجب لهذه المبادرة وتمنع عن استلام المخطوطة وطلب أن ينشر الكتاب كما هو.

طُبع كتاب *«حوارات»*، إلا انه لم يتح لي أن أضمنه فصل *«حرب الجمل»*، إضافة إلى حذف فقرات هامة منه. وبمجرد صدور العمل، بادرت إلى زيارة الشيخ وتقديم عدة نسخ من الكتاب إليه طالباً منه بكل ود أن يزودني بكل ملاحظة حول «الحوارات» لأخذها بعين الاعتبار في الطبعة التالية. وقد جعلت إهداء الكتاب للشيخ البوطي واعتبرته حواراً وليس رداً على *«هذه مشكلا م»*، والتزمت

في كل فصوله بمنهج موضوعي ومناقشة علمية منضبطة بأخلاقيات الحوار وبكل احترام لسيادته. وتوزعت فصول الكتاب على المواضيع التالية:

المرأة: الانتصار الأول... والأخير.
التسري بين مطلقية الشرع وزمنية العرف.
زواج المتعة... بين القبول والرفض.
السيدة عائشة... والمعارضة.
الصيرورة: محاولة للفهم... محاولة للحسم.
حرية الاعتقاد في الإسلام.
العلمانية.
الأساطير والعلوم الحديثة.
الأبيونيون... والقس.

إلا أنني صدمت بعد مدة حين تناهى إلي من عدة مصادر أن الشيخ يكيل لي الا امات في ندواته العامة ومجالسه الخاصة بدل تزويدي بالملاحظات كما طلبت منه. ثم أصدر كتابه الثاني «*وهذه مشكلاتنا*» الذي اعتبره متمماً لكتابه الأول «*هذه مشكلا م*»،والذي ضمنه تعريضاً مبطناً بي، وقرر أن هنالك أستاذاً يقابله تلميذ، وأن على التلميذ أن لا يتصدى لمناقشة الأستاذ أو تفنيد أفكاره لأن ذلك تجاوز على من هو فوقه ممن هو دونه.

وهكذا ارتد الشيخ إلى موقعه الأول وتنكر لاعتذاره المعلن عن إساءته الظن بي وهبط بالحوار من طرفه إلى مستوى طبعة «*هذه مشكلا م*» الأولى، والذي جهدت فعلاً للارتقاء به إلى سوية حضارية. واحترت في تلمس أسباب هذا الارتداد، وازدحمت في رأسي تساؤلات عديدة:

❋ لماذا لم يستجب الشيخ لمطلبي بإبداء ملاحظاته على «*حوارات*» وآثر أن يقطع حبل الحوار الودي الراقي لاستبداله بجملة ا امات وإساءات. رغم أن «*حوارات*» لم يتضمن غير احترام الشيخ وتقديره: لا يقلل من ذلك اختلافي معه في أمور عديدة ناقشته فيها بكل موضوعية وبالأدلة الموثقة من مصادر معتمدة لديه؟

❋ لماذا يعتبر الشيخ أن الحوار الوحيد المقبول عنده هو فقط الذي يلتزم بفهمه الخاص لعلاقة «الاستاذ - التلميذ»، والتي تقيد التلميذ بالتسليم المطلق بكل مايصدر عن الأستاذ حتى لو كان عارياً عن أي دليل ومصادماً لكل الحقائق؟ ثم لماذا يصر الشيخ أن يكون دائماً في موقع الأستاذ حتى في قضايا خارجة عن مجال اختصاصه (انظر مثلاً تجاهله المتعمد للإجابة على السؤال المتعلق بالأبيونيين أو

بالعلمانية)؟ ويكفي أن نشير هنا إلى نزاعه مع الشيخ ناصر الدين الألباني، أبرز المختصين بتحقيق الحديث النبوي، ومآخذ الشيخ الألباني عليه في اعتماده على أحاديث ضعيفة.

فلماذا لم يقف موقف التلميذ من ذلك المختص وفق تصور البوطي الخاص للتلمذة؟

وهل هو على استعداد للقبول بدور التلميذ أمام الاختصاصيين في مسائل كالصيرورة والعلمانية والابيونية؟

بالنسبة لي فأنا أعتبر أني تلميذ لكل من أحاوره لكن وفق مفهوم التلمذة المقرر علمياً والذي لا يحول دون احترام الأستاذ لرأي التلميذ، ولا يمنع الأستاذ أيضاً من التراجع عن رأي يتبناه إذا جاءه تلميذه بالأدلة الموثقة على أخطائه. ولا يتأبى الأستاذ عن إرشاد التلميذ إلى مواطن الخلل فيما اعتمده من أدلة حتى تنجلي له الحقيقة وتتبدد أوهامه.

❋ هل كان اعتذار الشيخ المعلن مجرد خاطرة صدرت عنه في لحظة تجرد عن نزعاته الذاتية، فارتقت به إلى وضع العالم الحقيقي الذي يقدس فضيلة الاعتراف بالخطأ؟ **أم أن هذا الاعتذار ذاته كان خطأً فوجب عليه أن يعتذر ثانية عن اعتذاره هذا**؟ وهو ينتظر الفرصة المواتية أو الإخراج المناسب.

❋ لماذا لا يتسع صدر سماحته للحوار المحمل بالأدلة المخالفة لما يتبناه من قناعات؛ ولماذا لا يقوى بما لديه من ذخيرة علمية وأدلة «دامغة» على متابعة الحوار إذا كان واثقاً من «امتلاكه» للحقيقة؟ **ولماذا تتسم براهينه بالنفَس القصير** إذ سرعان ماتسقط من الإعياء مع بداية كل حوار مع من يخالفه الرأي؟ ولماذا يفضل دائماً أن يخرج من موقع المحاور الباحث عن الحقيقة إلى موقع المحتكر للحقيقة الذي لا أسهل عنده من إملاء آرائه على الآخرين الذين عليهم تلقيها بالقبول والتسليم حتى وإن تعسر على عقولهم «هضمها»؟

❋ لماذا يتملص الشيخ باستمرار من أي حوار نقدي جاد با ام من يحاوره بشتى الا امات التي لا يوجد بين يديه دليل عليها سوى الهواجس وسوء الظن، **مخالفاً** بذلك النص القرآني: {ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم}؟ لكن حين يطرح هذا الظن دون أي تيقن من نصيبه من الحق وينشر على العوام، فإنه يتعدى سوء الظن إلى الافتراء والبهتان - وهو أعلم من غيره - **ربما** - بموقف الإسلام من ذلك، فكيف إذا أدى هذا الافتراء وذاك البهتان إلى استعداء اتباع الشيخ ضد «المتهم المزعوم» وشحنهم للانتقام منه - وربما تتجاوز الإساءة حد الإساءة المعنوية عند كائنات تحتاج إلى من يفكر عنها؟

الجمل الذي لا يعقر:

بعد عامين تحديداً من صدور كتابي *حوارات*، قدمت في بيروت كتابي الآخر *يوم انحدر الجمل من السقيفة* الذي ضمنته بحث «حرب الجمل» الذي لم تتح لي فرصة طباعته في *حوارات* وقد لقي

هذا الكتاب، كما هو معروف، إقبالاً ملفتاً. ولابد هنا من التنويه إلى صدور ثلاثة كتب لثلاثة مؤلفين تناولت بالحوار والنقد ماورد في *هذه مشكلا م* و*حوارات في قضايا المرأة والتراث والحرية*. وهذه الأعمال هي:

وجهاً لوجه أمام التاريخ **للأستاذ حامد حسن.**

دعوة إلى حوار إسلامي مفتوح **للأستاذ نذير مرادني.**

والرأي في المرأة والحرية والتراث **للأستاذ سليم الجابي.**

كذلك، فبعد صدور *يوم انحدر الجمل من السقيفة* ظهرت في ألمانيا رسالة ماجستير للباحث اكارت فورتز بعنوان *الحوار الحالي بين التقليديين وا ددين في سوريا* تناولت بالنقد التفصيلي الحوار الذي دار بيني وبين سائر الأساتذة المذكورين آنفاً. كما خصص الشيخ البوطي عدة حلقات من برنامجه التلفزيوني، بعد أن كثر الجدل حول الكتاب وحوصر الشيخ بأسئلة كثيرة عنه من أتباعه ومريديه، تناول فيها بالنقد المبطن، الذي لا يخلو من الفخر واللمز والا ام وينأى بالكامل عن المنهجية العلمية بعض ماورد في *الجمل*. وسنعقّب على حلقاته في حينه. كل ذلك مؤشر على ما أثارته الأسئلة والإجابات عليها والكتب المتعلقة ا من اهتمام بالغ في مختلف الأوساط.

مع ذلك، لابد من الإشارة إلى أن كتاب *الجمل* لم يكن غير حلقة في سلسلة كتب صدرت على أرضية المقالة الصحفية التي تضمنتها أسئلتي للشيخ وإجاباته عليها. كما أن أسئلتي بدورها لم تكن إطلاقاً غير حلقة في سلسلة دراسات وتساؤلات وجهت لشخصيات تمثل طوائف عديدة كان من ضمنها الطائفة التي ينتمي إليها الشيخ. إذاً، لم تكن طائفة الشيخ، التي نكن لها كل احترام، مستهدفة بذا ا، ولم يكن هذا الشيخ مقصوداً لشخصه، بل ماكان لي أن أسترسل في الحوار معه بعد مضي عام على نشر اللقاء معه لولا توسعه في الإجابات على أسئلتي وإصداره لذلك في *هذه مشكلا م*. وهكذا فالشيخ هو الذي بادر إلى استدراجي لمحاورته سواء بما انطوى عليه الكتاب من إشكاليات جديدة يجدر تفنيدها أو بما تضمنه من ا امات شخصية لي لا يمكن السكوت عليها.

فهل يصح مايدعيه هذا الشيخ من أن كل القصد من محاورته هو التمسح به لنيل بعض ما أصيب به من الشهرة؟

إن الشيخ يعلم يقيناً أن جوهر القضية هو موضوعات ذات حساسية خاصة بالنسبة له يفضل أن لا يسترسل في بحثها لأن الأدلّة لا تسعفه لدعم مايتبناه من آراء حولها ولأن ما قدمته من مناقشة لها مدعمة بالاستدلال الموثق وضعه في موقع لا مفر فيه من الإقرار بصحة ماتقود إليه الأدلّة. إذا لم يكن ذلك صحيحاً، فأنا على أتم الاستعداد للتعرف على تعقيباته على مداخلاتي التي لم يتصد لها بنقد أو برد، وأعرفه من ثم على ردي على ماتعرض له حتى لا أسترسل في الاعتقاد بما هو غير صحيح.

وأتعهد له بأن لا أنشر أي شيء من ذلك حتى تسقط كل حجة يمكنه أن يتذرع ا. فما يهمنا هو تبني الحقيقة المدعمة بالدليل، والتحقق من صحة آرائنا، خاصة وأن كثيراً منها يتبناه مسلمون وغير مسلمين، بمن فيهم بعض السنة غير المتزمتين الذين يعملون العقل في كل ماعندهم من أفكار ويجعلون له سلطة على النقل الذي لم ينج من دس وتحريف وإضافة وحذف.

ثالثة الأثافي:

في أواخر عام ١٩٩٦، أصدر الشيخ البوطي كتابه الثالث *عائشة أم المؤمنين* ضمن سلسلة كتبه ذات الصلة بأسئلتي وأجوبته. وكعادته، ضمن كتابه تعريضاً بي مبطناً وتصدى بأسلوب غير مباشر للرد على بعض ماورد في *الجمل*. فهل يمكن اعتبار ذلك استفزازاً لي من قبله لمواصلة الحوار؟ أم أن الشيخ يعتبر أن مايصدر عنه يجب أن يكون بالضرورة خاتمة المطاف وكأنه القول الفصل والحكم القطعي الذي لا استئناف بعده، سواء كان ذلك رأياً ساوره أو ماً جسها،وأن على الآخر تقبلها وكأ ا القضاء المبرم الذي لا راد له؟

إذاً، من الخطأ الفادح النظر إلى كتاب *الجمل* بمعزل عن دواعيه وأسبقياته، وفصله عن مسار الحوار الذي بدأ في صحيفة وانتهى في كتب شتى، واعتباره مجرد حجر ألقي في بركة ماء ساكنة فتسبب باضطراب لا مبرر له.

لابد من فهم دواعي تأليف هذا الكتاب ضمن سياقها الصحيح، حتى يدرك نصيب ادعاءات الشيخ من الصحة في أن الغاية - كل الغاية - من الحوار، كما أشرنا، هي تعرض التلميذ المغمور للأستاذ المشهور (!!) ليقتبس منه بعضاً من شهرته. وحبذا لو علم الشيخ أنني لو كنت أهدف إلى زيادة شهرة أو كسب مادي لاقتنصت فرصاً عديدة أتيحت لي لكنها تصادم مبادئي وتحد من حريتي في البحث عن الحقيقة... وربما تساهل الشيخ في فرص مشا ة **فاستغلها** وحققت له ماشاء أن يتهم به غيره رغم مقدرته البالغة على الاستغناء عنها.

حرب الجمل: الآثار القريبة والبعيدة:

«حرب الجمل» مفصل تاريخي هام في التاريخ العربي الإسلامي. وتنبع أهمية هذا الحدث من أهمية المقدمات التي أفرزته، والنتائج التي خلفته، لذلك فنحن نتفهم جيداً الدوافع الكامنة وراء استماتة بعضهم في تشويه الحقائق التاريخية ذات الصلة ذا الحدث للحيلولة دون أية إدانة للشخصيات التي ساهمت بصنعه، فهي، من جهة، مبشرة بالجنة وفق الأحاديث المنسوبة للرسول، وقامت من جهة أخرى بأعمال وردت ا أحاديث عن الرسول أ ا تستوجب النار، منها التسبب بقتل آلاف المسلمين فيهم كثير من الصحابة وإحداث فتنة فرقت الجماعة. كان لابد لحل هذا الإشكال من تشويه الحقائق

التاريخية حفاظاً على النظرة التقديسية لهذه الشخصيات. لقد أباحوا جرح الحقيقة دون حق وحرموا جرح شخصية تاريخية ولو بحق. وما كان لتقديس هذه الشخصيات أن يحظى بأية عناية لولا مايترتب على هذا التقديس من نتائج لها ظلال قائمة تمتد حتى الحاضر والمستقبل. وليس يعنينا إطلاقاً إدانة من أصبح في ذمة التاريخ أو تبرئته لولا إحقاق حقيقة أو دحض باطل يؤدي التباسهما إلى إشكالات عديدة في حياتنا المعاصرة.

مثلاً:

❋ إن تصويب خروج السيدة عائشة في حرب الجمل بدعوى الثأر لمقتل عثمان وتجاوز الخليفة المبايع تسبب فيما بعد في خروج الكثيرين عن سلطة الخلافة بذرائع شتى، الأمر الذي أدى إلى معارك من نمط صفين والنهروان قتل فيها آلاف المسلمين، في حين كان الخروج على الخلافة قبل خروج عائشة مداناً باعتباره خروجاً عن الطاعة ومفارقة للجماعة، حتى أنه اعتبر الامتناع عن دفع الزكاة للخليفة المبايع - أبي بكر - مبرراً لقتال الممتنع مهما كان تأوله في ذلك.

❋ لقد تسببت حرب الجمل في فتنة: «والفتنة أشد من القتل». وأدت أيضاً إلى انقسام دولة الخلافة إلى رقعة تحت سلطة الخليفة الشرعي تحوي الخوارج ورقعة أخرى تحت سلطة الوالي المنشق معاوية بن أبي سفيان الذي وصل بعصيانه إلى محاربة الخليفة الشرعي في صفين وإرسال الحملة تلو الحملة على أطراف سلطته لمهاجمتها. وهكذا ضعفت دولة الخلافة وطمع الروم ا حتى اضطر معاوية لدفع الجزية لهم، خطباً لودهم وثنياً لهم عن مهاجمته حتى يتفرغ لمناوشة أطراف الكوفة وغيرها مما هو تحت سلطة الخليفة الشرعي.

❋ إن حرب الجمل هي الأم التي ولدت حرب صفين والتي ولدت بدورها النهراون فكربلاء فالحرة فتدمير الكعبة وإحراقها... وبعد صفين تكرس على نطاق واسع تكفير المسلم حتى لو كان في موقع الخلافة، واستباحة دم كل من يحكم عليه الخوارج بالكفر حتى لو كان أمير «المؤمنين» علي بن أبي طالب وقبله على أمير «المؤمنين» عثمان بن عفان.

وفي حياتنا المعاصرة نعاني كثيراً من التطرف الذي يحكم على المسلم بالكفر ويستبيح دمه ويمنح لنفسه حق الخروج على النظام العام وإحداث الفتن وسفك الدماء.

❋ لقد هدرت «حرب الجمل» الفرصة الأخيرة لرأب الصدع الذي أحدثته «سقيفة بني ساعدة» وبيعة أبي بكر التي كانت «فلتة» حسب تعبير عمر بن الخطاب - وذلك عندما بويع بالخلافة لعلي بن أبي طالب. إلا أن خروج السيدة عائشة عن طاعة الخليفة شجع على نكث من بايع، وفتح الباب على مصراعيه أمام فتن توالت عبر التاريخ منذ يوم الجمل وحتى اليوم؛ وعمق خلافات وأوجد تكتلات وتعصبات تحولت فيما بعد إلى طوائف واتجاهات سياسية ودينية ثم تبلورت في مذاهب متنازعة عبر القرون باسم الدين - حتى أ ا تجاوزت الوسط العربي الاسلامي إلى أوساط

إسلامية غير عربية، وخير دليل على ذلك أحداث أفغانستان والفتن الطائفية في باكستان التي لن تكون للأسف خاتمة المطاف.

* «حرب الجمل»، بنظر بعضهم، مثال فاشل لتدخل المرأة في الأمور السياسية - خاصة حين تكون هذه المرأة أم المؤمنين وزوجة النبي وحبيبته - فإذا كانت عائشة فشلت في دورها في الجمل، فلا عجب أن يستدل بعضهم على عدم أهلية المرأة عموماً للمسائل السياسية، خاصة حين يدعمون استنتاجهم هذا بحديث ينسبونه للرسول، يقول: «ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة». ولا عجب أيضاً أن نرى أن المرأة، في بعض الدول العربية، محرومة من ممارسة الكثير من حقوقها الطبيعية كإنسان: الانتخاب والترشيح والعمل القضائي. ولولا النظرة التقديسية لعائشة والتي تعتبرها الأنموذج الصالح للتعميم على كل امرأة، لما صدر هذا الحكم الجائر في أن كل امرأة - بحكم كو ا أنثى - غير مؤهلة لممارسة العمل السياسي.

* من ناحية أخرى، ثمة توجه آخر يمدد تقديسه لعائشة إلى دورها في «حرب الجمل» فيعتبره أنموذجاً رائداً يحتذى لممارسة المرأة المسلمة للعمل السياسي. فقد اعتبرها أحد رموز هذا التوجه معياراً للإيمان والكفر، لأ ا برأيه في «حرب الجمل» قادت جيشاً لمحاربة الكفار. ويرى أن قياد ا لطرف في «حرب الجمل» دليل كاف للحكم على الطرف الآخر بالكفر رغم أن على رأسه الخليفة الراشدي علي ابن أبي طالب ومعه ثلة من كبار الصحابة. بل يفخر هذا الرمز بذاك الدور أمام الفريق الأميركي الذي حاوره في شأن المرأة المسلمة والسياسة. وقد يلتمس بعضهم لهذا الشيخ أو ذاك في أن لا يجد في خروج عائشة ومن معها من الصحابة إلى «حرب الجمل» مايستدعي اللوم، لفرط تقديسه لها وتعصبه في محبتها، رغم ماتجم عن ذلك من فتنة عصفت بالخلافة الراشدية التي تحظى عنده بالتقديس أيضاً، خاصة وأن التاريخ يذكر لنا أن بني ضبة والأزد الذين حاربوا مع عائشة في «الجمل» كانوا يحيطون ببعير أم المؤمنين، يلتقطون بعره، يفتتونه ويشمونه قائلين: «بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك» ، وذلك من شدة محبتهم لها. فهل يحق لنا أن نستغرب حين يأتي بعد قرون من لا يجد في حدث «حرب الجمل» إلا رائحة المسك، ويستميت في تحريف الوقائع وتزييفها وطمس أوضح الحقائق حتى لا تصل إلى الأنوف إلا رائحة هذا المسك؟!.

* التاريخ إذاً ليس مجرد أحداث ميتة طويت صفحتها بالكامل، بل إن فيه أحداثاً تمتد آثارها لتتجاوز عصرها، وتلعب دوراً في صياغة فكر أجيال وسلوكها لم تعاصر هذه الأحداث بل تفصلها عنها قرون عديدة. لذا من الأهمية بمكان دراسة التاريخ - خاصة ماله حضور في حياتنا - دراسة علمية بعيداً عن الأطر التقديسية المسبقة؛ ومن حقنا الطبيعي بالتالي أن نتحرى الحقيقة التاريخية وألا نسمح لغيرها بأن يكون له تأثير فاعل في حياتنا. وإذا كان من حق الواهم أن يعيش وهمه كما يحلو له وأن لا يسمح للأسوياء بإخراجه من مقصلة الأوهام، فليس من حقه إطلاقاً أن يلزم الآخرين

بالخضوع لهلوساته وتصديقها حتى لو كرسها واقع بعينه فأصبح لها حضور في حياتنا - في أحيان كثيرة - أكبر من الحقائق.

❈ إن النظرة المستقبلية الواعية تتطلب منا رؤية تاريخية سليمة وواعية أيضاً. ولا يمكن لهذه الرؤية أن تتوافر إلا بالدراسة الموضوعية لأحداث هذا التاريخ ومفاصله الهامة. فرغم اندثار سقيفة بني ساعدة وعقر جمل السيدة عائشة فإن آثارهما لا تزال حاضرة، يتم توارثها من جيل إلى جيل؛ وليس أدلّ على ذلك من الانقسامات الداخلية بين المسلمين، والتي كثيراً ماتسبب نزاعات وصراعات دموية بغض النظر عن هدر الطاقات والامكانيات، خاصة مع توظيف السياسة للخلافات الطائفية والمذهبية لأغراضها.

❈ إن ما يحتل بؤرة اهتمامنا ليس إدانة أحد الصحابة أو إحدى زوجات النبي: هذا ليس مجدياً بحد ذاته فالكل في ذمة التاريخ. لكن مايهمنا فعلاً هو مايستَل من مواقفهم أو اجتهادا م من أحكام تقدم للأجيال باعتبارها ديناً يجب الاعتقاد به والعمل به. ويزداد الإشكال تعقيداً مع فرض هذا الموقف أو الاجتهاد وا ام كل من يخالفه بشتى التهم والتي يترتب عليها أحكام قد تصل إلى حد استباحة الدم والعرض والمال. وإذا كان العنف ظاهرة مستشرية في مجتمعات معاصرة متباينة، فإن العنف الممارس باسم الإسلام يستمد مشروعيته من ممارسات تاريخية يعتمدها ممارسو هذا العنف. وفي حين أن العنف الذي لا يستند إلى تسويغات دينية يستمد مبرراته من رؤى معاصرة لا ترتكز على الماضي تتم مواجهته بمنطق العصر، فإن ممارسة فكر أو اتخاذ موقف بالاستناد إلى الماضي ومحاولة فرض ذلك على الحاضر - كل هذا يتطلب مناقشة الأساس لتبيان موضع الخلل. في هذه الحال، لابد من البحث في أحداث الماضي وشخصياته التي تلهم هؤلاء منهجهم وأسلو م وتحكم توجها م. إن التهويش بالإدعاء أن الغاية من البحث في الماضي تنحصر في التجريح بشخصياته التي يعتبرو ا مجسدة للإسلام هو مغالطة مزدوجة دف إلى ا ام كل بحث موضوعي في التاريخ بأنه يقصد الإساءة إلى الإسلام.

❈ إن الذين يعانون من عقد تبرئة المدانين رد توهمهم أ م جزء لا يتجزأ من الإسلام وأن أية إدانة لهم هي إدانة لأحد أشكال الحكم الإسلامي إنما يمنحون الشرعية الدينية لكل صور الحكم والممارسات السياسية رد أ ا تتشح برداء الإسلام. وخطورة مثل هذا الفهم تكمن في تسلل مفهوم خطر إلى اللاوعي الجمعي الديني مفاده أن أية صورة للعمل السياسي نتيجة اجتهاد ديني - يصح ويخطئ - هي محصنة دينياً ضد كل نقد ولها مشروعيتها. بل قد تعتبر الصورة المشروعة الوحيدة التي يجب فرضها على الآخرين وكأ ا تمثل إرادة الله.

إذا كان ثمة توجه يرى أنه يجب على الباحث في التاريخ مجاراة من يمارسون تزييف التاريخ لمصلحة رؤاهم وأهوائهم حتى لا يتهم بإثارة الفتن وكشف عورات الماضي، فإن على الباحث الذي

يتصدى لإماطة اللثام عن الحقائق التاريخية أن لا ينتظر من مزيفي التاريخ غير رشقه بالحجارة: حجارة التهم وسوء الظن والشتائم والتكفير - حتى يتهيب (أو يرهب) كل باحث من اعتماد المنهج العلمي وإعطاء عقله الدور الذي يستحقه.

نبيل فياض
دمشق ٦/١٢/١٩٩٦

الإهـ ـ ـ ـداء

إلىكل من يحتمل ان تكون الحقيقة مغايرة لما ترسخ لديه من قناعات؛ وإلى كل من يرى أن الحقيقة ، كل الحقيقة، تكمن في كل رأي يتبناه.

إلى كل من يثق «بعقله» إلى درجة أنه لايتردد عن مناقشة أرسخ قناعاته إذا صادمت الحقيقة، وإلى كل من يتشبث بآرائه إلى حد لايتردد فيه عن مصادمة الحقيقة، عوض التحقّق من صحة محاكمته العقلية.

إلى كل من يمتلك المقدرة على الحوار بود صادق «حقيقي» مع من يخالفونه الرأي دون أن يستعفي عن الحوار با ام محاوريه؛ وإلى كل من يتصور «متوهماً» أنه يحتكر الحقيقة وأن كل من يخالفه الرأي لابد أن يكون «متهماً» بحسن نيته أو سلامة عقله.

إلى كل من لاتعيقه كثرة «الأصفار» حوله عن التحرك بقيمته الحقيقية وتقدير الأمر حق قدره؛ وإلى كل من يرى ذاته «كبيراً» إلى درجة يستصغر معها كل من يحاوره حتى وإن كان يحمل الحقيقة بأدلتها.

إلى كل الذين يعرفون الرجال بالحق ولا يعرفون الحق بالرجال؛ وإلى كل من يقدس الأفراد أكثر من الحقائق فلا يتحرج من ظلم الحقيقة إذا ما بددت شيئاً من هالة التقديس الكاذب.

إلى كل من يمتلك القدرة على تشخيص «مشكلاته» فلا يخجل من مواجهة ذاته بنصيبها من المسئولية ؛ وإلى كل من تعود النظر إلى ذاته على أنه «معصوم» يحق له التقرير دون دليل والحكم دون ميزان والتسفيه لكل من يخالفه.

إلى كل من يؤمن أنه يكبر بالحوار؛ وإلى كل مبتدعي الذرائع الذين يخافون أن يعيدهم الحوار الى حجمهم الطبيعي.

إلى كل من لا َيغشي أبصاره تبجيل المبجلين ولا يخدر عقله إكبار المريدين ولا يخدع نفسه تصفيق الأصفار؛ وإلى كل من لايرى إلا عبر عيون أتباعه الذين امتلك عقولهم وحده.

إلى «الصديقات»، مهندسات إحدى مديريات الأوقاف، اللواتي ناقشن كتابي حوارات بودٍ وعقلانية لامثيل لهما؛ وإلى كل من جم على ذات الكاتب، سراً وعلانية، عوضاً عن مناقشة مواضيع كتابه.

إلى أهل الصدق؛ وإلى «علماء» الباطنية الجديدة.

إلى هؤلاء وأولئك - أهدي هذا الكتاب. آملاً أن يفهم بمنطق العقل، لا بمنطق العواطف.

لا أدعي أنني وصلت الى ...اية المطاف فيما بحثت واستدللت ومن ثم استنتجت: إ...ا إثارات على طريق البحث في قضايا ربما ...يب الكثيرون حتى من مجرد التفكير ...ا، خشية تبدد نشوة الإعتزاز والفخر ببعض أحداث تاريخنا وشخصياته التي اعتدنا أن ندرسها وندرسها بعواطفنا وليس وفق منهج علمي؛ وأن نحيطها بموانع تحول دون فهمها على حقيقتها.

إني أدعو كل من يرى في البحث في أحداث التاريخ وشخصياته سلبيات نحن في غنى عنها، إلى تبصر إيجابيات هذا البحث؛ فالتاريخ يحكم حاضرنا ويوجه مستقبلنا، لذا علينا أن لا نسمح إلا للحقيقة التاريخية أن تكون فاعلة في توجيه مسارنا البحثي. إننا لو أحسنا التعامل مع هذه الأحداث التاريخية، تفهماً واستلهاماً، لما كان لإشكاليات تاريخية ذيول تمتد عبر قرون لتتسلّط على حياة أجيال معاصرة، فتتحكم بعقولها وعواطفها، بمواقفها وتحركا...ا، فتوجهها وهي مثقلة برواسب الماضي التي تعكّر وضوح رؤيتها وتستنفذ طاقا...ا في أمور لاطائل منها، بل الخطر كل الخطر فيها.

هذا الكتاب: هو دعوة لعقلنة التعامل مع التاريخ، دعوة لامتلاك وسائل تتمكّن ...ا من التحكّم بالتاريخ عوض تسلّطه على حاضرنا ومستقبلنا.

إنه مما يبعث على التساؤل، أن يطبع - ويعاد طبع - كثير من الكتب التي تتناول هذه الأحداث، عشرات المرات، وتصدر مؤلفات أخرى تستند إليها، دون أن يبذل أي جهد علمي في تحقيق أو تدقيق. فإذا ما خرج أحدهم عن المألوف وحاول إعمال عقله واستحضار ما غُيب عن عمد وتوضيح ما أُغفل عن قصد وتفنيد ما أُرسل إرسال المسلّمات، طار صواب من يظنون أن الصواب «كله» لديهم، ولجأوا إلى فنون الإ...ام العاري عن أي دليل لأنه أيسر منالاً عندهم من تفكير قليل وأوقع أثراً في نفوس «أصفارهم» وكأن التهويش بالافتراءات والتهويل بالا...امات يحولان دون أن يعمل العاقل عقله ويظهر العالم علمه.

نبيل فياض

دمشق ٢٠/ ١١/ ١٩٩٣

مقدمة* : طلائع الغزو الثقافي

حين يقف « زبولون هامر »[1] قرب « يوفال نئمان »[2]، ويقول: « أنا يهودي مؤمن، وهذا يهودي ملحد » - نصَاب بالدهشة: هل يعقل أن يكون المرء يهودياً وملحداً في آن؟! فاليهودية مصطلح يدلّ على دين بعينه، والإلحاد مصطلح يشير إلى **نفي** كل الأديان - بل إلى نفي علّة الأديان ذا ا: الإله. إذاً ماذا يقصد زبولون هامر من قوله هذا؟ اليهودية عنده خرجت من ثو ا الديني وانتحلت الصفة القومية؛ وبذلك فهي تشمل الملحد والمؤمن على حد سواء. وفي الإطار ذاته يمكن أن نفهم سبب إصرار اسحق رابين في اتفاقه مع ياسر عرفات على اعتبار اليهودية هوية قومية. - لكن: لماذا يختار هؤلاء الدين كهوية قومية؟! لأنه ما من شيء يجمع هذا المزيج المتنافر « المتفجر » من الجماعات ذات الأصل اليهودي [بينهم كثيرون ليسوا يهوداً أصلاً، كالذين جاءوا من روسيا غورباتشوف وبعض الهنود الحمر من البيرو] المنتمية إلى عدد كبير من الأعراق والألسن والقوميات سوى الدين؛ فالدين هنا عامل مجمع، موحد؛ لذلك لا يمانع زبولون هامر أن يكون يوفال نئمان يهودياً ملحداً ما دام لا شيء يمكنه أن يجمع الأول بالثاني سوى « هذه اليهودية ». - لكن: هل استطاعت « هذه اليهودية » لمّ شتات هذا المزيج المتنافر المتفجر؟ ظاهرياً: نعم. والسبب، على الأرجح، تضامن هذا المزيج لمواجهة أعدائه على الحدود. فحالة السلم تبدو بالتالي قاتلة. وهم يعرفون ذلك. وقد أظهرت حوادث « بسيطة » ذات مغزى عميق مدى هشاشة هذا التضامن وقابليته للانفجار. ففي الثمانينات، مثلاً، تحدث شمعون بيريز واسحق نافون عن حرب ثقافات محتملة في إسرائيل بعد الصدامات التي حدثت بين الأرثوذكس وجماعات نوادي العراة، خاصة في تل أبيب؛ ومؤخراً، حديث الحاخام اليعزر شاخ « غير المهذب » عن تخلّف اليهود الشرقيين ورفض وجودهم في واجهة السلطة؛ إضافة إلى الحصار المفروض على الحزب اليهودي الشرقي الوحيد، « شاس » - والتشهير بقادته.

ماذا تفعل إسرائيل كي تضمن وجودها في حالة السلم؟ تفتت المنطقة، ومؤخراً تحدث اسحق رابين عن علاقات مستقبلية مع أربع وعشرين دولة عربية، قبل انضمام « جزر القمر ». - كيف؟ إنه الغزو الثقافي الإسرائيلي الأخطر بما لا يقارن من الغزو العسكري، والذي ظهرت طلائعه مع بداية مفاوضات السلام في مدريد. « سلاح الكتاب والكاسيت أخطر من المدافع والطائرة ».

قومية واحدة ومذاهب متعددة:

---

* وردت هذه المقدمة في كلّ الطبعات عدا الرابعة.

(١) زبولون هامر (حيفا ١٩٣٦)، عضو الحزب الوطني الديني (ها-مفدال)، وهو الحزب الديني الصهيوني الوحيد في فلسطين.

(٢) البروفسور يوفال نئمان (تل أبيب ١٩٢٥) من مؤسسي حزب ها-تحيا اليميني المتطرف.

باستثناء أقليات صغيرة لا شأن لها، فنحن ننتمي إلى أمة واحدة، ونتكلم لغة واحدة، وكان لنـا تاريخ مشترك واحد تقريباً، كذلك فنحن نعاني اليوم من مشاكل متشا ة، واحدة. لكن هذه الأمة « الموحدة » قومياً، تحتوي أديان ومذاهب « مختلفة » نشأت كلها هنا، وهي تشكّل غنى حقيقيـاً إذا أحسن توجيهها، وتكون مزيجاً انفجارياً إذا لعب ا الطامعون. باختصار: حالتنا تعاكس تماماً الحالة الإسرائيلية - ما يوحد هنا، يفجر هناك، وبالعكس. لذلك تسعى إسرائيل باستمرار إلى إضعاف خط المواجهة عن طريق اللعب بالورقة الطائفية عبر عملائها المنتشرين في المنطقة، والذين لم يعد خافياً على أحد عمق ارتباطهم بالمشروع « الأميركي - الإسرائيلي » لتفتيت المنطقة. ويمكن تقسيم هـؤلاء إلى نوعين:

١ - الجماعات « الصهيو - أميركية » المشبوهة، والتي لم تعد تخفي نوعية علاقا ا بعد حرب الخليج[(٣)] وهي مؤلفة أساساً من:

آ - الوهابيون.

ب - الأخوان المسلمون.

جـ - تنظيمات الإرهاب المتستر بالدين، وهؤلاء خرجوا أصلاً عن عباءة الأخوان المسلمين وتتبناهم الآن، مادياً ومعنوياً، الوهابية.

٢ - بعض الأقليات الغريبة المتأسلمة التي تعيش في بلادنا.

١ - آ - الوهابيون:

نشأت الحركة الوهابية في جزيرة العرب في القرن الثامن عشر، في بيئة « بدوية - بدائية » متزمتة منعزلة، حين كان الاستعمار التركي العثماني يحتل منابع الفكر في الشرق ويحرم جزيرة العرب بالتالي من مواردها الفكرية شبه الوحيدة. مع ذلك، فحين احتكّت هذه الحركة بالفكر الآخر، إسلامياً كان أم غير إسلامي، ازدادت ارتكاساً وانغلاقاً على الذات، محيطة نفسها وأعضائها بأسلاك تكفير الآخر الشوكية، خوفاً من السقوط الذاتي فكرياً، عند أول مقارنة بالفكر الآخر. وقد دافعت بريطانيا في بادئ الأمر عن هذه الحركة إلى درجة التبني، ثم ورثتها عنها الولايات المتحدة، وكان لذلك أسباب عديدة، أهمها:

١ - الوهابية تفرغ الإسلام من كل جوهر وتجعل منه ديناً قشورياً مظهرياً لا هم له سوى التوافه، وتجعل من المسلم الوهابي شخصاً منغلقاً على ذاته بقوقعة تكفير الآخر، مرتبطاً بموجهيه إلى درجة الاستلاب. الأمر الذي يعني سهولة السيطرة على المنطقة حين يرتبط هؤلاء الموجهون بالقوى الراغبة في تلك السيطرة مباشرة.

---

(٣) قدمت دولة الوهابيين النفطية للولايات المتحدة أثناء حرب الخليج ١٣,٥ مليار دولار، وفي اليوم التالي قدمت الولايات المتحدة لإسرائيل ١٣ مليار دولار تعويضاً لها عن صواريخ العراق الاستعراضية. وأرجح أن المبلغ لم يغادر قط منطقة الشرق الأوسط.

٢ - الوهابية تلهي بسخافا ا الناس عن ارتباطات القادة الوهابيين و بهم - وسادا م - ثروات المنطقة وفضائحهم السياسية والمادية وحتى الأخلاقية التي تملأ يومياً أعمدة الصحف في الشرق والغرب.

٣ - نقل الصراع الخارجي نحو الداخل. فمن يطالع أدبيات الوهابيين عموماً لا يجد أدنى إشارة أو تركيز على معركتنا الحضارية مع إسرائيل والغرب بل الإلحاح المتواصل العنيف على الصراعات المذهبية الداخلية التي تفتت المنطقة من الداخل وتتيح لإسرائيل والغرب بالتالي فرصة نادرة ذهبية لترسيخ الأقدام فيها.

من هنا، لن نستغرب إطلاقاً إذا وجدنا الولايات المتحدة تحتل اليوم الخليج العربي « فعلياً ». ففي ندوة عقدت في أمستردام حول «**الإسلام والتدخل الأمي**»، ذُكِرَ أن « عدد القوات الأميركية انخفض في كافة أرجاء العالم بمقدار ١٨% إلا في دول الخليج العربي حيث ازداد بين ٢٥ - ٣٠%. وذكر قائد تلك القوات أيضاً، أنه لم يعد يتعين على القيادة الأمريكية إخطار المملكة العربية السعودية إذا ما أرادت السفن الأميركية أن ترسو في جدة »(٤). من ناحية أخرى، فإن من يتابع الإعلام الوهابي، وهو أول إعلام عربي (؟!) « غير مصري » يجري مقابلات مع اسحق رابين وشمعون بيريز ويطالب برفع المقاطعة العربية عن إسرائيل دون قيد أو شرط، يكتشف مدى سيطرة وكالة المخابرات المركزية الأميركية على مقدرات أمور هؤلاء، وهو ما يظهر جلياً في الأسلوب الإعلامي ذي الطابع « المخابراتي - الأميركي »: الموضوعية الأميركية المدروسة المزيفة - أنصاف الحقائق، أخبار دقيقة مبتورة، حيادية ظاهرية هي الإغراض بعينه؛ كم كبير من الأسماء المشبوهة، من الغرب والشرق.

١ - ب - الأخوان المسلمون:

وهم أقل خطراً من الوهابية بسبب الإمكانيات المادية الهائلة الموضوعة تحت تصرف الوهابيين. والأخوان حركة أنشأها شاب مسلم مصري متحمس اسمه حسن البنا، وكانت سنه آنذاك ٢٢ سنة!! لقد قامت هذه الحركة أساساً على حلم شبابي نزق بإعادة الحكم الإسلامي، ضمن واقع سياسي اجتماعي فاسد محبِط، ونظام ملكي متفسخ عميل، وكان باستطاعة هذه الحركة تطوير أفكار هذا الشاب اليائس ال ق نحو نوع من النضوج العقلاني لو لم تختر الإرهاب كأسلوب لها بعد سقوط الملكية، ولو لم تجعل من الإسلام واجهة تخفي خلفها مطامحها للوصول إلى الحكم. وهو ما أدى في النهاية إلى اصطدامها مع الثورة الفتية آنذاك، فاستئصلت الحركة من مصر وهربت رموزها إلى الخليج العربي أو إلى الغرب.

---

(٤) إذاعة لندن، برنامج أضواء، الأحد ١٩٩٣/٧/٢٥، الساعة ٤,٤٥.

كان لتلك الهجرة القسرية دورها السلبي على التطور الفكري للحركة. ففي الخليج العربي، التقى الفكر الإخواني بعقيدة أكثر تخلفاً وتزمتاً، وانغلاقاً هي الوهابية، فجمع الأخوان في الخليج أسوأ صفات التطرف الديني: الإرهاب الأخواني والانغلاق الوهابي. أما الذين ذهبوا إلى الغرب، فقد لقوا هناك - خاصة ألمانيا الغربية « سابقاً » - كل عون، فقط لاستعمالهم كعصا يمكن هزها في وجه أية دولة عربية لا تدخل بيت الطاعة؛ أو كأداة داعمة لتوجه الدول « المدجنة ». مثلاً: دعم حسن الترابي، الزعيم الأخواني السوداني المعروف، لحكم جعفر النميري، الذي اشتهر بفضيحة تهريب يهود الفلاشا إلى فلسطين؛ ودعم أخوان مصر لأنور السادات أيام الكامب ضد العناصر الوطني والقومية.

١ - جـ - تنظيمات الإرهاب المتستر بالدين:

وكما أشرنا من قبل، فهؤلاء في معظمهم، خرجوا « متطرفين » من عباءة الأخوان المسلمين، لتجندهم وكالة المخابرات المركزية، بأموال الوهابيين، لمحاربة النظام الماركسي في أفغانستان، ليس دفاعاً من الأميركيين والوهابيين عن الإسلام، بل خوفاً من انتشار الفكر الماركسي جنوباً وشرقاً وغرباً. وبعدما انهار النظام الماركسي في كابول، وانهارت من ثم أفغانستان كلّها، تحول هؤلاء إلى عصا أخرى أكثر قوة، يلوح بها الغرب ضد أية حكومة تفكر بالعصيان. ولا أدلّ على ذلك من وجود قيادات هذا التنظيمات في مناطق النفوذ الأميركي، داخل أفغانستان وخارجها.

٢ - بعض الأقليات المتأسلمة التي تعيش في بلادنا:

الطرف الآخر المعادي بعنف « ذكي » لكل ميل وطني - قومي هو بعض الأقليات الغريبة التي تسكن بلادنا أو على حدودها. وهؤلاء يستخدمون الحس الديني الشعبي، « بذكاء » حاد، لضرب الروح القومية؛ وقد حققوا في ذلك نجاحات هامة. لكن الحقيقة تقول إن إسلاميتهم ليست سوى وسيلة يركبونها للوصول إلى الواجهة. وهم على استعداد للتعامل حتى مع « مون » مدعي النبوة الأميركي ومؤسس الكنيسة الموحدة التي تعمل كفيلق منظّم لوكالة المخابرات المركزية أثناء الانتخابات الأميركية، وإرسال أتباعهم إليه، والقبول بالرئاسة الفخرية للكنيسة، إذا كان ذلك في صالحهم. وحتى لا يكون الكلام السابق ضبابياً، سأضرب مثالاً يلقي الضوء على كل شيء:

ضمن عملي الصحفي، قمت بثلاث زيارات لمناطق كردية قبل حرب الخليج وبعدها: الأولى لدراسة الديانة اليزيدية، ديانة الأكراد القومية برأي اليزيديين؛ الثانية للبحث عن كتب اليزيديين المقدسة ونشرها إن أمكن؛ والثالثة لدراسة وضع الأكراد بعد حرب الخليج. وكان العنصر المشترك الذي أُمكن لمسه في الزيارات الثلاث: كراهية الأكراد الغريبة عموماً للعنصر العربي. لكنها كراهية « ذكية ». كذلك مما يلفت النظر فعلاً، هذا السلوك الغريب المتناقض للأكراد داخل كردستان وخارجها. فداخل كردستان، الدويلة التي أقامها **التحالف** الغربي في شمال العراق بعد حرب الخليج

والتي امتازت بعلاقا ا الإسرائيلية منذ البداية الأولى، يطرح الأكراد التصور القومي للوطن، لإبعاد العناصر الأخرى عن الواجهة. لكنهم خارج كردستان، حين يكونون أقليات لا شأن لها، يتبنون إما الخط الماركسي أو الخط الإسلامي (دون أن يخفي ذلك ميولهم القومية عموماً)، حتى يحافظوا على وجودهم في الواجهة. ويشترك الإسلام والماركسية في كو ما اتجاهين أممين **لا** يشترطان القومية - أو يتخطيا ا. وهكذا فليس من مصلحة هؤلاء إطلاقاً هيمنة الاتجاه الوطني القومي لأنه لا مكان لهم فيه. ومصلحتهم العليا تكمن في المزيد من الطائفية والمذهبية وبالتالي التشرذم؛ باختصار: إ م رموز طائفية مذهبية لا وطنية تعظم مع تعاظم « الطائفية - المذهبية » وتسقط مع سقوطها.

الغزو الثقافي الإسرائيلي:

١ - الساحة السورية:

يتساءل المرء: ما هو هدف السياسة الإسرائيلية في مرحلة السلم؟ إبقاء المنطقة في حالة من التخلّف المدقع أولاً؛ وخلق حالات - أو كيانات إن أمكن - تفتيتية طائفية - مذهبية، تقلب ساحة المعركة الحضارية مع عدو متحضر، « نووي »، إلى صراعات داخلية لإمارات الطوائف. وقد نجحت إسرائيل في هدفها هذا إلى حد بعيد، وإن بسلاح عربي هذه المرة: أشرطة التسجيل والكتب المسمومة التي تأتي إلينا من مناطق النفوذ الوهابية.

إن أشرطة تسجيل شيوخ الوهابية تملأ الآن بيوت سوريا وساحا ا وسيارات الأجرة فيها. وهي دف كلها دون استثناء إلى غايتين لا ثالث لهما: إبعاد الشعب عن معركة الحضارة وحضه على حصر اهتمامه في مسائل المظهر؛ التحريض على الطائفية وما يستتبع ذلك من دعاوى للقتل وسبي النساء واستعباد الأطفال. والغريب أن تلك الأشرطة تدخل سوريا وتنتشر فيها بسهولة بالغة، في حين أن الدولة المنتجة لها تفرض حظراً لا مثيل له على الفكر، بحيث يمكن القول إن إدخال المخدرات إلى ذلك البلد الوهابي أسهل بكثير من إدخال الكتب.

من ناحية أخرى، فالكتب المسمومة التي كانت تأتي « على حذر » سابقاً، وجدت الآن في معرض الكتاب العربي فرصة ممتازة بحيث يمكن أن نسمي معرض ١٩٩٣، دون مبالغة، « **المنتدى الوهابي** في **دمشق** ».

إن السؤال الذي لا بد من طرحه على القائمين على الشأن الثقافي: ما هي الفائدة المرجوة من إدخال كتب تكفيرية مثل: *إسلام بلا مذاهب، ضوابط التفكير، الغلو، ديانات ومذاهب أهل العالم*..؟

ما هي الفائدة من إدخال كتب السحر والشعوذة والتفاهات الأخرى المغلّفة بلبوس ديني، الأمر الذي يسيء إلى جوهر الدين ذاته؟

ما هي الفائدة الحضارية من إدخال كتب الهندي الجنوب أفريقي « أحمد ديدات » التي تشتم أبناء شعبنا من المسيحيين في صميم عقائدهم، والتي تتنافى أصلاً مع جوهر الإسلام ذاته: « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (قرآن كريم ١٦: ١٢٥).

لقد بدأ الغزو الثقافي الإسرائيلي، في خيول طروادة الوهابية - غزو أخطر، بما لا يقارن، من أي غزو عسكري إسرائيلي سابق. والهدف: إسقاط آخر قلعة تقف في وجه الطموحات الإسرائيلية.

« الويل لأمة ممزقة وكل ينادي أنا أمة »

٢ - الساحة الفلسطينية:

الساحة الأخرى (والأخيرة) التي تعرقل المشروع الإسرائيلي هي تلك الفلسطينية. ففي دول الأعراب النفطية، ثمة هجمة مخيفة على الشعب الفلسطيني، وصلت إلى حد تزوير التاريخ والدين، حين يزعم أحد « مفكريهم »، أن فلسطين في القرآن الكريم ليست للفلسطينيين، بل لبني إسرائيل. لذلك فهي « شرعياً » ملك لليهود[5].

وفي إطار النغمة الدينية المزعومة ذا ا، قام « مفكّر » إسلامي « غير عربي » هذه المرة، ليشن في الفترة ذا ا تقريباً، هجوماً لاذعاً على الفلسطينيين، يزعم فيه أ م لم يفقدوا بلادهم إلاّ لقلّة إيما م، وأن إيمان اليهود كان أساس احتلالهم فلسطين. وقد ظهرت كتابات كثيرة، أغلبها « سوري - فلسطيني »، ردت على تلك المزاعم، لكنها نادراً ما خرجت عن إطار العواطف؛ وبالتالي فمن الواجب، تفنيداً لتلك الأقاويل المشبوهة، إيضاح النقاط التالية:

١ - الشعب الإسرائيلي غير مؤمن عموماً، فلو عدنا إلى نتائج الانتخابات الإسرائيلية، التي تكشف إلى حد كبير عن توجهات الرأي العام « اليهودي » لاكتشفنا ما يلي: في انتخابات ١٩٨٨ حققت الأحزاب الدينية مقابل الأحزاب اللادينية، أكبر انتصار لها في تاريخها: فقد فازت بثمانية عشر مقعداً: ٥ للمفدال (صهيوني ديني أشكنازي)، ٢ لديغل هاتوراه (ديني أشكنازي) ٥ لأغودات يسرائيل (ديني أشكنازي) ٦ لشاس (ديني سفاردي). فإذا كان مجموع مقاعد الكنيست الإسرائيلية ١٢٠، فإن نسبة الذين انتخبوا مرشحين دينيين هي ١٥% تحديداً. في انتخابات عام ١٩٩٢، تراجع التيار الديني حيث لم يفز غير بستة عشر مقعداً: ٦ المفدال، ٦ شاس، ٤ يهودية التوراة الموحد؛ أي ١٣,٣%.

---

(٥) صحيفة *الأنباء* الكويتية، ١٩٩٣/٥/١٩. ويوم ١٩٩٢/٧/١٧، كتب أحد « مفكري » الكويت، في الصحيفة ذا ا: « إن بعض العرب هم أعداؤنا الحقيقيون... أعداؤنا هم شعوب تلك الدول، بمعنى أن عداوتنا ليست مع حكومات زائلة، بل مع شعوب باقية، لن يمحوها الزمن مهما طال.. ثم ما فائدتنا من العرب، هل هم شعوب متحضرة، أو أمم شابت الغربان من هول علمها ومن مخترعات علمائها؟ إ م بالكاد يكادون يكونون دولاً برسيمية، والبرسيم أفضل منتوجا م العقلية والفصلية ».

وإذا كنا قد أشرنا سابقاً إلى البروفسور يوفال نئمان، « اليهودي الملحد »، كأنموذج للتيار اليميني اللاديني في إسرائيل، فسوف نقدم الآن نموذجين شهيرين للتيار اليساري اللاديني، لإظهار « عمق » إيمان هذا الشعب، وموقفه الفعلي من الدين:

فقد قالت السيدة شولاميت آلوني، من تجمع ميريتس اليساري (يضم ثلاثة أحزاب: شينوي، راتس، ومابام، وله ١٢ مقعداً)، ما معناه، أن الكتاب المقدس العبراني (التاناخ) ليس سوى مجموعة خرافات لا يجوز تدريسها لطلبة المدارس. وشرعت كوزيرة للمعارف في تغيير شامل لنظام التعليم، الأمر الذي أثار الحاخامين حتى وصفها بعضهم بأ ا أخطر على اليهودية من هتلر. وانتهت العاصفة باستبدال السيدة آلوني بالبروفسور أمنون روبنشتاين، حليفها في ميريتس (الأولى من راتس والثاني من شينوي)، لكن السيدة آلوني احتلت بالمقابل وزارة لا تقل أهمية عن سابقتها: الاتصالات.

من ناحية أخرى، فقد وقفت السيدة ياعيل موشيه دايان، عضو الكنيست من حزب العمل (٤٤ مقعداً) والكاتبة والأديبة المرموقة، لتقول إن النبي داود كان لوطياً، بواقع علاقته « الغامضة » بيوناتان بن شاءول. وداود، للعلم، واحد من أقدس الشخصيات في الديانة اليهودية، والتي يرى اليهود الأرثوذكس أ ا ما تزال حية في السماء، وسوف تعود يوماً ما إلى الأرض. ورغم الاحتجاجات الصاخبة، لم يهدر أحد دم السيدة دايان، ولم يتقدم أصولي يهودي لاغتيالها، فبين اليهود لا يوجد وهابيون - وهنا سر قو م.

٢ - مقابل ذلك، فالفلسطينيون في غالبيتهم الساحقة شعب مؤمن، ما يزال كبقية العرب يعتقد أنه بالدعاء والتوسلات والخطب يستطيع تحرير أرضه والعودة إليها - وتلك أبرز نقاط ضعفه. صحيح أن حركات علمية واعية نشأت بين صفوف هذا الشعب، لكن الضربات المتلاحقة والفشل واليأس أعادوا أصحاب الحلول الغيبية إلى مناصبهم التي طردوا منها. « فهل يستطيع السحرة مقاومة العلماء؟ ».

٣ - احتلال فلسطين مخطط له منذ أكثر من قرنين. فإذا افترضنا أن ذلك كان نتيجة إثم جماعي ارتكبه الشعب الفلسطيني قديماً: فهل يتوارث أبناؤهم تلك « الخطيئة الأصلية »؟ وهـل يوجـد في الإسلام كله ما يشير إلى أن دم هذا الإثم كان عليهم وعلى أبنائهم من بعدهم؟

٤ - ليس كل شعب (أو جماعة) يصاب بنكسة، يكون الله غاضباً عليه. « فالله ليس يهوه ». والتاريخ الإسلامي مليء بالشواهد على ذلك:

ماذا نقول عن انكسار جيش المسلمين في معركة أحد؟

ماذا نقول عن الحسين بن علي، ابن فاطمة، بنت محمد وخديجة، « سيد شباب أهل الجنة »، الذي قتله يزيد بن معاوية في واحدة من أهول النكبات التي ألحقها الأمويون بالإيمان المحمدي، وحمِلَ رأسه إلى « الخليفة أمير المؤمنين »، من العراق إلى الشام، وسيقت معه بنات آل بيت النبي سبايا؟

فهل كان سيد شباب أهل الجنة آثماً؛ وما مدى التزام قاتله يزيد بشرع الله، حتى وقف « إلهه » إلى جانبه، ونصره على أعدائه؟.

حقائق عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية:

في الإطار التدجيلي ذاته، صدر عن « وزارة المعارف - المكتبات المدرسية » في تلك الدولة الوهابية، كتاباً حمل عنوان « *حقائق عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية* »، مليئاً بالأكاذيب، يهدف أصلاً إلى « غسل عقول » الأطفال، و يئتهم كي يتحملوا « شرعياً » مظالم الحاكم، مهما كان فاسداً، فاسقاً. فما هي « حقائق أمير المؤمنين » هذا، الذي خرج منتصراً من كل معاركه مع معارضيه من المسلمين؟

يقول ابن كثير إن يزيداً هذا « كان فاسقاً »[٦]؛ فهو القائل:

لعبت هاشم بالملك فلا   ملك جاء ولا وحي نزل

« كان يزيد صاحب شراب، فأحب معاوية أن يعظه في رفق، فقال: يا بني ما أقدرك على أن تصل حاجتك من غير تك يذهب بمروءتك وقدرك ويشمت بك عدوك ويسيء بك صديقك، ثم قال: يا بني إني منشدك أبياتاً فتأدب ا واحفظها؛ فأنشده:

انصب اراً في طلاب العلا   واصبر على هجر الحبيب القريب
حتى إذا الليل أتى بالدجى   واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فباشر الليل بما تشتهي   فإنما الليل ار الأريب
كم فاسق تحسبه ناسكاً   قد باشر الليل بأمر عجيب
غطّى عليه الليل أستاره   فبات في أمن وعيش خصيب »[٧]

وقال ابن كثير عن يزيد أيضاً: « وكان فيه أيضاً إقبال على الشهوات وترك بعض الصلوات، في بعض الأوقات، وإماتتها في غالب الأوقات »[٨].

ويذكر اليعقوبي أنه لما أراد معاوية « أن يأخذ البيعة ليزيد من الناس، طلب من زياد [بن أبيه] أن يأخذ بيعة المسلمين في البصرة، فكان جواب زياد: ما يقول الناس إذا دعوناهم إلى بيعة يزيد وهو يلعب بالكلاب والقرود، ويلبس المصبغات، ويدمن الشراب، ويمشي على الدفوف »[٩].

ويذكر ابن الأثير أن معاوية أرسل يزيد إلى الحج [أو أخذه معه] فجلس يزيد بالمدينة على شراب فاستأذن عليه عبد الله بن العباس والحسين بن علي فأمر بشرابه فرفع، وقيل له: إن ابن عباس إن وجد ريح شرابك عرفه، فحجبه وأذن للحسين، فلما دخل وجد رائحة الشراب مع الطيب، فقال: ما هذا

---

(٦) *البداية والنهاية*، مكتبة المعارف، مكتبة النصر، ٢٢٦/٨ وما بعد.
(٧) *المرجع السابق*.
(٨) *المرجع السابق*.
(٩) *تاريخ* اليعقوبي.

يا ابن معاوية؟ فقال: يا أبا عبد الله هذا طيب يصنع لنا بالشام، ثم دعا بقدح آخر، فقال: اسق أبا عبد الله يا غلام. فقال الحسين: عليك شرابك أيها المرء.

فقال يزيد:

ألا يا صاح للعجب   دعوتك ثم لم تجب
إلى القينات واللذا   ت والصهباء والطرب
وباطية مكللة   عليها سادة العرب
وفيهن التي تبلت   فؤادك ثم لم تتب

فوثب عليه الحسين، وقال: بل فؤادك يا ابن معاوية تبلت(١٠).

« وحج معاوية وحاول أن يأخذ البيعة [ليزيد] من أهل مكة والمدينة فأبى عبد الله بن عمر، وقال: نبايع من يلعب بالقرود والكلاب ويشرب الخمر ويظهر الفسوق، ما حجتنا عند الله؟.

وقال ابن الزبير: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وقد أفسد علينا ديننا »(١١).

ويروي ابن قتيبة أن الحسين قال لمعاوية: « قد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد في ما أخذ من استقرائه الكلاب المهارش عند التحارش، والحمام السبق لأترا ن، والقينات ذوات المعازف، وضروب الملاهي، تجده ناصراً، ودع عنك ما تحاول »(١٢).

ويقول البلاذري: « كان يزيد بن معاوية أول من أظهر شرب الشراب، والاستهتار بالغناء، والصيد واتخاذ القيان والغلمان، والتفكّه بما يضحك منه المترفون من القرود والمعافرة بالكلاب والديكة »(١٣).

ويحكي البلاذري عن قرد ليزيد يدعى أبا قيس، فيقول: « كان ليزيد بن معاوية قرد يجعله بين يديه ويكنيه أبا قيس، ويقول: هذا شيخ من بني إسرائيل أصاب خطيئة فمسخ وكان يسقيه النبيذ ويضحك مما يصنع، وكان يحمله على أتان وحشية ويرسلها مع الخيل فيسبقها، فحمله يوماً وجعل يقول:

تمسك أبا قيس بفضل عنا ا   فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به   جياد أمير المؤمنين أتان »(١٤)

وقد قال أحد الشعراء عن يزيد:

(١٠) *تاريخ* ابن الأثير ٥٠/٤.
(١١) *تاريخ* اليعقوبي ٢٢٨/٢.
(١٢) *الإمامة والسياسة* ١٧٠/١.
(١٣) *أنساب الأشراف* ١/١/٤.
(١٤) أنظر: *أنساب الأشراف* ١/١/٤-٢؛ *مروج الذهب* للمسعودي ٣/ ٦٧ - ٦٨.

يزيد صديق القرد ملّ جوارنا فحن إلى أرض القرود يزيد
فتباً لمن أمسى علينا خليفة صحابته الأدنون منه قرود[١٥]

وقال ابن كثير: « اشتهر يزيد بالمعازف وشرب الخمور، والغناء والصيد، واتخاذ القيان والكلاب، والنطاح بين الأكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا ويصبح فيه مخموراً. وكان يشد القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوق به، ويلبس القرد قلانس الذهب وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل وكان إذا مات القرد حزن عليه وقيل إن سبب موته أنه حمل قردة وجعل ينقزها فعضته »[١٦].

وقال البلاذري إن سبب وفاة يزيد أنه حمل قردة على الأتان وهو سكران ثم ركض خلفها فسقط فاندقّت عنقه أو انقطع في جوفه شيء[١٧].

قرد آخر ليزيد، اسمه أبو خلف، قال عنه البلاذري: « خرج يزيد يتصيد بحوارين وهو سكران، فركب وبين يديه أتان وحشية قد حمل عليها قرداً، وجعل يركض الأتان، ويقول:

أبا خلف احتل لنفسك حيلة فليس عليها إن هلكت ضمان

لكن أبا سمير هو القرد الذي احتل أرفع مكانة في قلب « أمير المؤمنين » يزيد، إلى درجة أنه حين مات (القرد طبعاً)، أمر الخليفة « أمير المؤمنين » بغسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين[١٩].

ليست مصيبتنا في حضرات السادة العلماء الأجلاء الأفاضل، الذين جهزوا « أبا سمير » وصلّوا عليه ودفنوه في مقابر المسلمين فهؤلاء على استعداد للصلاة على الشيطان ذاته، لو أراد « الخليفة أمير المؤمنين » ذلك!

لكن مصيبتنا الفعلية هي في أولئك الوهابيين الذين ما زالوا مستمرين في ترويج كل أنواع الدجل والعهر الفكري، يلعبون ا بعقول الصبية والنسوة المهتاجات.

ملاحظة:

إن واحداً من أبرز الذين شنوا الحملة « التكفيرية » على الشعب الفلسطيني هو أيضاً مهجر من وطنه الأم، مع فارق بسيط: الشعب الفلسطيني عربي، وفلسطين دائماً هي الجزء الجنوبي من سوريا

---

(١٥) *أنساب الأشراف* ٢/١/٤.
(١٦) *ابن كثير* ٢٣٦/٨.
(١٧) *أنساب الأشراف* ٢/١/٤.
(١٨) *المصدر السابق*.
(١٩) *المسلمون العلويون في مواجهة التجني*، مقدمة حامد حسن، ص١٤.

الكبرى؛ وحين ينتقل ابن القدس الى دمشق، لظرف طاريء، فهو يظلّ في وطنه؛ في حين أن صاحب الهجوم غير غربي أصلاً وهوية وانتماء.

لغز «الإسلام هو الحل»؟

تسود الآن في الأوساط الدينية الإسلامية، على اختلاف ميولها وأنواعها، عبارة تبدو وكأ ا توحدها، رغم تناقضا ا الصارخة: «الإسلام هو الحل» - شعار، كعادتنا في الشعارات، عاطفي، ضبابي، خالٍ من التحديد والهدف والبرنامج. والجماهير - «الدهماء» كما يسميهم بعض علمائنا - ماتزال تسير خلف الشعارات دائماً، لسبب واحد: حاجتها إلى مخلّص، أياً كان شكله. ولابأس أن يكون هذا المخلص غامض الملامح، ضبابي القسمات، هلامي الشكل، فذلك سيضيف إلى سحره سحراً، وإلى قوته قوة. لقد طُرِح شعار «الإسلام هو الحل» نتيجة فشل الحلول الأخرى: فشل لعبت فيه سيطرة التخلف الديني على الحس الشعبي (انظر مثلاً موقف نور الدين العتر من مسألة «تحديد النسل» في كتابه عن المرأة) والموقف النفاقي لبعض الأنظمة من أشكال التخلف، الدور الأبرز.

إن شعار «الإسلام هو الحل» مقبول تماماً إذا كان دعوة صادقة للعودة إلى الإيمان المحمدي: إيمان العلم والحضارة واحترام الحقوق العامة والخاصة. لكن هذا الشعار يحمل دائماً الصيغة الطائفية. فأي «إسلام» هو الحل؟ السني أم الاثنا عشري أم الاسماعيلي أم الأباضي أم الزيدي..؟؟ وإذا افترضنا أن السني هو الحل: فهل سيكون الشافعي أم الحنفي أم الحنبلي أم المالكي؟ هل سيكون التصوفي السلفي أم المعادي للتصوف؟ (الوهابيون الحنابلة، مثلاً، يكفّرون ابن عربي). ولنفترض أن الاثني عشري هو الحل: هل سيكون القائل بولاية الفقيه المطلقة أم غير القائل ا؟ وهل سنعتمد مرجعية واحدة في هذا «الحل» أم مراجع عديدة، حتى وإن تناقضت؟ لابأس اعتبار «الاسماعيلية هي الحل»، خاصة وأن الفاطميين أقاموا دولة إسلامية قوية في مصر، كانت تضم معظم الدول العربية، وتركوا وراءهم حضارة عميقة: هل ستكون الاسماعيلية ال ارية أم المستعلية؟ بل هل ستكون ال ارية القاسمية أم المؤمنية؟ وأي طرف سنعتمد من المستعلية التي تفرعت أكثر من ال ارية؟

إن أصحاب «الإسلام هو الحل» يطالبون بعودة الخلافة الإسلامية. - فهل كانت «الخلافة الإسلامية» استمراراً للإيمان المحمدي فعلاً؟ سوف نحاول الإجابة على هذا السؤال باستنطاق التاريخ، دون التوقف عند المرحلة الأموية - العباسية وما تلاها، حتى لا يقول بعضهم إن حكام هذه المرحلة ليسوا سوى سلاطين متعسفين عموماً اتخذوا من الدين ستارة يغطون ا جرائمهم. بل سنتوقف فقط عند مرحلة الخلفاء الراشدين، بدءاً بحوادث ماقبل وفاة النبي حتى مقتل عثمان. أما «حرب الجمل» فسوف تناقش في فصل خاص.

الحدث الأول: سرية أسامة بن زيد

سرية أسامة بن زيد، هي آخر سرية في حياة النبي، جاء في طبقات ابن سعد أنه «لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين في صفر سنة إحدى عشرة من مهاجر رسول الله (ص)، أمر رسول الله (ص) الناس بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا أسامة بن زيد، فقال: سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش، فأغر صباحاً على أهل ابنى (إحدى المناطق) وحرق عليهم وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك..

يوم الأربعاء.. بدء رسول الله، فحم وصدع.. والخميس، عقد لأسامة لواء بيده، ثم قال: أغر باسم الله في سبيل الله فقاتل من كفر بالله.. فخرج.. فعسكر بالجرف.. فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأولين والأنصار إلا انتدب.. أبو بكر وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم.. تكلم قوم، وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين! (وفي «كامل ابن الأثير»: تكلم المنافقون في إمارته، وقالوا: أمر غلاماً على جلة المهاجرين والأنصار[(١)]! وفي «تاريخ اليعقوبي»: وتكلم قوم، وقالوا: حدث السن وابن سبع عشرة سنة)[(٢)]. غضب رسول الله، فصعد المنبر، وقال:[(٣)] «لئن طعنتم عليه، فقبله طعنتم على أبيه، وإن كانا لخليقين بالإمارة»[(٤)]! «جهزوا جيش أسامة، لعن الله من تخلف عنه»[(٥)].

«نزل (النبي) فدخل بيته، وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول.. وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ويمضون إلى العسكر بالجرف.. ثقل (النبي).. (وراح يقول): أنفذوا بعث أسامة.. الأحد اشتد برسول الله وجعه، فدخل (أسامة) والنبي مغمور فطأطأ رأسه فقبله.. رجع أسامة إلى معسكره.. دخل يوم الاثنين.. أصبح رسول الله معفياً، فقال: اغد على بركة الله... ودعه أسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل، فبينا هو يريد الركوب إذا رسول أمه، أم أيم، قد جاءه يقول: إن رسول الله يموت! فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة فانتهوا إلى رسول الله وهو يموت، فتوفي حين زاغت الشمس يوم الاثنين، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة»[(٦)].

---

(١) ٣١٧/٢.
(٢) ١١٣/٢.
(٣) *طبقات* ابن سعد ١٩٠/٢.
(٤) *اليعقوبي* ١١٣/٢ دار صادر، بيروت ١٩٦٠.راجع أيضاً:*ص* البخاري، المغازي ٣٩١٩؛ *ص* مسلم، فضائل الصحابة ٤٤٥٣؛ *مسند* أحمد، مسند المكثرين ٤٤٧١.
(٥) الشهرستاني، *الملل والنحل* ٢٣/١؛ *شرح النهج* ٢١/٢.
(٦) *طبقات* ابن سعد ١٩٠/٢.

ولما توفي النبي كان عمر حاضراً وأبو بكر في م له بالسنح[٧].

بعد وفاة النبي وتولي أبي بكر زمام الخلافة، عزموا على إلغاء البعث بالمرة، وكلموا أبا بكر في ذلك وأصروا عليه غاية الإصرار[٨]. ثم جاءه عمر بن الخطاب يلتمس منه بلسان الأنصار أن يعزل أسامة ويولي غيره. فوثب أبو بكر، وأخذ بلحية عمر، وقال: «ثكلتك أمك وعدمتك يابن الخطاب، استعمله رسول الله (ص) وتأمرني أن أنزعه»[٩].

مناقشة النصوص:

من النص السابق يمكن أن نستنتج مايلي:

١ - عندما أحس النبي بدنو أجله، أصر على إنفاذ سرية أسامة بن زيد التي أشرك فيها معظم وجوه المهاجرين والأنصار و«لعن من تخلف عنها» لرغبته، على الأرجح، بتسوية أمور خلافته في غياب مراكز القوى التي قد تثير خلافات بعده حول مسألة الحكم: وهذا ماحصل فعلاً.

٢ - لاختياره أسامة بن زيد الشاب أميراً على شيوخ المهاجرين والأنصار معنى هام للغاية، فهو تحضير لهم، غالباً، كي يذعنوا لسلطة من يختاره النبي بعده، أياً كانت سنه.

٣ - إحساس مراكز القوى بما يخطط له النبي، وتثاقلهم بالتالي عن الخروج في سرية أسامة. ورغم إلحاح النبي المتواصل، وجدنا هؤلاء، عند وفاة النبي، متناثرين في أرجاء المدينة.

الحدث الثاني: وفاة النبي

النص الأول:

«لما حضر رسول الله (ص)، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي (ص): هلم أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده. فقال عمر: إن النبي قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن! حسبنا كتاب الله! فاختلف أهل البيت، فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي كتاباً لن تضلوا بعده! ومنهم من يقول ماقاله عمر، فلما كثر اللغو والاختلاف عند النبي، قال لهم رسول الله (ص): قوموا! قال عبيد الله ابن مسعود: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ماحال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم»[١٠].

---

(٧) *كامل* ابن الأثير ٣٢٣/٢.

(٨) انظر: *ك العمال* ٥٧٥/١٠؛ *منتخب ك العمال* امش *مسند* أحمد ١٨٣/٤؛ *السيرة الحلبية* ٢٣٦/٣؛ *الكامل* ٣٣٤/٢ - ٣٣٥.

(٩) انظر: *تاريخ* الطبري ٢٢٦/٣؛ *كامل* ابن الأثير ٣٣٥/٢؛ *السيرة النبوية* امش *الحلبية* ٣٤٠/٢.

(١٠) *البخاري* ٩/٧، ١٦١/٨؛ *مسلم* ٧٥/٥؛ *مسند* أحمد ٣٥٦/٤ ح٢٩٩٢. من أجل الراغبين في البحث عن قول ابن مسعود في الاسطوانة الليزرية التي سنعتمدها أيضاً مرجعاً رئيساً؛ را.*ص* البخاري، العلم ١١١؛ المغازي ٤٠٧٩؛ المرضى الاعتصام بالكتاب؛*ص* مسلم، الوصية ٣٠٩١؛ *مسند* أحمد، مسند بني هاشم ٢٨٣٥، ٢٩٤٥.

النص الثاني:

«لما حضرت رسول الله الوفاة، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال رسول الله: ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده. فقال عمر كلمة معناها أن الوجع قد غلب على رسول الله (ص)، ثم قال: عندنا القرآن، حسبنا كتاب الله»[١١].

النص الثالث:

«اشتد برسول الله وجعه، فقال: آتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً. فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي التنازع، فقالوا: هجر رسول الله»[١٢]. وفي نص ثان: «فقالوا: ماشأنه؟ أهجر!»[١٣]. وفي نص ثالث: «فقالوا: إن رسول الله يهجر»[١٤].

النص الرابع:

«لما مرض النبي، قال: ائتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا من بعده أبداً، فقال النسوة من وراء الستر: ألا تسمعون مايقول رسول الله (ص)؟ قال عمر: انكن صويحبات يوسف، إذا مرض رسول الله عصرتن أعينكن، وإذا صح ركبتن عنقه! فقال رسول الله: دعوهن فا ن خير منكم»[١٥].

النص الأخير:

«ولما مات رسول الله (ص)، قال قبل موته: إيتوني بدواة وبياض لأزيل عنكم إشكال الأمر وأذكر لكم المستحق لها بعدي. قال عمر: دعوا الرجل فإنه ليهجر؛ وقيل: يهذو»[١٦].

مناقشة النصوص:

١ - النصوص الخمسة السابقة تظهر بجلاء أسلوب تعامل معظم المؤرخين الإسلاميين مع الحدث التاريخي. فمن المعروف أن عمر بن الخطاب واحد من أهم الشخصيات في التاريخ الإسلامي، إن لم يكن أهمها على الاطلاق. وهذا ماجعل بعض المؤرخين يتعاملون بحذر حيناً، وتمويه أحياناً، مع بعض ماصدر عنه. ففي النصوص السابقة، نجد النص الأول يقول عن لسان عمر: «إن النبي قد غلب عليه الوجع»؛

---

(١١) *شرح النهج* للمعتزلي ٥١/٦.

(١٢) *البخاري* ك الجهاد، ب جوائز الوفد؛ ك الجزية، ب اخراج اليهود من جزيرة العرب؛ مسلم ك الوصية، ب ترك الوصية لمن ليس عنده شيء؛ مسند أحمد ٢٢٢/١. من أجل الاسطوانة الليزرية، را. *ص* البخاري، الجهاد والسير ٢٨٢٥.

(١٣) *تاريخ* الطبري ١٩٢/٣ - ١٩٣؛ من أجل الاسطوانة الليزرية، را.*ص* البخاري، الجزية والموادعة ، المغازي ٤٠٧٨؛ *ص* مسلم، الوصية٣٠٨٩؛ مسند أحمد، مسند بني هاشم ١٨٣٤ . في النص الأخير نجد القول: «قالوا: ماشأنه؟ أهجر؟ قال سفيان: يعني، هذى».

(١٤) *مسند* ابن حنبل ٣٥٥/١؛ *الكامل* ٣٠٢/٢.را. في الاسطوانة الليزرية:*ص ص* مسلم، الوصية٣٠٩٠؛ *مسند* أحمد، مسند بني هاشم ٣١٦٥.

(١٥) *طبقات* ابن سعد ٢٤٣/٢ - ٢٤٤.

(١٦) الامام الغزالي، *سر العالمين وكشف مافي الدارين*، ص٢١، مطابع النعمان ط/٤/؛ سبط بن الجوزي، *تذكرة الخواص*، ص/٦٢/، ط الحيدرية انظر أيضاً كتاب الغزالي ذاته، «*سر العالمين وكشف مافي الدارين المسمى بالسر المكنون*»، ط بندر بومبي، نسخة الظاهرية، باب المقالة الرابعة ص/٩/.

والتي صارت في النص الثاني: «قال عمر كلمة معناها أن الوجع قد غلب على رسول الله». في النص الثالث ظهرت تلك الكلمة التي «معناها» أن الوجع قد غلب على رسول الله، وهي: «هجر رسول الله»، لكنها لم تنسب إلى عمر، بل إلى شخص مجهول: «فقالوا: ماشأنه؟ أهجر!». لكن الإمام الغزالي في النص الخامس يوضح المسألة برمتها حين يقول، ان عمر ابن الخطاب هو الذي قال، ان النبي ليهجر.

٢ - إن كلمة «يهجر» - بمعنى يخلط أو يهذو - تتنافى تماماً مع أبسط المعايير الموضوعية والدينية، بل حتى الأخلاقية. فسياق النص، يظهر أن النبي يوم وفاته، وقبل ذلك، حين كان يجهز لسرية أسامة بن زيد، كان بكامل وعيه؛ دينياً، تتعارض كلمة «يهجر» تماماً أيضاً مع ماجاء في القرآن الكريم عن النبي: {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى}.

٣ - رفض عمر لوصية النبي، متذرعاً بأن القرآن الكريم «حسبه»، يتنافى أيضاً، من وجهة نظر دينية، مع مايقوله القرآن الكريم ذاته: {وما أتاكم الرسول فخذوه، وما اكم عنه فانتهوا} (الحشر ٧)؛ {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً} (الأحزاب ٣٦).

لكن من وجهة نظر تاريخية، كثيراً مانصادف مثل هذه الأحداث، عند غياب مؤسسي الحركات الدينية والفكرية الكبرى، في معظم الأزمنة والعصور (راجع مثلاً: العهد الجديد، متى ٢٦؛ لوقا ٢٢؛ مرقص ١٤؛ يوحنا ١٨).

٤ - في النصوص السابقة نجد بذور الصراع على الحكم مابعد النبي، والتحزبات والصراعات وقد وضحت تماماً. فالنبي من جهة يصر على كتابة وصيته، وعمر، بالمقابل، يصر على الرفض. الأمر الذي أدى إلى انقسام الناس بين مؤيد للنبي ومؤيد لعمر. ففي النص الأول، نقرأ: «فاختلف أهل البيت، فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي، ومنهم من يقول ماقاله عمر». وفي النص الثالث، نقرأ: «فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي التنازع». وفي النص الرابع، تظهر نساء النبي بين الحلف المؤيد لكتابة الوصية، مقابل عمر الرافض لذلك.

٥ - إن موقف عمر ومؤيديه في سرية أسامة بن زيد، ثم من كتابة الوصية، لابد أن يدفعنا إلى التساؤل: ماذا كان هدف عمر من البقاء في المدينة لمتابعة مجريات الأمور عند وفاة النبي رغم إلحاحه على إنفاذ السرية، ولماذا رفض كتابة الوصية؟

الحدث الثالث: سقيفة بني ساعدة

قصة السقيفة:

قال عمر بن الخطاب: «إنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه، أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما[17]، فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى اخواننا الأنصار. فانطلقنا حتى أتيناهم»[18]. وكان الأنصار قد اجتمعوا «في سقيفة بني ساعدة، وتركوا جنازة الرسول يغسله أهله، فقالوا: نولّي هذا الأمر بعد محمد، سعد بن عبادة. وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض، فحمد الله واثنى عليه، وذكر سابقة الأنصار في الدين وفضيلتهم في الإسلام، وإعزازهم للنبي وأصحابه وجهادهم لأعدائه، حتى استقامت العرب، وتوفي الرسول وهو عنهم راض، وقال: استبدوا ـذا الأمر (الحكم) دون الناس. فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدو مارأيت، نولّيك هذا الأمر. ثم أ ـم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلامَ تنازعوننا هذا الأمر بعده؟ فقالت طائفة منهم (الأنصار): فإنا نقول إذاً: منا أمير ومنكم أمير! فقال سعد ابن عبادة: هذا أول الوهن»[19].

وكما أشير سابقاً، «سمع أبو بكر وعمر بذلك، فأسرعا إلى السقيفة مع أبي عبيدة بن الجراح وانحاز معهم أسيد بن حضير[20] وعويم بن ساعدة[21] وعاصم بن عدي[22]»[23].

يقول عمر بن الخطاب: «حين أتيناهم، فإذا رجل مزمل، فقالوا: هذا سعد بن عبادة يوعك. فلما جلسنا قليلاً، تشهد خطيبهم فأثنى على الله، ثم قال: أما بعد! فنحن أنصار الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط... فأردت أن أتكلم، فقال أبو بكر: على رسلك»[24]. «تكلم أبو بكر - بعد أن منع عمر عن الكلام - فحمد الله واثنى عليه، ثم ذكر سابقة المهاجرين في التصديق بالرسول دون جميع العرب، وقال: فهم أول من عبد الله في الأرض وآمن بالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق ـذا الأمر

---

(١٧) الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة: علي بن أبي طالب، العباس بن عبد المطلب، الفضل بن العباس، عتبة بن أبي لهب، سلمان الفارسي، أبو ذر الغفاري، عمار بن ياسر، المقداد، البراء بن عازب، أبي بن كعب، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، خزيمة بن ثابت، فروة بن محمد الأنصاري، خالد بن سعيد بن العاص، سعد بن عبادة، وجماعة من بني هاشم. (انظر: *تاريخ* الطبري ٢٠٨/٣؛ *الكامل في التاريخ* ٣٢٥/٢؛ *تاريخ* اليعقوبي ١٠٣/٢؛ *السيرة الحلبية* ٣٥٦/٣؛ *أسد الغابة* ٢٢٢/٣؛ *مروج الذهب* ٣٠١/٢؛ *شرح النهج* للمعتزلي ١٣١/١ - ١٣٤؛ *العقد الفريد* ٢٥٦/٤).

(١٨) *البخاري* ك الحدود ب رجم الحبلى من الزنا ١٢٠/٤.

(١٩) انظر: *تاريخ* الطبري، ط أوروبا ١٨٣٨/١؛ *ابن الأثير* ١٢٥/٢؛ *تاريخ الخلفاء* لابن قتيبة ٥/١.

(٢٠) أسيد، أحد السابقين للاسلام، وأحد النقباء ليلة العقبة. اختلف في شهوده بدراً. آخى رسول الله (ص) بينه وبين زيد بن حارثة، وكان ممن ثبت يوم أحد، وجرح يومئذ سبع جراحات. قال النبي (ص): نعم الرجل أسيد بن حضير. وكان أبو بكر لا يقدم أحداً من الأنصار على أسيد بن حضير. ولما مات، حمل عمر نعشه بنفسه، وباع ماله ثلاث سنين، فوفى ـا دينه، وقال: لا أترك بني أخي عالة (انظر: *الاصابة* ٨٣/١؛ *الاستيعاب* ٣١/١ - ٣٣).

(٢١) صحابي أنصاري كان مؤاخياً لعمر بن الخطاب (*الاستيعاب* ١٧٠/٣).

(٢٢) من حلفاء الأنصار.

(٢٣) *سيرة* ابن هشام ٣٣٩/٤.

(٢٤) *البخاري*، ك الحدود، ب رجم الحبلى من الزنا.

من بعده، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم. ثم ذكر فضيلة الانصار، وقال: فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بم لتكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء»[٢٥].

عن حديث أبي بكر، قال عمر: «والله ماترك من كلمة في تزويري إلا قال في بديهته مثلها أو أفضل»[٢٦].

«فقام الحباب بن المنذر[٢٧]، وقال: يامعشر الأنصار! املكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وينتقض عليكم أمركم، فإن أبى هؤلاء إلا ماسمعتم، فمنا أمير ومنكم أمير.

فقال عمر: هيهات! لا يجتمع اثنان في قرن! والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، وولي أمورهم منهم. ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته، إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة.

فقام الحباب بن المنذر، وقال: يامعشر الأنصار! املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ماسألتموهم، فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحق ذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من لم يكن يدين به. أنا والله جذيلها المحكك وعذيقها المرجب. أما والله لو شئتم لنعيد ا جذعة.

قال عمر: إذاً يقتلك الله!

قال: بل إياك يقتل!

فقال أبو عبيدة: يامعشر الأنصار! إنكم كنتم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدل وغير.

فقام بشير بن سعد الخزرجي، فقال: يامعشر الأنصار! إنا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين، وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك.. ألا إن محمداً (ص) من قريش، وقومه أحق به وأولى، وأيم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً. فاتقوا الله، ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم!

فقال أبو بكر: هذا عمر، وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا.

فقالا: والله لا نتولى هذا الأمر عليك»[٢٨].

---

(٢٥) راجع الحاشية ١٩.

(٢٦) *البخاري*، المرجع السابق.

(٢٧) أحد زعماء الأنصار (*الاصابة* ٣٠٢/١).

(٢٨) *الطبري* ط دار سويدان ٢٢٠/٣ - ٢٢١.

وفي رواية لعمر، أن أبا بكر، قال: «ماذكرت فيكم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم. فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة، فلم أكره مما قال غيرهما.

فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش!

فكثر اللغط وارتفعت الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف، فقلت: ابسط يدك ياأبا بكر! فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار»(٢٩).

ويروى أن عبد الرحمن بن عوف قام، فقال: «يامعشر الأنصار! إنكم وإن كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي.

وقام المنذر بن الأرقم، فقال: ماندفع فضل ماذكرت، وان فيهم لرجلاً لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد - يعني علي بن أبي طالب.

فقالت الأنصار أو بعض الأنصار: لا نبايع إلا علياً(٣٠)»(٣١).

قال عمر: «فكثر اللغط وارتفعت الصوات حتى تخوفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك لأبايعك»(٣٢).

«فلما ذهبا (عمر وأبو عبيدة) ليبايعاه، سبقهما إليه بشير بن سعد، فبايعه، فناداه الحباب بن المنذر: يابشير بن سعد، عققت عقاق (في رواية ابن أبي الحديد المُعتزلي: عقك عقاق)(٣٣) أنفست على ابن عمك (سعد ابن عبادة) الامارة؟

فقال: لا والله؛ ولكني كرهت أن أنازع قوماً حقاً جعله الله لهم!.

ولما رأت الأوس ماصنع بشير بن سعد (الخزرجي) وما تدعو إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض، وفيم أسيد بن حضير، وكان أحد النقباء: والله لئن ولّيتها الخزرج عليكم مرة، لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر (وفي رواية المعتزلي: لما رأت الأوس أن رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع، قام أسيد بن حضير، وهو رئيس الأوس، فبايع حسداً لسعد ومنافسة له أن يلي الأمر)(٣٤).

---

(٢٩) *البخاري*، المصدر السابق.
(٣٠) في نص *الطبري* (ط أوروبا ١٨١٨/١) *وابن الأثير* (٢٣/٢): «ان الأنصار قالت ذلك بعد أن بايع عمر أبا بكر».
(٣١) انظر: *تاريخ* اليعقوبي، ط دار صادر ١٢٣/٢، *الموفقيات* للزبير بن بكار، ٥٧٩.
(٣٢) *سيرة* ابن هشام ٣٣٦/٤.
(٣٣) *شرح النهج* ٢/٢.
(٣٤) *شرح النهج* ٢/٢.

فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ماكانوا أجمعوا له من أمرهم. فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطؤون سعد بن عبادة (في رواية عمر في البخاري: نزونا على سعد بن عبادة)[٣٥]. فقال أناس من أصحاب سعد: اتقوا سعد لا تطؤوه!

فقال عمر: اقتلوه! قتله الله! ثم قام على رأسه، فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك!

فأخذ قيس بن سعد بلحية عمر، فقال: والله لو حصصت منه شعره مارجعت وفي فيك واضحة!

فقال أبو بكر: مهلاً ياعمر! الرفق هاهنا أبلغ. فأعرض عنه عمر.

وقال سعد: أما والله لو أن بي قوة ما، أقوى على النهوض، لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيراً يحجرك وأصحابك؛ أما والله إذاً لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع؛ احملوني من هذا المكان! فحملوه وأدخلوه في داره»[٣٦].

ويقال ان المبايعين الأوائل أكرهوا الناس على المبايعة، وقد برز من بين أوائل المبايعين: خالد بن الوليد وسالم مولى أبي حذيفة[٣٧].

«وكان عمر يومئذ محتجزاً يهرول بين يدي أبي بكر، ويقول: ألا إن الناس قد بايعوا أبا بكر»[٣٨].

مواقف المعارضة: الثابت والمتحول

١ - المعارضة الأنصارية:

في بداية الأمر، ظهرت المعارضة الأنصارية قوية متماسكة. لكنها سرعان ما ا ارت تحت وطأة الصراعات الخزرجية الداخلية، والخزرجية الأوسية. وكان رأس هذه المعارضة الأمير الخزرجي سعد بن عبادة. فمن هو سعد، وماذا كانت مواقفه من البيعة، وماذا كانت مواقف جماعة الحكم منه؟

جاء في «الاصابة»: سعد بن عبادة، «سيد الخزرج، شهد العقبة، واختلف في شهوده بدراً، فأثبته البخاري، وقال ابن سعد[٣٩]، كان يتهيأ للخروج، فنهس فأقام، وقال النبي (ص): لقد كان حريصاً عليها.

(٣٥) *البخاري*، المرجع السابق.
(٣٦) *تاريخ* الطبري، ط سويدان، ٢٢١/٣ - ٢٢٢.
(٣٧) من أجل الاكراه على البيعة، انظر: *شرح النهج* للمعتزلي ٢١٩/١، ٩/٦، ١١، ١٩، ٤٠، ١٧، ٤٨، ٤٩.
(٣٨) *المصدر السابق* ١٣٣/١.
(٣٩) *طبقات* ١٤٢/٣.

قال ابن سعد: وكان يكتب بالعربية، ويحسن العلوم والرمي، فكان يقال له الكامل، وكان مشهوراً بالجود وهو وأبوه وجده وولده، وكان لهم أطم ينادى عليه كل يوم، وكانت جفنة سعد تدور مع النبي (ص) في بيوت أزواجه.

عن ابن عباس: كان لرسول الله (ص) في المواطن كلها رايتان، مع علي راية المهاجرين، ومع سعد بن عبادة راية الأنصار.

وعن قيس بن سعد: زارنا النبي (ص) في م لنا، فقال: السلام عليكم ورحمة الله... ثم رفع يده، فقال: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة.

ومن حديث جابر، قال: قال رسول الله (ص): جزى الله عنا الأنصار خيراً لاسيما عبد الله بن عمرو بن حرام وسعد بن عبادة.

روى ابن أبي الدنيا عن طريق ابن سيرين، فقال: كان أهل الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد، والرجل بالاثنين، والرجل بالجماعة، فأما سعد بن عبادة فكان ينطلق بالثمانين.

وروى الدارقطني في كتاب الأسخياء، عن طريق هشام بن عروة، عن أبيه، قال: كان منادي سعد ينادي على أطمه: من يريد شحماً ولحماً فليأت سعداً؛ وكان سعد يقول: اللهم هب لي مجداً، لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال، اللهم إنه لا يصلحني إلا القليل ولا أصلح عليه»[٤٠].

كانت راية الأنصار بيده يوم الفتح. وكان النبي قد استخلفه مرة في السنة الثانية عشرة للهجرة خمس عشرة ليلة، مدة غيبته عن المدينة[٤١].

كما رأينا، رفض سعد مبايعة أبي بكر. فتركوه «أياماً ثم بعث إليه أن أقبل فبايع، فقد بايع الناس وبايع قومك، فقال: أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل وأخضب سنان رمحي، وأضربكم بسيفي ماملكته يدي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي فلا أفعل. وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس مابايعتكم حتى أُعرض على ربي وأعلم ماحسابي»[٤٢].

فلما أُتي أبو بكر بذلك، قال عمر: لا تدعه حتى يبايع.

فقال له بشير بن سعد: إنه قد لجّ وأبى، وليس بمبايعكم حتى يقتل، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته، فاتركوه فليس تركه بضاركم، إنما هو برجل واحد.

فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد، واستنصحوه لما بدا لهم منه، فكان سعد لا يصلّي بصلا م، ولا يجتمع معهم، ولا يحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم. فلم يزل كذلك حتى توفي أبو بكر وولي عمر[٤٣].

---

(٤٠) *الاصابة* ٦٥/٣.
(٤١) انظر: *جمهرة* ابن حزم ٦٥؛ *الاستيعاب* ٢٣/٢ - ٣٧.
(٤٢) انظر: *تاريخ* الطبري ٤٥٦/٣؛ *ك العمال* ١٣٤/٣؛ *ابن الأثير* ١٢٦/٢؛ *الامامة والسياسة* ١٠/١؛ *السيرة الحلبية* ٣٩٧/٤.
(٤٣) *الرياض النضرة* ١٦٨/١.

ولما ولي عمر الخلافة، لقيه في بعض طرق المدينة، فقال له: إيه ياسعد؟!

فقال له: إيه ياعمر؟!

فقال له عمر: أنت صاحب المقالة؟

قال سعد: نعم! أنا ذلك! وقد أفضى إليك هذا الأمر! كان والله صاحبك أحب إلينا منك، وقد أصبحت والله كارهاً لجوارك!

فقال عمر: من كره جوار جار تحول عنه!

فقال سعد: ما أنا غير مستنسر بذلك، وأنا متحول إلى جوار من هو خير منك!

فلم يلبث قليلاً حتى خرج إلى الشام في أول خلافة عمر[٤٤].

وفي الشام، التي كانت وقتئذ تحت حكم عمر، وجد سعد مقتولاً. وقد اتفق كثير من كبار المؤرخين الاسلاميين على أن الجن قتلته[٤٥].

لكن «البلاذري» يرفض رواية «الجن» السابقة، فيقول: «إن سعد ابن عبادة لم يبايع أبا بكر وخرج إلى الشام، فبعث عمر رجلاً، وقال: ادعه إلى البيعة واختل له، فإن أبى فاستعن بالله عليه!

فقدم الرجل الشام، فوجد سعداً في حائط بحوارين (إحدى قرى الشام)، فدعاه إلى البيعة، فقال: لا أبايع قرشياً أبداً!

قال: فإني قاتلك!

قال: وإن قاتلتني؟

قال: أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟!

قال: أما من البيعة فإني خارج!

فرماه بسهم، فقتله!»[٤٦].

وفي «تبصرة العوام»، قيل إ م «أرسلوا محمد بن مسلمة الأنصاري فرماه بسهم، وإن خالداً (ابن الوليد) كان في الشام يومذاك، فأعانه على ذلك»[٤٧] .

المعارض الأنصاري الشهير الآخر، كان الحباب بن المنذر وهو «خزرجي»، قال ابن سعد[٤٨]: «شهد بدراً. وقصته في بدر معروفة. فقد قال للنبي: يارسول الله، أهذا م ل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه أم هو الرأي والحرب؟

---

(٤٤) انظر: *السيرة الحلبية* ٣٩٧/٣؛ *تاريخ ابن عساكر* ٩٠/٦؛ *طبقات* ابن سعد ٣/ق١٤٥/٢؛ *ك العمال* ١٣٤/٣.

(٤٥) انظر *العقد الفريد* ٢٥٩/٤ - ٢٦٠؛ *الرياض النضرة*؛ *الاستيعاب*.

(٤٦) *انساب الاشراف* ٥٨٩/١.

(٤٧) *المصدر السابق*، ص ٣٢.

(٤٨) *طبقات* ١٠٩/٣.

فقال: بل هو الرأي والحرب.

فقال الحباب: كلا ليس هذا بمـ ل. فقبل منه النبي (ص)»[٤٩].

وإذا كان سعد بن عبادة قد دفع حياته ثمناً لمعارضته، فإن الحباب ابن المنذر اختار أن يسالم، فاستسلم للضغوط، وبايع[٥٠].

٢ - المعارضة الهاشمية:

كان بنو هاشم منشغلين «وحدهم تقريباً»[٥١] بغسل النبي وتجهيزه حين كان الصراع على أشده حول خلافة أبي بكر بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة. وبعد مبايعة أبي بكر، «أقبلت الجماعة التي بايعته تزفّه إلى مسجد رسول الله (ص)، فصعد على المنبر فبايعه الناس حتى أمسى، وشغلوا عن دفن رسول الله حتى كانت ليلة الثلاثاء»[٥٢].

«سمع العباس وعلي التكبير في المسجد ولم يفرغوا من غسل رسول الله (ص). فقال علي: ماهذا؟

قال العباس: ما رئي مثل هذا قط! أما قلت لك؟»[٥٣].

«وجاء البراء بن عازب فضرب الباب على بني هاشم، وقال: يامعشر بني هاشم! بويع أبو بكر!

فقال بعضهم لبعض: ماكان المسلمون يحدثون حدثاً نغيب عنه ونحن أولى بمحمد!

فقال العباس: فعلوها ورب الكعبة!

وكان عامة المهاجرين وجلّ الأنصار لا يشكّون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله».

«غضب رجال من المهاجرين في بيعة أبي بكر، منهم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، فدخلا بيت فاطمة ومعهما السلاح»[٥٤]: لقد «اجتمعوا على أن يبايعوا علياً»[٥٥].

«بلغ أبا بكر وعمر أن جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي بن أبي طالب في بيت فاطمة بنت رسول الله»[٥٦]، «وفيه طلحة والزبير»[٥٧].

---

(٤٩) *الاصابة* للعسقلاني ط دار الجيل ١٠/٢ - ١١. راجع أيضاً: *تاريخ الاسلام* للذهبي ٦٦/٢؛ *جمهرة* ابن حزم ٣٥٩؛ *أسد الغابة* ٣٦٤/١.

(٥٠) انظر: *تاريخ* الطبري ٢٢٠/٣؛ *الامامة والسياسة* ٥/١ - ٦؛ *شرح النهج* للمعتزلي ٨/٦ - ٩؛ *كامل* ابن الاثير ٣٢٩/٣ - ٣٣٠.

(٥١) *الرياض النضرة* ١٦٤/١؛ *تاريخ* الخميس ١٨٨/١؛ *الموفقيات* ٥٧٨.

(٥٢) انظر: *العقد الفريد* ٢٥٨/٤؛ *شرح النهج* للمعتزلي ١٣٢/١؛ *الموفقيات* ٥٧٧ - ٥٨٠.

(٥٣) *الموفقيات* ٥٨٠.

(٥٤) *تاريخ* الخميس ١٦٩/٢؛ *الرياض النضرة* ٢١٨/١؛ *شرح النهج* للمعتزلي ١٣/١ ٢.

(٥٥) *شرح النهج* للمعتزلي ١٣٤/١؛ *ابن شحنة* امش *الكامل* (١١٣/١١) بلفظ: «ومالوا مع علي بن أبي طالب».

(٥٦) *تاريخ* اليعقوبي ١٢٦/٢.

«فبعث اليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة، وقال له: إن أبوا فقاتلهم»[٥٨]. أما عن علي، فقد قال أبو بكر لعمر: «ائتني به بأعنف العنف»[٥٩].

«انطلق عمر وخالد بن الوليد إلى بيت فاطمة»[٦٠]، «حتى هجموا على الدار»[٦١]، «فخرج عليهم الزبير مصلتاً بالسيف، فعثر، فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه، فأخذوه»[٦٢]. وكان الزبير، يقول: «لا أحد أولى ـذا الأمر من علي بن أبي طالب»[٦٣]. وفي رواية أخرى، سأل عمر الزبير: «ماهذا السيف؟

قال: أعددته لأبايع علياً! وكان في البيت ناس كثير منهم المقداد وجمهور من الهاشميين، فاخترط عمر السيف وضرب به صخرة في البيت فكسره، ثم أخرجوا الزبير إلى خالد ومن معه، وكان معه جمع كثير، أرسلهم أبو بكر ردءاً لعمر وخالد»[٦٤].

ويقول اليعقوبي، ا ـم «هجموا على الدار، وخرج علي ومعه السيف، فلقيه عمر، فصارعه عمر فصرعه، وكسر سيفه»[٦٥].

وقيل أيضاً، ان عمر جاء «بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار، فلقيتهم فاطمة، فقالت: يا ابن الخطاب! أجئت لتحرق دارنا؟!

قال: نعم! أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة»[٦٦].

وفي رواية أخرى أن فاطمة تلقفت عمر «على الباب، فقالت فاطمة: يا ابن الخطاب! أتراك محرقاً علي بابي؟! قال: نعم!»[٦٧].

ويذكر عروة بن الزبير أن «أرهِب بنو هاشم وجمع لهم الحطب لتحريقهم[٦٨] إذا هم أبوا البيعة في ماسلف»[٦٩].

---

(٥٧) *تاريخ* الخميس ١٨٨/١؛ *الرياض النضرة* ١٦٧/١؛ *كـ العمال* ١٢٨/٣؛ *تاريخ* الطبري ٤٤٢/٢ - ٤٤٦؛ عباس العقاد، *عبقرية عمر* ١٧٣.
(٥٨) *تاريخ* أبي الفداء ١٥٦/١؛ *العقد الفريد* ٦٤/٣.
(٥٩) *انساب الاشراف* ٥٨٧/١.
(٦٠) *شرح النهج* للمعتزلي ١٩/٢.
(٦١) *تاريخ* اليعقوبي ١٢٦/٢.
(٦٢) انظر هامش ٥٧.
(٦٣) *الامامة والسياسة* ٥٧/١؛ *العقد الفريد* ٢٧٨/٢.
(٦٤) *شرح النهج* للمعتزلي ١٩/٢.
(٦٥) *تاريخ* اليعقوبي ١٢٦/٢.
(٦٦) *تاريخ* أبي الفداء ١٥٦/١؛ *العقد الفريد* ٦٤/٣.
(٦٧) *تاريخ* الخميس ١٧٨/١؛ *كـ العمال* ١٤٠/٣؛ *الرياض النضرة* ١٦٧/١؛ *انساب الأشراف* ٥٨٦/١؛ *شرح النهج* ١٣٢/١.
(٦٨) من أجل ـديد عمر علياً وفاطمة بالاحراق، انظر: *تاريخ* الطبري ٢٠٢/٣؛ *الامامة والسياسة* ١٢/١؛ *العقد الفريد* ٢٥٩/٤؛ *تاريخ* أبي الفداء ١٥٦/١؛ *تاريخ* ابن شحنة ـامش *الكامل* ١٦٤/٧؛ *اعلام النساء* ١٢٠٧/٣.
(٦٩) *مروج الذهب* ١٠٠/٢، *شرح النهج* ٤٨١/٢.

وأخيراً «دخلوا الدار، فخرجت فاطمة، فقالت: والله لتخرجن أو لأكشفن شعري ولأعجن إلى الله! فخرجوا وخرج من كان في الدار»(٧٠).

في واقع الأمر، كان تهديد عمر علياً بالإحراق وسيلة لإجباره على المبايعة. فقد قال عمر لعلي: «والذي نفسي بيده لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم»(٧١).

لكن علياً لم يرضخ للتهديد. فعاد عمر، ليقول: «قم فبايع! فتلكأ (علي) واحتبس. فأخذ بيده، وقال: قم! فأبى. فحملوه، ودفعوه إلى خالد كما دفعوا الزبير؛ وساقهما عمر ومن معه من الرجال سوقاً عنيفاً، واجتمعت الناس ينظرون، وامتلأت شوارع المدينة بالرجال؛ فلما رأت فاطمة ماصنع عمر صرخت وولولت، واجتمع معها نساء كثيرات من الهاشميات وغيرهن، فخرجت إلى باب حجرتها، ونادت: يا أبا بكر! ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله! والله لا أكلم عمر حتى ألقى الله»(٧٢).

دور العباس: محاولة الحكم كسر تحالف المعارضة:

بدا التحالف الهاشمي وكأنه يشكل عقبة فعلية في وجه خلافة أبي بكر، فما كان من الخليفة إلا أن راح يستفسر عن وسيلة يكسر بها هذا التحالف. هنا، قال له المغيرة بن شعبة: «الرأي أن تلقى العباس بن عبد المطلب فتجعل له في هذا الأمر نصيباً يكون له ولعقبه من بعده فتقطعون به ناحية علي بن أبي طالب وتكون لكما (أبو بكر وعمر) حجة على علي إذا مال معكم»(٧٣).

فانطلق أبو بكر وعمر والمغيرة حتى دخلوا على العباس ليلاً، فقال له أبو بكر: ان الناس «اختاروني عليهم والياً؛ وما أنفك يبلغني عن طاعن بقول الخلاف على عامة المسلمين يتخذكم لجأ؛ ولقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً يكون لك ويكون لمن بعدك من عقبك! على رسلكم يابني هاشم! فان رسول الله منا ومنكم»(٧٤).

مقابل محاولة الرشوة الاسترضائية السابقة، قال عمر بحزم، ضمن إطار لعبة الحمائم والصقور: «إنا لم نأتكم لحاجة إليكم، ولكن كرهاً أن يكون الطعن في ماأجمع عليه المسلمون منكم فيتفاقم الخطب بكم وبهم، فانظروا لأنفسكم»(٧٥).

أجاب العباس: «إن كنتَ برسول الله طلبت، فحقنا أخذت، وإن كنت بالمؤمنين أخذت؛ فنحن منهم. ما أبعد قولك من أن طعنوا عليك من قولك انهم اختاروك ومالوا إليك؛ وما أبعد تسميتك خليفة رسول الله من قولك خلّى على الناس أمورهم ليختاروا فاختاروك. فأما ماقلت انك تجعله لي، فإن كان

---

(٧٠) *تاريخ* اليعقوبي ١٢٦/٢.
(٧١) *العقد الفريد* ٣٣٥/٤؛ *شرح النهج* ٤١٥/٣.
(٧٢) *شرح النهج* ١٩/٢.
(٧٣) انظر: *تاريخ* اليعقوبي ١٤٢/٢ - ١٢٥؛ *الإمامة والسياسة* ١٤/١.
(٧٤) (٧٥) (٧٦) أنظر هامش (٧٣).

حقاً للمؤمنين فليس لك أن تحكم فيه (أو: فان يكن حقاً لك فلا حاجة لنا فيه)، وان كان لنا فلم نرض ببعضه دون بعض، وعلى رسلك! فإن رسول الله من شجرة نحن أغصا ا وأنتم جيرا ا»[٧٦].

فخرجوا من عنده.

دور فاطمة الزهراء:

ماكاد ينتهي هجوم الحكم على بيت فاطمة بنت النبي ومحاولتهم إحراقه، حتى تفجرت أزمات جديدة، ساهمت في تعميق الهوة بين الزهراء والحكم. ولعب أبو بكر الدور الأبرز في خلق تلك الهوة، عن طريق خلق مصاعب أمام أطراف التحالف الهاشمي لدفعهم في النهاية إلى مبايعته.

فعلى سبيل المثال، اختار أبو بكر، بعد وفاة النبي، أن يسقط سهم الرسول وسهم بني هاشم من الخمس[٧٧]. وكان النبي يخص ذاته بسهم من الخمس، ويخص أقاربه من بني هاشم بسهم آخر منه، ولم يعهد بتغيير ذلك حتى توفي[٧٨]. اعتماداً على الآية الكريمة: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى..}[٧٩].

مثال آخر هو فدك. وفدك أرض كانت ملكاً للنبي[٨٠]. «ولما مات رسول الله (ص)، ادعت فاطمة عليها السلام أنه كان ينحلها فدكاً؛ فقال لها أبو بكر: أنتِ أعز الناس علي فقراً، وأحبهم إلي غنى، ولكني لا أعرف صحة قولك، فلا يجوز أن أحكم لك! فشهدت لها أم أيمن ومولى لرسول الله، فطلب منها أبو بكر الشاهد الذي يجوز قبول شهادته في الشرع، فلم يكن»[٨١].

أما المولى الذي يب الرازي عن ذكر اسمه، فهو علي بن أبي طالب[٨٢].

مثال ثالث: مطالبة فاطمة بحصتها من خيبر وإرثها مما أفاء الله على الخليفة في المدينة. فرفض أبو بكر ذلك محتجاً بحديث نبوي يقول إن الأنبياء لا يورثون، فما تركوه صدقة[٨٣]. لكن الزهراء

---

(٧٧) انظر: *تفسير القرطبي* ١٠/٨؛ *فتح القدير* ٢٩٥/٢؛ *تفسير الطبري* ٦/١٠؛ *الدر المنثور* ١٨٧/٣؛ *الكشاف* ١٥١/٢؛ *سنن النسائي* ك الفيء ب ١ ج١٢١/٧؛ *شرح النهج* للمعتزلي ٢٣٠/١٦؛ *مقدمة مرآة العقول* ١٤٤/١.

(٧٨) انظر: *شرح صحيح مسلم* للنووي ٨٢/١٢؛ *الأحكام السلطانية* لأبي يعلي ١٨١ - ١٨٥؛ *الأحكام السلطانية* للماوردي ١٦٨ - ١٧١؛ *مقدمة مرآة العقول* ١١٣/١؛ *أحكام القرآن* للجصاص ٦٠/٣؛ *الأموال* لأبي عبيد ٣٢٥؛ *تفسير النيسابوري* امش *تفسير الطبري* ج١٠؛ *تاريخ الطبري* ١٩/٣؛ *سنن النسائي* ك الفيء ب ١ ج ١٢٠/٧ - ١٢٢؛ *الكشاف* للزمخشري ١٥٨/٢؛ *تفسير القرطبي* ١٠/٨؛ *فتح القدير* للشوكاني ٢٩٥/٢؛ *تفسير الطبري* ٤/١٠ - ٥ و ٧؛ *الدر المنثور* ١٨٥/٣ - ١٨٦؛ *تفسير المنار* ١٥/١٠ و١٦.

(٧٩) الانفال ٤١.

(٨٠) انظر: *سيرة* ابن هشام ٣٥٣/٢؛ *شرح النهج* ٢١٠/١٦، *تاريخ الطبري* ٢٠/٢؛ *الكامل في التاريخ* ٢٢٤/٢؛ *معجم البلدان* ٢٣٨/٤ - ٢٤٠؛ *وفاء الوفاء* ٩٩٧/٣ و٩٩٨؛ *فتوح البلدان* للبلاذري ٤٢، ٤٣؛ *سنن* أبي داود ٤٧/٢؛ *الأموال* ٩؛ *الاكتفاء* ٢٥٩/٢؛ *شواهد الت يل* ٣٣٨/١ و٤٤٣؛ *المغازي* للواقدي ٧٠٦؛ *الأحكام السلطانية* لأبي يعلي ١٨٥؛ *الأحكام السلطانية* للماوردي ١٧٠.

(٨١) *تفسير* الفخر للرازي ٢٨٤/٢٩.

(٨٢) انظر: السمهودي، *وفاء الوفاء* ٩٩٩/٣ ط مصر، تحقيق محمد محيي الدين.

(٨٣) *البخاري* ٣٧/٣؛ *مسلم* ٧٢/٢؛ *مسند* أحمد ٦/١.

احتجت عليه بآية قرآنية تقول عن لسان زكريا في حديثه عن ابنه يحيى: {يرثني ويرث من آل يعقوب}[٨٤].

اجتمعت أمور كثيرة، أثارت سخط الزهراء، فجاءت إلى أبي بكر وعمر، وقالت: «نشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله (ص)، يقول: رضى فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب فاطمة فقد أحبني ومن أرضى فاطمة فقد أرضاني ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني؟

قالوا: نعم! سمعناه من رسول الله!

قالت: فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني، ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه»[٨٥].

يبدو أن توالي النكبات على إبنة النبي سارع في وفا ا، فلم تعش بعد أبيها غير ستة أشهر، قضتها مخاصمة لأبي بكر، فلم تكلمه حتى ماتت، ولما ماتت، دفنها زوجها علي ليلاً وصلّى عليها، ولم يؤذن ا أبا بكر[٨٦].

موافف بني هاشم:

كانت مواقف بني هاشم عموماً تنم عن قناعتهم الراسخة بأن الخلافة لعلي، وأن أبا بكر أخذها منه عنوة. فكانت الزهراء، تقول على سبيل المثال: «ويحهم أنى زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة؟ ألا ذلك الخسران المبين ماالذي نقموا من أبي الحسن؟ استبدلوا والله الذناب بالقوادم والعجز بالكاهل؟ ألا إ م هم المفسدون ولكن لا يعلمون»[٨٧].

أما ابن عباس فكان يرى أن النبي أثناء مرضه الأخير، أراد أن يصرح باسم علي خليفة له من بعده، لكن عمر منعه عن ذلك. ويبدو هذا واضحاً في قول ابن عباس لعمر: «كان (النبي) يربع في أمره وقتاً، ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه (علي) فمنعته من ذلك»[٨٨].

كذلك كان عقبة بن أبي لهب يطالب بالخلافة لابن عمه، علي بن أبي طالب[٨٩].

لهذا لا نستغرب إذا وجدنا الحسن بن علي، يقول لأبي بكر، وهو على منبر النبي: «انزل عن مجلس أبي!». فيرد أبو بكر: «صدقت والله! انه لس أبيك»[٩٠].

---

(٨٤) مريم ٦.
(٨٥) *الامامة والسياسة* ١٤/١.
(٨٦) *البخاري* ١٧٧/٥؛ *الترمذي* ك السير ١٥٧/٤؛ *مسند أحمد* ٦/١ و٩٥٢/٢؛ *النسائي* ١٢٠/٧؛ *شرح النهج* للمعتزلي ٢١٧/١٦
(٨٧) *بلاغات النساء* لابن أبي طيفور ٢٠/١٩؛ *أعلام النساء* لعمر كحالة ١٢١٩/٣؛ *شرح النهج* للمعتزلي ٨٧/٤.
(٨٨) *شرح النهج* للمعتزلي ١٤١/٣؛ انظر أيضاً: *تاريخ بغداد*.
(٨٩) *مختصر أبي الفداء* ٨/٢.
(٩٠) انظر: الصواعق المحرقة لابن حجر ١٧٥؛ *الاتحاف بحب الاشراف*، الشبراوي ط الحلبي ص٧؛ *الرسول الأعظم مع خلفائه* ٣٥؛ *شرح النهج* ١٧/٢.

كان علي بن أبي طالب يؤمن بأحقيته في الخلافة، دون غيره، يستند في ذلك على نصوص نبوية عديدة، تبرز دون لبس، أن النبي اختاره خليفة له ووصياً. من تلك النصوص الشهيرة؛ نص يوم الإنذار في دار أبي طالب، حين دعا النبي عشيرته الأقربين، كما طُلب إليه: {وأنذر عشيرتك الأقربين}»[٩١]. وانتهى بأن أخذ بيد علي، وكان صبياً صغيراً، وقال: «هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا»[٩٢]. ومن وجهة نظر دينية، يحتل هذا النص مكانة خاصة، بسبب سن علي آنذاك وأعمار أولئك الذين يوجه النبي كلامه إليهم.

كذلك تذكر مصادر عديدة، أن النبي، قال لعلي: «لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي»[٩٣].

من هنا، كان رفض علي الواضح لخلافة أبي بكر. فحين جاؤوا إليه، وقالوا له: «بايع! قال: أنا أحق ذا الأمر منكم، لا أبايعكم، وأنتم أولى بالبيعة لي؛ أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من رسول الله، فانصفونا إن كنتم تخافون الله من أنفسكم، واعرفوا لنا الأمر مثل ماعرفت الأنصار لكم، والا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون.

قال عمر: انك لست متروكاً حتى تبايع»[٩٤].

يبدو أن علياً كان يفهم سبب إصرار عمر على المبايعة، فقد قال علي لعمر: «أحلُب حلباً لك شطره، والله ماحرصك على إمارته إلا ليؤثرك غداً»[٩٥]. وفي نص آخر: «أحلُب ياعمر حلباً لك شطره؛ أشدد له اليوم ليرد عليك غداً. لا والله لا أقبل قولك ولا أتابعه!

فقال له أبو بكر (باسلوبه اللين): فان لم تبايعني لم أكرهك.

فقال له أبو عبيدة: ياأبا الحسن! إنك حدث السن وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك وأشد احتمالاً واضطلاعاً به؛ فسلّم له هذا الأمر وارض به؛ فإنك إن تعش ويطل عمرك فأنت لهذا الأمر لخليق وعليه حقيق في فضلك وقرابتك وسابقتك وجهادك.

---

(٩١) الشعراء ٢١٤.

(٩٢) انظر: *تاريخ الطبري* ٣١٩/٢ - ٣٢١؛ *الكامل* لابن الأثير ٦٢/٢ و٦٣؛ *شرح النهج* للمعتزلي ١٢٠/١٣ و٢٤٤؛ *السيرة الحلبية* ٣١١/١؛ *منتخب كـ ل العمال* امش *مسند* أحمد ٤١/٥ و٤٢؛ *شواهد التـ يل* للحسكاني ٣٧١/١؛ *كـ العمال* ٣٩٢/٦؛ *تاريخ* ابن عساكر ٨٥/١؛ *حياة محمد* لمحمد حسنين هيكل ١٠٤ ط عام ١٣٥٤هـ؛ *تفسير* الخازن ٣٧١/٣ و٣٩٠؛ *التفسير المنير* للجاوي ١١٨/٢؛ *تفسير* الطبري ١٢١/١٩.

(٩٣) *تاريخ* ابن عساكر ١٨٣/١؛ *أنساب الأشراف* ١٠٦/٢؛ *مستدرك الصحيحين* ١٣٢/٣؛ *مسند* ابن حنبل ٢٥/٥؛ *الاصابة* للعسقلاني ٥٠٩/٢.

(٩٤) *شرح النهج* للمعتزلي ٢/٢.

(٩٥) *أنساب الأشراف* ٥٨٧/١.

فقال علي: يا معشر المهاجرين! لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم! نحن أهل البيت أحق ذا الأمر منكم. فلا تتبعوا الهوى فتزدادوا عن الحق بعداً.

فقال بشير بن سعد: لو كان هذا الكلام سمعته منك الأنصار ياعلي قبل بيعتهم لأبي بكر مااختلف عليك اثنان، ولكنهم قد بايعوا.

وانصرف علي إلى م له ولم يبايع»(٩٦).

لكن يبدو أن الرياح كانت تسير بعكس مايشتهي علي. وتخبرنا بعض المصادر، مثلاً، أن جماعة اجتمعت «إلى علي بن أبي طالب يدعونه إلى البيعة، فقال لهم: اغدوا علي محلّقين الرؤوس. فلم يغد إلا ثلاثة نفر»(٩٧).

كذلك يخبرنا مرجع آخر، أن علياً كان «يحمل فاطمة على حمار، (ويسير) ا إلى بيوت الأنصار يسألهم النصرة، وتسألهم فاطمة الانتصار له، فكانوا يقولون: يابنت رسول الله! قد مضت بيعتنا لهذا الرجل، ولو كان ابن عمك سبق إلينا أبا بكر ماعدلنا به.

فقال علي: أفكنت أترك رسول الله (ص) ميتاً في بيته لم أجهزه وأخرج إلى الناس أنازعهم في سلطانه؟!

فقالت فاطمة: ماصنع أبو حسن إلا ماكان ينبغي له، ولقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه(٩٨).

لعب أسلوب الترغيب (مثال العباس) والترهيب (مثال سعد بن عبادة)، الذي استخدمته جماعة الحكم، دوره الأبرز في تقاعس الناس عن نصرة علي - أسلوب استمر طويلاً بعد استقرار الحكم لأبي بكر في المدينة، فعلى سبيل المثال، رفض خالد بن سعيد بن العاص مبايعة أبي بكر، وانحاز إلى علي. لكنه خضع بعد ذلك لضغط الظروف، وبايع. «وبعث أبو بكر الجنود إلى الشام وكان أول من استعمل على ربع منها خالد بن سعيد، فأخذ عمر يقول: أتؤمره وقد صنع ماصنع وقال ماقال؟! فلم يزل بأبي بكر حتى عزله، وأمر يزيد بن أبي سفيان»(٩٩).

مع ذلك، فإن حادثين هامين كانا السبب المباشر لرضوخ علي للأمر الواقع:

١ - وفاة فاطمة الزهراء. فقد «كان لعلي من الناس وجه حياة فاطمة، فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوه الناس عن علي. ومكثت فاطمة ستة أشهر بعد رسول الله (ص) ثم توفيت. فلما رأى علي انصراف الناس عنه هرع إلى مصالحة أبي بكر»(١٠٠).

---

(٩٦) *شرح النهج* للمعتزلي ٢/٢ - ٥.
(٩٧) *تاريخ اليعقوبي* ١٢٦/٢؛ *شرح النهج* للمعتزلي ٤/٢.
(٩٨) *الامامة والسياسة* ١٢/١؛ *شرح النهج* للمعتزلي ٥/٦ - ٢٨.
(٩٩) *تاريخ الطبري* ط أوروبا ٢٠٧٩/١؛ *ذيب* ابن عساكر ٥١/٥.
(١٠٠) انظر: *البخاري* ك. المغازي ب غزوة خيبر ٣٨/٣؛ *مسلم* ٧٢/١ و١٥٣/٥؛ *ابن كثير* ٢٨٥/٥ - ٢٨٦؛ *ابن عبد ربه* ٦٤/٣؛ *ابن الأثير* ١٢٦/٢؛ *كفاية الطالب* ٢٢٥ - ٢٢٦؛ *مروج الذهب* ٤١٤/٢؛ *الامامة والسياسة* ١٤/١؛ *تاريخ الطبري* ط صادر

٢ - ما اصطلحوا على تسميته «بارتداد العرب». إذ «حين ارتدت العرب، مشى عثمان إلى علي، فقال: يا ابن عم! انه لا يخرج أحد إلى قتال هذا العدو، وأنت لم تبايع. فلم يزل به حتى مشى إلى أبي بكر فبايعه، فسر المسلمون، وجد الناس في القتال وقطعت البعوث»[١٠١]. ولم يبايع «أحد من بني هاشم حتى بايع علي»[١٠٢].

علي، من ناحيته، برر مبايعته كما يلي: «فما راعني الا انثيال الناس عن فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام، يدعون إلى محق دين محمد (ص)»[١٠٣].

مناقشة نصوص السقيفة:

قال عمر بن الخطاب: «كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها»[١٠٤]. - لماذا؟

لقد لاحظنا أولاً أن أبا بكر وعمر بن الخطاب تثاقلا عن المضي في سرية أسامة بن زيد لشعورهما، على الأرجح، بدنو أجل النبي وخوفهما بالتالي من أن يتوفى النبي ويعين الخليفة في غيا ما.

من ناحية أخرى، أراد النبي، وقد رأى أن خطته بإنفاذ هؤلاء في سرية أسامة بن زيد لن تكتمل، أن يملي على المسلمين وصيته التي كانت ستتضمن حتماً أشياء لن تعجب عمر بن الخطاب - كان أبو بكر غائباً - فاحتج عمر بقوله، إن النبي يهذو.

غاب بنو هاشم عن السقيفة ومجريات الأمور فيها لإنشغالهم بغسل النبي وتجهيزه. لكن الأنصار، الذين لم ينتظروا حتى يدفن النبي ويكتمل حضور الجماعة الإسلامية الأولى، اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للنبي منهم. وحين سمعت مراكز القوى القرشية بذلك، تدافعت إلى السقيفة كي تحبط مسعى الأنصار.

بدا الموقف الأنصاري ضعيفاً منقسماً منذ البداية الأولى. يضاف إلى ذلك الحس القبلي عند بعض الأنصار، الذي كان يقول، إن الأنصار، رغم أ م هم الذين أعزوا النبي وأصحابه وجاهدوا أعداءه حتى استقامت العرب، إلا أن قريش أهله وعشيرته، وهم الأحق بخلافته؛ لذلك اقترح في البداية أن يكون أمير أنصاري وأمير قرشي، فرد سعد بن عبادة: هذا أول الوهن.

٤٤٨/٢؛ *شرح النهج* للمعتزلي ١٢٢/١؛ *الصواعق المحرقة* ١٢/١؛ *تاريخ* الخميس ١٩٣/١؛ *الاستيعاب* ٢٤٤/٢؛ *أنساب الأشراف* ٥٨٦/١؛ *تاريخ* اليعقوبي ١٢٦/٢؛ *تاريخ* أبي الفداء ١٥٦/١؛ *أسد الغابة* ٢٢٢/٣؛ *الفصل* لابن حزم ٩٦ - ٩٧.

(١٠١) *أنساب الأشراف* ٥٨٧/١.

(١٠٢) انظر هامش ١٠٠.

(١٠٣) انظر: *شرح النهج* للمعتزلي.

(١٠٤) *البخاري* ك الحدود ب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت؛ السيرة الحلبية ٣٦٠/٣ و٣٦٣؛ *تاريخ الخلفاء* للسيوطي ٦٣؛ *لسان العرب* ٣٧١/٢؛ *تاج العروس* ٥٦٨/١؛ *الصواعق المحرقة* ٥؛ *الكامل في التاريخ* ٣٢٧/٢؛ *اية* ابن الأثير ٤٦٦/٣؛ *تاريخ* الطبري ٢٠٥/٣؛ *السيرة النبوية* لابن هشام ٢٢٦/٤؛ *شرح النهج* للمعتزلي ١٢٣/١.

مقابل ذلك، بدا الموقف القرشي، في غياب بني هاشم، متراصاً خلف عمر بن الخطاب. وحين حضر القرشيون إلى السقيفة، احتج أبو بكر بأن قريش أولياء النبي وعشيرته وأحق الناس بالخلافة من بعده؛ وحاول استرضاء الأنصار، بالقول: نحن الأمراء وأنتم الوزراء؛ فوقف الحباب بن المنذر، وقد أضعف وضع سعد بن عبادة الصحي موقف الأنصار، ليحتج على القرشيين، بالقول، إن البلاد بلاد الأنصار، وطالب بإجلاء قريش عن المدينة. بعدها، جاء أول تنازل أنصاري والذي جر وراءه تنازلات كثيرة: منا أمير ومنكم أمير. لكن عمر رفض ذلك بحسم، محتجاً أيضاً بالحس القبلي ذاته: نحن أولياء النبي وعشيرته. فجاء رد الحباب العنيف: أجلوهم عن هذه البلاد، فبأسيافكم دان لهذا الدين من لم يكن يدين به.

لكن التنافس الأوسي الخزرجي من جهة، والتنافس الخزرجي الخزرجي من جهة أخرى، قضيا على أي أمل للأنصار في تسلم سدة الحكم. فقد كانت ذكرى حرب البعاث، التي لم يكن قد مضى عليها سنوات كثيرة، بين الأوس والخزرج، ماثلة في البال. لذلك خاف الأوس من سلطة الخزرج؛ وخافوا أكثر من أ م إذا دعموهم للوصول إلى سدة الحكم، أن لا يجعلوا لهم فيه نصيباً، وتكون لهم بذلك فضيلة. فوقف بالتالي زعيم الأوس: أسيد بن حضير، أبرز منافسي سعد بن عبادة وحساده، ليطالب بمبايعة أبي بكر، دون أن ننسى طبعاً العلاقة المميزة التي كانت تربط أسيد بن حضير بأبي بكر وعمر. ومن ناحية أخرى، فقد بايع بشير بن سعد الخزرجي أبا بكر، حتى لا تذهب الخلافة إلى ابن عمه ومنافسه سعد بن عبادة. وعلل ذلك بقوله إنه يكره منافسة قوم «حقاً جعله الله لهم»؛ رغم هذا، كان موقف بشير غير مستقر، يتذبذب بين تأييد أبي بكر والانتصار لعلي.

أخيراً، كان يء قبيلة «أسلم»، التي «ملأت شوارع المدينة»، ومبايعتها أبي بكر، أثره الحاسم في دعم موقف جماعة الحكم ضد الأطراف الأنصارية المعارضة.

الهاشميون:

بدا أن القرشيين - عدا بني هاشم - والأنصار كانوا منشغلين بصراعات الحكم إلى درجة أ م نسوا غسل النبي وتجهيزه، رغم استمرار ذلك من الاثنين حتى عصر الثلاثاء[١٠٥]. بل إن انشغال أبي بكر وعمر بأفراح التنصيب منعهما من حضور مراسم دفن النبي[١٠٦].

لم يعلم بنو هاشم، وبينهم علي، بمجريات الأمور في السقيفة وما بعد، حتى تعالت أصوات الفرح بمبايعة أبي بكر في المسجد: كان بنو هاشم منشغلين بتجهيز النبي للدفن. وبعد استقرار البيعة لأبي بكر، حاولت جماعة الحكم، فرض الأمر على علي وبني هاشم بالقوة، لكنهم فشلوا. وكان لفاطمة الزهراء، ابنة النبي الوحيدة آنذاك، بما تشكل من ثقل معنوي كبير، أبرز الأثر في إفشال مخطط جماعة الحكم. لذلك، كانت محاولا م المتكررة للضغط على الزهراء:

---

(١٠٥) *طبقات* ابن سعد ٢ ق ٧٨/٢ ط ليدن.
(١٠٦) *كـ العمال* ١٦٠/٣.

❋ حرمان بني هاشم من الخمس، الذي كان سيتيح لهم فرصة الاستقلال المادي عن جماعة الحكم، ويساعدهم بالتالي على الاستقلال الفكري العقائدي أيضاً.

❋ رفضهم إعطاء فاطمة حقها من الإرث في فدك؛ وقد فسر علي ابن الفارقي المعتزلي الأمر كما يلي: «لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وأدعت لزوجها الخلافة وزحزحته عن مقامه ولم يمكنه حينئذ الاعتذار بشيء لأنه قد سجل على نفسه بأ ا صادقة فيما تدعي كائناً ماكان، من غير الحاجة إلى بينة وإلى شهود»[١٠٧].

- هذا يقودنا إلى السؤال المشروع التالي: هل يعقل أن يطالب أبو بكر، فاطمة الزهراء، ابنة النبي وخديجة وزوجة علي وأم الحسن والحسين، بتقديم أدلة على صحة أقوالها أياً كانت؟ وإذا كانت فاطمة بحاجة إلى دلائل على صحة أقوالها، فمن هو ذا، في طول التاريخ الإسلامي وعرضه، الذي سنصدق أقواله دون دلائل قاطعة؟

إن التناقضات تحتل صدر الصورة في النصوص المتعلقة بفاطمة الزهراء في كتب التراث. فقد نقلت تلك الكتب عن أبي بكر قوله، فيما يتعلق بالإرث النبوي، ان الأنبياء لا يورثون؛ ونسب هذا القول للنبي ذاته. مع ذلك، فاحتجاج الزهراء بالقرآن الكريم: {يرثني ويرث من آل يعقوب}، يفتح باب التناقض على مصراعيه: فإذا افترضنا أن المقصود بالإرث في الآية الكريمة هو الإرث المادي، فذلك يعني أن لفاطمة الحق الكامل في الإرث النبوي؛ وإذا كان المقصود بذلك الإرث المعنوي، لكان لها أيضاً الحق الكامل في هذا الإرث المعنوي: الخلافة.

كذلك فإن رفض أبي بكر شهادة علي بن أبي طالب في قضية الميراث يتناقض تماماً مع قول النبي عن علي، إن الحق معه، يدور حيثما دار[١٠٨].

أما التناقض الأبرز فيبدو صارخاً في تضارب الأقوال التالية، الذي لا سبيل إلى حله:

❋ نقل عن النبي قوله لابنته الزهراء عنها: «الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك»[١٠٩]؛ «فاطمة بضع مني يؤذيني ماآذاها ويريبني مارا ا»[١١٠]؛ «فاطمة بضع مني يغضبني ماأغضبها. وقال النبهاني: وفي رواية «فمن أغضبها أغضبني»[١١١]؛ «فاطمة بضع مني يقبضني مايقبضها ويبسطني مايبسطها»[١١٢].

(١٠٧) *شرح النهج* للمعتزلي ٢٨٤/١٦.
(١٠٨) انظر: *الترمذي* ٢٩٧/٥؛ *المستدرك* للحاكم ١٢٤/٣؛ *تاريخ* ابن عساكر ١١٧/٣؛ *شرح النهج* ٥٧٢/٢.
(١٠٩) انظر: *الإصابة* ٣٦٦/٤؛ *ك العمال* ١١/١٢ و٦٤٦/١٣؛ *المستدرك* للحاكم ١٥٤/٣؛ *أسد الغابة* ٣٢٢/٥.
(١١٠) انظر: *الباري* ٤٧/٧؛ *مسلم* ١٩٠٢/٤؛ *الترمذي* ٦٩٨/٥؛ *الإصابة* ٣٦٦/٤؛ *ابن ماجة* ٦٤٤/١؛ *ك العمال* ١٠٧/١٢ و١١٢.
(١١١) *البخاري* ٢٦/٥ و٣٦؛ *الجامع الصغير* للمناوي ١٢٢/٢.
(١١٢) *المستدرك* للحاكم النيسابوري ١٥٨/٣؛ *الجامع الصغير* للمناوي ١٢٢/٢؛ *ك العمال* ١٠٨/٢ و١١١.

من ناحية أخرى، جاء في أمهات الكتب الإسلامية أن فاطمة «وجدت على أبي بكر فهجرته فلم تكلمه حتى ماتت»[١١٣]؛ وجاء أيضاً: «غضبت فاطمة بنت رسول الله (ص) فهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرته حتى توفيت»[١١٤]؛ وأيضاً: «غضبت فاطمة على أبي بكر فهجرته، فلم تكلمه حتى ماتت»[١١٥].

مقابل ذلك، تنسب تلك الكتب إلى النبي أقوالاً، مثل: «من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية»[١١٦]؛ «من رأى من إمامه شيئاً فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، مات ميتة جاهلية.. ليس أحد خرج من السلطان شبراً فمات عليه، إلا مات ميتة جاهلية»[١١٧].

يبقى السؤال: من كان الله ورسوله غاضبين عليه؛ ومن الذي مات ميتة جاهلية؟

العباس وعلي:

يكشف الحوار المذكور في نص السقيفة، الذي دار بين جماعة الحكم والعباس، عم علي، عن أكثر من وجه. فالمغيرة بن شعبة، رأى في رشوة العباس بأن يجعل له نصيباً من الخلافة، غايتين: فهم يضعفون موقف علي من جهة، وتكون لهم حجة إذا مال العباس معهم، من جهة أخرى. كذلك فإن حوار أبي بكر وعمر مع العباس يكشف عن توزع أدوار، صقور وحمائم، بين جماعة الحكم، لا سبيل إلى إنكاره. أبو بكر يتحدث إلى العباس، بأسلوب يختلف عن حديثه للأنصار: «إن رسول الله منا ومنكم». لكن عمر يقول بصرامته المعهودة، إ م لم يأتوه لحاجة، أي ليسوا بحاجة لاسترضائه، بل حتى لا يتفاقم الخطب. وبالمنطق ذاته الذي خاطب فيه أبو بكر وعمر الأنصار، رد العباس، فقال إنه إذا كان أبو بكر يطلب برسول الله، فقد أخذ حقهم، وهو لن يرضى برشوته ببعض هذا الحق دون بعض. وكي يقطع عليه الطريق، أردف أنه إذا كان هذا الحق للمؤمنين، فليس لأحد أن يحكم فيه وحده، فبنو هاشم من المؤمنين، وهم لم يكونوا موجودين أثناء المبايعة. وأ ى كلامه بقوله: إن «رسول الله من شجرة نحن أغصا ا وأنتم جيرا ا».

من ناحية أخرى، كان لعلي مبرراته المنطقية دينياً في المطالبة بالخلافة ورفض مبايعة أبي بكر؛ فالنبي، كما أشرنا، تحدث في مناسبات عديدة أن خليفته هو علي ليس إلا. كذلك فقد كشف علي

---

(١١٣) *البخاري* ح ١٧٥٩.
(١١٤) *البخاري* ح ٢٩٢٦، ح ٦٣٤٦؛ ٦: ١٣٩، ١٤١؛ ٣: ١١٢٦؛ ١٢: ٤؛ ٧: ١٢٥٩.
(١١٥) انظر: *الترمذي* ك السير ب ٤ ج ١٥٧/٤؛ *مسلم* ك الجهاد والسير ب ١٦؛ *مسند* أحمد ٦/١ و٣٥٣/٢؛ *شرح النهج* للمعتزلي ١٦/ ٢١٧؛ *النسائي* ك الفيء ب١ ج١٢٠/٧.
(١١٦) *البخاري* ح ٦٦٤٥، ح ٦٦٤٦.
(١١٧) *مسلم* ٢٠/٦ - ٢٢.

تناقض جماعة الحكم مع أنفسهم: فهم حجبوا الخلافة عن الأنصار محتجين عليهم بالقرابة من النبي - فلماذا حجبوها عنه؟

لقد حاول أبو عبيدة، دون جدوى، التركيز على عامل السن لتبرير حجب الخلافة عن علي: «هؤلاء مشيخة قريش قومك». وحاول استمالته، بالقول: «إن تعش ويطل عمرك فأنت لهذا الأمر خليق».

هنا، لابد أن نتذكر نظرة النبي الصائبة وبصيرته النافذة حين أمر، قبيل وفاته بأيام، أسامة بن زيد وهو الشاب الأصغر من علي بسنوات، على كل هؤلاء الشيوخ.

السقيفة في «فقه السيرة»:

كتاب «فقه السيرة النبوية» للدكتور محمد سعيد البوطي واحد من أكثر الكتب الإسلامية انتشاراً. وقد توقف فيه مؤلفه عن حادثة «السقيفة» بالتحليل والمناقشة. ومن المفيد هنا أن نورد بعض ماجاء في هذا الكتاب عن «السقيفة» كأنموذج لتناول معظم الكتاب الإسلاميين للمواضيع الإسلامية الحساسة - المفصلية:

«اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة، بعد وفاة رسول الله (ص)، وتشاوروا فيمن ينبغي أن يخلف رسول الله (ص) في قيادة المسلمين ورعاية أمورهم، وبعد المذاكرة والمداولة واستعراض طائفة من الاقتراحات، اجتمعت كلمتهم «جميعاً» على أن يكون أول خليفة لرسول الله (ص) من بعده، خليفته في الصلاة بالمسلمين أيام مرضه، وصديقه الأكبر، ومؤنسه في الغار، أبو بكر (رض). ولم يكن لعلي (رض) رأي مخالف لهذا الاجماع، وتأخر مبايعته له كان لأمر يتعلق بالخلاف الذي وقع بين أبي بكر وفاطمة (رض)، من أجل مسألة ميراثها من رسول الله (ص)»[١١٨].

«تمت خلافة أبي بكر (رض) عن طريق الشورى، وقد اشترك في الأخذ ا سائر أهل الحل والعقد من الصحابة بمن فيهم سيدنا علي (رض).

إن الخلاف الذي دار في سقيفة بني ساعدة، بين كبار الصحابة، بصدد التشاور في اختيار خليفة لهم، أمر طبيعي يقتضيه طرح القضية على بساط البحث والمشورة. وهو دليل بين قاطع على حماية الشارع للآراء والاقتراحات المختلفة، من أي مصادرة أو تقييد، في كل مالم يرد به نص ثابت صريح..

ومهما قيل عن تأخر مبايعة علي لأبي بكر (رض)، ومهما ورد من خلاف في مدة تأخر هذه المبايعة، فإن شيئاً من ذلك لا يتعارض مع هذه الحقيقة الثابتة ولا يعكرها.

---

(١١٨) *فقه السيرة النبوية*، دار الفكر، دمشق، ط عام ١٩٩١، ص٥١١.

ومن المعروف أن تأخر مبايعة علي، إنما كانت مسايرة، أو مجاملة، لمشاعر فاطمة (رض)، التي كانت مقتنعة، من خلال اجتهادها، بأ ا ترث من أبيها رسول الله، كما ترث كل أنثى من أبيها. ولم يكن هذا التأخر بسبب حفيظة في نفس علي على أبي بكر. وأنى لصاحب هذه الحفيظة أن يقف هذا الموقف المليء بمعاني الغيرة والتعاون والحب؟!»[١١٩].

الحدث الرابع: خلافة عمر بن الخطاب

رأينا في «حدث السقيفة»، كيف قال علي لعمر بن الخطاب، بشأن خلافة أبي بكر: «ماحرصك على إمارته اليوم إلا ليؤثرك غداً»، لكن: هل وقف دور عمر بن الخطاب في خلافة أبي بكر عند هذا الحد، أي، الدفاع عن خلافة أبي بكر حتى يستخلفه أبو بكر بعده، أم تعداه إلى خطوات أبعد؟

من كان الخليفة الفعلي؟

للإجابة على هذا السؤال الهام، سنضرب الأمثلة التالية:

لما ولي أبو بكر جاء المؤلفة قلو م[١٢٠] - وكان النبي يعطي قوماً أسلموا وقلو م ضعيفة، كأبي سفيان وابنه معاوية والأقرع بن حابس، سهماً من الزكاة، فيؤلف قلو م بإجزال العطاء - لاستيفاء سهمهم هذا جرياً على عاد م مع النبي فكتب لهم أبو بكر بذلك، فذهبوا بكتابه إلى عمر ليأخذوا خطه عليه، فمزقه، وقال: لا حاجة لنا بكم فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم، فإن أسلمتم وإلا السيف بيننا وبينكم، فرجعوا إلى أبي بكر، فقالوا له: أنت الخليفة أم هو؟ فقال: بل هو إن شاء الله تعالى. وأمضى مافعله عمر[١٢١].

ومرة جاء عيينة بن حصن والأقرع بن حابس إلى أبي بكر، فقالا له: إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة (وقد رأينا) أن تقطعناها لعل الله ينفع ا بعد اليوم.

فقال أبو بكر لمن حوله: ماتقولون؟

فقالوا: لابأس!

فكتب لهم كتاباً ا، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهم ما فيه، فأخذه منهم، ثم تفل فيه فمحاه، فتذمرا وقالا له مقالة سيئة، ثم ذهبا إلى أبي بكر وهما يتذمران، فقالا: والله ما ندري أأنت الخليفة أم هو؟!

---

(١١٩) *المرجع السابق*، ص ٥١٨ - ٥١٩.

(١٢٠) من أجل المؤلفة قلو م، انظر: *تفسير القرطبي* ١٧٩/٨ - ١٨٠؛ *تفسير المراغي* ١٤٤/١٠؛ *التفسير الكبير* للرازي ١١٠/١٦؛ *فتح القدير* للشوكاني ٢٧٣/٢؛ *تفسير الطبري* ٣١٢/٤؛ *جامع البيان* ١٦٠/٦.

(١٢١) النص السابق من *الجوهرة النيرة* على *مختصر القدوري في الفقه الحنفي* ١٦٤/١؛ انظر أيضاً: *تفسير المنار* ٤٩٦/١٠؛ *الدر المنثور* ٢٥٢/٣.

وجاء عمر حتى وقف على أبي بكر وهو مغضب، فقال: أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين، أهي لك خاصة أم بين المسلمين؟

فقال: بل بين المسلمين!

فقال: ما حملك على أن تخص ا هذين؟

قال: استشرت الذين حولي!

فقال: أوكل المسلمين وسعتهم مشورة ورضى؟!

فقال أبو بكر (رض): فقد كنت قلت لكَ أنك أقوى على هذا الأمر مني، لكنك غلبتني(١٢٢).

وكنا رأينا في «السقيفة» أنه «لما بعث أبو بكر الجنود إلى الشام، وكان أول من استعمل على ربع منها خالد بن سعيد (أحد المعارضين السابقين لخلافته)، فأخذ عمر يقول: أتؤمره وقد صنع بك ماصنع وقال ما قال؟! فلم يزل بأبي بكر حتى عزله، وأمر يزيد بن أبي سفيان(١٢٣)».

إذاً، لقد عرف عمر بن الخطاب، بذكائه الفطري، أن استلامه مقاليد السلطة في تلك المرحلة بالذات، كان سيفتح باب معارك لا قِبَل للجماعة الاسلامية الوليدة لها، بسبب شخصية عمر الحادة العنيفة. فاختار أن يولي أبا بكر الخلافة، لأنه من جهة أقدر بشخصه اللين على امتصاص ضربات المعارضين، ولأن عمر، من جهة ثانية، يستطيع إجبار المعارضين، كطرف محايد ظاهرياً، بشخصه القوي، على المبايعة: فالبيعة ليست له. لكن الأمثلة السابقة وغيرها كثير، تشهد على أن الخليفة الفعلي، كان عمر بن الخطاب. فمن غير عمر كان ملجأ لأبي بكر في المشورة!

لكن ثمة حدثاً تواجه فيه الرجلان: «حروب الردة»!

حروب الردة:

«حروب الردة»، والتسمية غير دقيقة، هي تلك الحروب التي خاضتها قوات من جماعة الحكم ضد الذين رفضوا خلافة أبي بكر وعبروا عن رفضهم بالامتناع عن تأدية الزكاة إلى مركز الخلافة، أو ضد أشخاص ارتدوا عن الدين الاسلامي فعلاً وأفرزوا أنبياءهم الخاصين.

بشأن الجماعة الأولى، قال أبو بكر: «والله لو منعت عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله (ص) لقاتلتهم على منعه»(١٢٤).

---

(١٢٢) انظر: *شرح النهج* للمعتزلي ١٩٨/١٢؛ العسقلاني في ترجمة عيينة بن حصن من *إصابته*.

(١٢٣) *الطبري* ط اوربا ٢٠٧٩/١؛ *تهذيب* ابن عساكر ٥١/٥.

(١٢٤) *مسلم* ك الايمان ب١ ج١ ص٥١.

فاعترض عمر، بقوله: «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله (ص): أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، من قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها، وحسا م على الله»[١٢٥].

وكان النبي قد أبدى عدم رضاه عن أسامة بن زيد حين قتل رجلاً بعدما قال لا إله إلا الله[١٢٦].

أرسل أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جند الحكم. وكانت لخالد بعض التصرفات غير المبررة في تلك الحروب. منها ما أشرنا إليه تفصيلياً في كتابنا «حوارات»، حول قضية مالك بن نويرة، المسلم الذي قتله خالد، مدعياً أنه ارتد، رد أنه أعجب بزوجته الجميلة. وأخذ الزوجة ليلة مقتل زوجها. ومالك بن نويرة هو أحد سادات العرب «أسلم وأسلم بنو يربوع بإسلامه؛ ولاه النبي على صدقات قومه ثقة به واعتماداً عليه»[١٢٧].

قال عمر لخالد، بعدما قتل مالكاً وأخذ زوجته: «قتلت امرؤاً مسلماً ثم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بالحجارة»[١٢٨].

لكن أبا بكر اختار أن يدافع عن خالد، بقوله إن خالداً تأول فأخطأ[١٢٩].

من ناحية أخرى، يقول محمد حسين هيكل، في كتابه «الصديق أبو بكر»: «لقد صهرت اليمامة خالداً وطهرته وإن تزوج في أعقا ا بنتاً كما فعل مع ليلى (زوجة مالك بن نويرة)، ولما تجف دماء المسلمين ولا دماء أتباع مسيلمة. ولقد عنفه أبو بكر على فعلته هذه، بأشد مما عنفه على فعلته مع ليلى»[١٣٠]. فمن تكون هذه الفتاة؟

ا ا ابنة مجاعة بن مرارة.

كان مجاعة قد «خرج في سرية، (أثناء حروب الردة). فمرت عليهم جيوش العرب وهو في ثأر في بني تميم وبني عامر. فلما جيء م إلى خالد عن آخرهم اعتذروا إليه فلم يصدقهم، وأمر بضرب أعناقهم كلهم، سوى مجاعة فانه استبقاه مقيداً عنده، لعلمه بالحرب والمكيدة، وكان سيداً في بني حنيفة، شريفاً مطاعاً»[١٣١].

وحين ذهب خالد لمتابعة حروبه، استبقى «مجاعة مقيداً، وجعله في الخيمة مع امرأته»[١٣٢]. وهذه المرأة كانت «أم تميم ابنة المنهال»[١٣٣]، التي أخذها خالد من مالك بن نويرة. وحين «دخلت بنو حنيفة

---

(١٢٥) *ابن ماجة* ك الفتن ب١ ج١٢٩٥/٢؛ *سنن البيهقي* ١٩/٨ و١٩٦؛ *صحيح مسلم* ك الايمان ب١ ج١ ص٥١.
(١٢٦) *البخاري* ١٨٣/٥؛ *مسلم* ٩٧/١: *ابن حنبل* ٢٠٠/٥.
(١٢٧) *أسد الغابة* ٢٩٥/٤؛ *الاصابة* لابن حجر ٣٣٦/٣.
(١٢٨) انظر: *تاريخ الطبري* ٢٨٠/٣؛ *الاصابة* ٣٣٦/٣؛ *تاريخ اليعقوبي* ١١٠/٢؛ *تاريخ أبي الفداء* ١٥٩/١.
(١٢٩) انظر: *المصادر السابقة*؛ وأيضاً: *ك العمال* ١٣٢/٢؛ *وفيات الأعيان* لابن خلكان ٦٦/٥؛ *فوات الوفيات* ٦٢٧/٢؛ *تاريخ ابن شحنة* امش *الكامل* ١١٤/١١.
(١٣٠) ص ١٦٣.
(١٣١) (١٣٢) (١٣٣) (١٣٤) ابن كثير، *البداية والنهاية* ٣٢٦/٦ - ٣٢٩.

(أعداء خالد) خيمة خالد بن الوليد، وهمّوا بقتل أم تميم، أجارها مجاعة، فقال: نعم الحرة هذه»[١٣٤] «أنا جار لها. فتركوها»[١٣٥].

وحين عاد خالد، كان رده على جميل مجاعة أن قال له: «زوجني ابنتك!

فقال له مجاعة: مهلاً، إنك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك.

قال: أيها الرجل! زوجني! فزوجه. فبلغ ذلك أبا بكر، فكتب له كتاباً يقطر الدم: يا ابن أم خالد، انك لفارغ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد!

فلما نظر خالد في الكتاب جعل يقول: هذا عمل الأعيسر - يعني عمر بن الخطاب[١٣٦].

يبقى السؤال: ماهو السر الكامن خلف موقف أبي بكر المتساهل من خالد حتى أنه رفض رأي عمر بتوقيع العقوبة عليه؟ وكيف يمكن تفسير تناقض اعتبار خالد أنه قد تأول حين قتل رجلاً وتزوج امرأته في الليلة ذا ا ثم نزا على امرأة أخرى، وعدم اعتبار الرافضين تأدية الزكاة متأولين، رغم أن الموقف الثاني أسهل من الأول بكثير؟

«إنه الحكم»: لم يكن أمام أبي بكر خيار، وقد اندلعت الثورات ضد حكمه، سوى غض الطرف عن تصرفات خالد؛ خاصة وأننا لم نلحظ في جيش الحكم، في «حروب الردة»، أي اسم بارز من طليعة الصحابة. كذلك، ربما كان أبو بكر بحاجة إلى خالد بن الوليد، كأحد الصقور، في لعبة «الحمائم - الصقور» التي كانت دائرة آنذاك في المدينة. لذلك، كان عزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش، رغم انتصاراته، أول قرارات عمر بن الخطاب الهامة، بعد استلامه مقاليد الحكم.

نسف مبدأ الشورى:

قبل التوقف عند نصوص خلافة عمر، لابد من الاشارة إلى بعض الاعتراضات التي تحدث عنها بعض النقاد بشأن الخليفة الثاني. فعلى الصعيد الديني، رأى هؤلاء أن عمر بن الخطاب عمل برأيه الخاص في بعض المواقف الهامة، مخالفاً صراحة النص القرآني والسنة النبوية. من ذلك، نذكر:

موقفه يوم وفاة النبي، حين قال ان النبي يهجر[١٣٧]؛ إلغاؤه متعة الحج ومتعة النساء[١٣٨]؛ إلغاؤه سهم المؤلفة قلو م[١٣٩]؛ رأيه في مسألة طلاق الثلاث بفم واحد[١٤٠]؛ قوله عن الحجر الأسود: «انك لحجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ماقبلتك[١٤١]».

---

(١٣٥) *تاريخ* ابن كثير ٣٦٣/٢.

(١٣٦) *تاريخ* الطبري ٣٠٠/٣.

(١٣٧) انظر: الحدث الثاني.

(١٣٨) انظر *سنن* أبي داود ٢١٣/٢ ج ١٧٨٩؛ *تفسير* القرطبي ٣٩٥/٢؛ *صحيح* مسلم ٣٧/٤؛ *البخاري* ٢١٣/١ و١٦٦/٤؛ *مسند* أحمد ٣٠٥/٣؛ *سنن* البيهقي ٣/٥؛ *زاد المعاد* ٢٤٦/١؛ *سنن* ابن ماجة ٢٢٩/٢؛ *شرح الموطأ* للزرقاني ١٧٩/٢؛ *تيسير الوصول* ٢٨٨/١؛ *تفسير* الرازي ١٦٧/٢ و٢٠١/٣ و٢٠٢؛ *شرح النهج* للمعتزلي ٢٥١/١٢ و٢٥٢؛ *البيان والتبيان* ٢٢٣/٢؛ *أحكام القرآن* للجصاص ٣٤٢/١ و٣٤٥؛ *ضوء الشمس* ٩٤/٢؛ *المغنى* لابن قدامة ٥٢٧/٧؛ *المحلى* لابن حزم ١٠٧/٧؛ *شرح معاني الآثار* للحاوي ٣٤٧؛ *وفيات الأعيان* لابن خلكان ٣٥٩/٢.

على الصعيد الحضاري - الانساني، يبرز لعمر موقفان هامان:

أولاً: موقفه من أهل الكتاب من العرب الذين حاربوا إلى جانب الجيش العربي الإسلامي في العراق. فقد عامل هؤلاء، بعد انتهاء الحروب، بقسوة بالغة[١٤٢]، الأمر الذي ماتزال بقايا من آثاره موجودة في مجتمعنا حتى الآن. رغم مخالفة موقف عمر هذا لما يقول به القرآن الكريم وما أوحت به السنة النبوية.

ثانياً: إحراقه مكتبة الاسكندرية. فقد ذكر جمال الدين القفطي في كتابه «*إخبار العلماء بأخبار الحكماء*» أن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر بن الخطاب يسأله في أمر مكتبة الاسكندرية، فأجابه: إذا كانت هذه الكتب تتفق مع ماجاء به كتاب الله فلا تمس، وإذا وجد فيها ما لا يوافق كتاب الله فتحرق، فأمر عمرو بأن توزع الكتب على حمامات الاسكندرية وتستخدم كوقود لها، واستغرق حرقها ستة أشهر، حتى استنفدها جميعاً.. وكان عدد حمامات الاسكندرية آنذاك أربعة آلاف حمام»[١٤٣] . لكن: كيف استطاع ابن العاص التأكد من أن كل هذه الكتب لا توافق «كتاب الله»؟

لقد حاول بعض كتابنا دفع مة إحراق مكتبة الاسكندرية عن عمر، معتمدين في ذلك على رأي يقول، إن الذي أورد هذه القصة هو أبو الفرج بن العبري، وهو غير موثوق كيهودي تحول إلى السريانية الأرثوذكسية (لا يعترف السريان بذلك)؛ لكن الحقيقة أن أول من أورد هذا الخبر، هو الكاتب عبد اللطيف البغدادي، المعروف بابن اللباد، الذي أقام في بلاط صلاح الدين الأيوبي في القاهرة عشرة أعوام، وتوفي عام ١٢٣١م. فقد جاء في كتابه «*الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار*»، عن الاسكندرية، مايلي: «وفيها خزانة الكتب التي حرقها عمرو بن العاص بأمر من عمر بن الخطاب (رض)»[١٤٤] . وذكر بعده الخبر بتفاصيل أكثر ابن القفطي المتوفى عام ١٢٤٨م؛ ثم ابن العبري (توفي عام ١٢٨٦م) في «*مختصر تاريخ الدول*»؛ ثم أبو الفداء (توفي عام ١٣٣١م) في *تاريخه*؛ وأشار إليه المقريزي (توفي عام ١٤٤١م) في «*خططه*»، في حديثه عن عمود السواري.

من ناحية أخرى، فان فهمنا لشخصية عمر بن الخطاب يؤدي بنا حتماً إلى عدم استغراب صدور تصرف كهذا عنه. فقد ذكر الزهري عن عروة أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن النبوية فاستفتى أصحاب رسول الله (ص) فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً،

---

(١٣٩) انظر: *التفسير الكبير* للرازي ١١٠/١٦؛ *تفسير* القرطبي ١٨١/٨؛ *تفسير المنار* ٤٩٦/١٠؛ *الدر المنثور* ٢٥٢/٣؛ *الفقه على المذاهب الأربعة* ٦٢١/١؛ *شرح النهج* للمعتزلي ٣/١٢؛ *تفسير* المراغي ١٤٤/١٠؛ *فتح القدير* للشوكاني ٣٧٣/٢.

(١٤٠) انظر: *صحيح* مسلم ك الطلاق ب طلاق الثلاث، *سنن* أبي داود ٣٤٤/١؛ *أحكام القرآن* للجصاص؛ *الدر المنثور* ٢٧٩/١؛ *تفسير* القرطبي ١٣٠/٣؛ رشيد رضا، *المنار*، ٢١٠/٤.

(١٤١) انظر: *أخبار مكة* للأزرقي ٣٢٣/١ و٣٢٩ و٣٣٠؛ *سيرة عمر* لابن الجوزي ١٠٦؛ *المستدرك* للحاكم ٤٥٧/١؛ *ارشاد الساري* ١٩٥/٣؛ *عمدة القاري* ٦٠٦/٤؛ *شرح النهج* للمعتزلي ١٢٢/٣؛ *تاريخ* ابن عساكر ٤٠/٣؛ *الفتوحات الاسلامية* ٤٨٦/٣.

(١٤٢) موقف عمر من أهل الكتاب قدمه تفصيلياً ابن الجوزي في كتابه «*أحكام أهل الذمة*»، تحقيق صبحي الصالح.

(١٤٣) ص ٣٣٥.

(١٤٤) تحقيق أحمد سبانو، دار قتيبة، ص٥٢.

ثم أصبح يوماً، فقال: اني كنت أريد أن أكتب السنن، واني ذكرت قوماً قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً[١٤٥].

وعن أبي وهب، قال: سمعت مالكاً يحدث أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب هذه الأحاديث أو كتبها، ثم قال: لا كتاب مع كتاب الله[١٤٦].

وعن يحيى بن جعدة، قال: أراد عمر أن يكتب السنة، ثم بدا له أن لا يكتبها، ثم كتب في الأمصار: من عنده شيء فليمحه[١٤٧].

وعن القاسم بن أبي بكر، ان الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب فأنشد الناس أن يأتوه ا، ثم أمر «بتحريقها»[١٤٨].

هذا بالنسبة للحديث النبوي. أما علوم الفرس، فقد جاء عنها: «في أيام عمر جاء رجل من أصحابه، فقال: ياأمير المؤمنين، إنا لما فتحنا المدائن أصبنا كتباً فيها من علوم الفرس وكلام معجب. فدعا (عمر) بالدرة، فجعل يضر ا ا حتى تمزقت، ثم قرأ: {نحن نقص عليك أحسن..}؛ ويقول: ويلك أقصص أحسن من كتاب الله»[١٤٩].

كيف صار عمر خليفة؟

دعا أبو بكر عثمان خالياً (على انفراد)، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ماعهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين! أما بعد..

ثم أُغمي عليه، فكتب عثمان: أما بعد! فإني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً.

ثم أفاق أبو بكر، فقال: اقرأ علي. فقرأ عليه. فكبر أبو بكر، وقال: أراكَ خفت أن يختلف الناس ان أفلتت نفسي من غشيتي!

قال: جزاك الله خيراً عن الاسلام وأهله. وأقرها أبوبكر من هذا الموضوع.

جلس عمر والناس معه، وبيده جريدة، ومعه شديد مولى لأبي بكر، معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر، وعمر يقول: أيها الناس! اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله، انه يقول اني لم آلكم نصحاً[١٥٠].

يبقى السؤال: كيف يقبل عمر «بتعيينه» خليفة من قبل أبي بكر، وهو ماينسف «مبدأ الشورى الاسلامي»؛ في حين كان يؤكد على هذا المبدأ، كما رأينا سابقاً، في كل تصرفات أبي بكر؟

---

(١٤٥) *كـ العمال* ٢٣٩/٥؛ ابن عبد البر، *جامع بيان العلم* ٣٣/١٠.
(١٤٦) *المرجعان السابقان* ح/٤٨٦؛ ٧٧/١.
(١٤٧) *المرجعان* ح ٤٨٦٢؛ ٨٧/١.
(١٤٨) انظر: *طبقات* ابن سعد ١٨٨/٥؛ *تقييد العلم* للبغدادي ص٥٢؛ *أضواء على السنة المحمدية* ٤٧.
(١٤٩) *كـ العمال* ٢٩٢/١٠ ح٢٩٤٧٩؛ *شرح النهج* للمعتزلي. بالنسبة لمنع عمر كتابة العلم والحديث؛ انظر: *تنوير الحوالك* ٤/١؛ *مقدمة* الدرامي ١٢٦؛ *مقدمة مرآة العقول* ٢٩/١؛ *تاريخ الخلفاء*.
(١٥٠) *تاريخ* الطبري ط أوروبا ٢١٣٨/١.

خلافة عمر في كتاب «من فقه السيرة»:

«شاور أبو بكر (رض) قبيل وفاته طائفة من المتقدمين ذوي النظر والمشورة من أصحاب رسول الله (ص)، فاتفقت كلمتهم على أن يعهد بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب.

... مع ذلك فان استخلافه له لم يصبح في حكم المنعقد والمستقر، إلا بعد أن خطب في الصحابة وسألهم أن يسمعوا ويطيعوا لعمر، فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا، وبعد أن أجمع المسلمون بعد وفاته على صحة مافعله أبو بكر وشرعية استخلافه. فكان ذلك دليلاً من الاجماع على انعقاد الإمامة عن طريق العهد والاستخلاف بشروطه الشرعية المعتبرة..

من هنا... إن خلافة عمر إنما قامت على مشورة «ضمنية»، اندرجت في إجماع الصحابة على الرضا عمن اختاره لهم أبو بكر»[١٥١] .

الحدث الخامس: خلافة عثمان بن عفان!

ما إن شعر عمر بن الخطاب بدنو الأجل، بعد طعنه على يد أبي لؤلؤة، حتى قال: «ادعوا لي علياً وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. فلم يكلّم أحداً منهم غير علي وعثمان، فقال: ياعلي، لعل هؤلاء سيعرفون لك قرابتك من النبي (ص)، وصهرك وما أنالك الله من الفقه والعلم، فان وليت هذا الأمر فاتق الله فيه.

ثم دعا عثمان، وقال: ياعثمان، لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك، فإن وليتَ هذا الأمر فاتقِ الله، ولا تحمل آل أبي معيط على رقاب الناس.

ثم قال: ادعوا لي صهيباً.

فدعي، فقال: صل بالناس ثلاثاً وليخلِ هؤلاء النفر في بيت، فإذا اجتمعوا على رجل منهم، فمن خالفهم فاضربوا رأسه»[١٥٢] .

«ان اجتمع رأي ثلاثة وثلاثة، فاتبعوا صنف عبد الرحمن بن عوف واسمعوا وأطيعوا»[١٥٣] . فإن «صفّق عبد الرحمن بإحدى يديه على الأخرى فاتبعوه»[١٥٤] .

وفي رواية أخرى، قال عمر: «بايعوا لمن بايع له عبد الرحمن بن عوف، فمن أبى فاضربوا عنقه»[١٥٥] .

أحس علي أن شيئاً يدبر من ورائه، فذهب إلى عمه العباس، وقال: «والله لقد ذهب الأمر منا.

---

(١٥١) ص ٥١٦، ٥١٧، ٥١٩.

(١٥٢) انظر *أنساب الأشراف* ١٦/٥؛ *منتخب الكـ* ٤٢٩/٤؛ وقريب منه في *طبقات* ابن سعد ج٣ ق١ ص٣٤٧.

(١٥٣) *طبقات* ابن سعد ج٣ ق١ ص٤٣.

(١٥٤) *تاريخ* اليعقوبي ١٦٠/٢؛ *أنساب الأشراف* ١٥/٥.

(١٥٥) *كـ العمال* ١٦٠/٣.

فقال العباس: وكيف ذلك يا ابن أخي؟

فقال: إن سعداً لا يخالف عمه عبد الرحمن وعبد الرحمن نظير عثمان وصهره؛ فأحدهما لا يخالف صاحبه لا محالة؛ وإذا كان طلحة والزبير معي فلن أنتفع بذلك إذا كان عبد الرحمن بن عوف في الثلاثة الآخرين.

وقال ابن الكلبي: عبد الرحمن بن عوف زوج أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط، وأمها أروى بنت كريز، وأروى أم عثمان، فلذلك قال صهره»(١٥٦).

يشرح الإمام محمد عبده الكلام السابق، فيقول: «كان سعد من بني عم عبد الرحمن كلاهما من بني زهرة، وكان في نفسه شيء من علي كرم الله وجهه من قبل أخواله لأن أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، ولعلي في قتل صناديدهم ماهو معروف مشهور. وعبد الرحمن كان صهراً لعثمان؛ لأن زوجته أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط كانت أختاً لعثمان من أمه. وكان طلحة ميالاً لعثمان لصلات بينهما، على ماذكره بعض رواة الاثر، وقد يكفي في ميله إلى عثمان وانحرافه عن علي، لأنه تيمي، وقد كان بين بني هاشم وبني تيم مواجدة لمكان الخلافة في أبي بكر (التيمي)، وبعد موت عمر بن الخطاب (رض)، اجتمعوا وتشاوروا، فاختلفوا، وانضم طلحة في الرأي إلى عثمان، والزبير إلى علي، وسعد إلى عبد الرحمن»(١٥٧).

يبدو أن عمر بن الخطاب كان يخطط لخلافة عثمان سلفاً. إذ يروى أن سعيد بن العاص جاءه مرة في حاجة، فقال له عمر: «سيلي الأمر بعدي من يصل رحمك ويقضي حاجتك. قال (سعيد): فمكثت خلافة عمر بن الخطاب حتى استخلف عثمان وأخذها عن شورى ورضى، فوصلني وأحسن وقضى حاجتي وأشركني في أمانته»(١٥٨).

حكاية الشورى:

مامن شك أن عبد الرحمن بن عوف كان يعرف جيداً موقف علي من خلافة أبي بكر وعمر؛ مع ذلك فقد قال له حين خلا به: «لنا الله عليك إن وليت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر.

(فكان طبيعياً أن يقول علي): أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت.

فخلا (عبد الرحمن) بعثمان، فقال له: لنا الله عليك، إن وليت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر.

---

(١٥٦) انظر: *أنساب الأشراف* ١٩/٥؛ *العقد الفريد* ٧٤/٥.

(١٥٧) محمد عبده، ج *البلاغة للإمام علي*، ط مؤسسة الأعلمي ٣٤/١ - ٣٥.

(١٥٨) *طبقات* ابن سعد ٢٠/٥.

فقال: لكم أن أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر.

ثم خلا بعلي فقال له مثل مقالته الأولى، فأجابه مثل الجواب الأول؛ ثم خلا بعثمان فقال له مثل المقالة الاولى، فأجابه مثل ماكان أجابه؛ ثم خلا بعلي فقال له مثل المقالة الأولى، فقال (علي): إن كتاب الله وسنة نبيه لا يحتاج إلى أجيري (طريقة) أحد؛ أنت مجتهد أن تزوي هذا الأمر عني.

فخلا بعثمان فأعاد عليه القول، فأجابه بذلك الجواب، وصفّق على يده»[١٥٩]. «فبايعه عبد الرحمن وصافحه وبايعه أصحاب الشورى، وكان علي قائماً، فقعد، فقال له عبد الرحمن: بايع وإلا ضربت عنقك!

ولم يكن مع أحد يومئذ سيف، فيقال إن علياً خرج مغضباً فلحقه أصحاب الشورى، فقالوا: بايع وإلا جاهدناك!

فأقبل معهم يمشي حتى بايع عثمان»[١٦٠].

عندها، قال علي لعبد الرحمن: «والله ماولّيت عثمان إلا ليرد الأمر عليك»[١٦١].

اختيار عثمان في «فقه السيرة»:

«اجتمع أهل الشورى الذين عينهم عمر في بيت من البيوت يتشاورون في هذا الأمر.. ثم ض عبد الرحمن بن عوف يستشير الناس فيهما (علي وعثمان)، فاستشار رؤوس الناس وقاد م جميعاً وأشتاتاً، مثنى وفرادى ومجتمعين، سراً وجهراً، وانتهى إلى النساء المخدرات في حجبهن، ثم سأل الولدان في المكاتب، وسأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة، طوال ثلاثة أيام بلياليها. فلم يجد اثنين يختلفان في تقديم عثمان بن عفان، إلا ما ذكر من أن عمار بن ياسر والمقداد أشارا بعلي (رض)، ثم انضما إلى رأي عامة الناس.

فازدحم الناس يبايعون عثمان تحت المنبر، وبايعه علي (رض) أول الناس وقيل آخرهم»[١٦٢].

لكن: هل عمل عثمان فعلاً بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر؟

الهرمزان.. وما بعده:

الهرمزان هو صاحب «تستر»، «ومن جملة الملوك الذين تحت يزدجرد. بعثه أبو موسى الأشعري ومعه اثنا عشر نفساً من العجم. أسلم ومن معه وسمى عمر الهرمزان عرفطة.. قال المسور بن خرمة: رأيت الهرمزان بالروحاء مهلاً بالحج مع عمر»[١٦٣].

---

(١٥٩) *تاريخ اليعقوبي* ١٦٢/١.

(١٦٠) *أنساب الأشراف* ١٩/٥.

(١٦١) *تاريخ الطبري* ٢٩٧/٣؛ *ابن الأثير* ٣٧/٣.

(١٦٢) ص ٥٢٥ - ٥٢٦.

(١٦٣) الذهبي، *تاريخ الإسلام*، حوادث ووفيات ١١ - ٤٠هـ ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

ولما طعن أبو لؤلؤة عمر بن الخطاب، «وثب ابنه عبيد الله فقتل أبا لؤلؤة وابنه وامرأته. واغتر الهرمزان فقتله»[١٦٤] . قال عبد الرحمن بن أبي بكر: «انتهيت إلى الهرمزان وجفنية وأبي لؤلؤة وهم نجي فتبعتهم، وسقط من بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه؛ فقال عبد الرحمن: فانظروا بم قتل عمر.

فنظروا فوجدوه خنجراً على تلك الصفة، فخرج عبيد الله بن عمر ابن الخطاب مشتملاً على السيف حتى أتى الهرمزان، فقال: أصحبني ننظر فرساً لي - وكان بصيراً بالخيل!

فخرج يمشي بين يديه فعلاه عبيد الله بالسيف، فلما وجد حد السيف، قال: لا إله إلا الله! فقتله.

ثم أتى جفنية، وكان نصرانياً، فلما أشره له علاه بالسيف فصلب بين عينيه..

ثم أتى بنت أبي لؤلؤة، جارية صغيرة تدعي الاسلام، فقتلها. وأظلمت الأرض يومئذ على أهلها.

ثم أقبل بالسيف صلتاً في يده، وهو يقول: والله لا أترك في هذه المدينة سبياً إلا قتلته»[١٦٥] .

«وروى بعضهم أن عمر أوصى أن يقاد عبيد الله بالهرمزان، وأن عثمان أراد ذلك، وقد كان قبل أن يلي الأمر أشد من خلق الله على عبيد الله، حتى جر بشعره، وقال: يا عدو الله! قتلت رجلاً مسلماً وصبية وطفلاً، وامرأة لا ذنب لها: قتلني الله إن لم أقتلك!

فلما ولي، رده إلى عمر بن العاص..

أكثر الناس في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيد الله بن عمر، فصعد عثمان المنبر، فخطب الناس، ثم قال: ألا إني ولي دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر.

فقام المقداد بن عمرو، فقال: إن هرمزان مولى لله ولرسوله، وليس لك أن ـب ماكان له ولرسوله[١٦٦] ».

«وروى بعضهم عن عبد الله بن عمر أنه قال: يغفر الله لحفصة، فإ ا شجعت عبيد الله على قتلهم[١٦٧]».

«وبقي عبيد الله بن عمر (حياً حتى) قتل يوم صفّين مع معاوية».[١٦٨] هكذا بدأ عثمان ولايته: فماذا أضاف بعد ذلك؟

من «إضافات» عثمان الكثيرة، نذكر:

---

(١٦٤) *تاريخ* اليعقوبي ١٦٣/٢.

(١٦٥) النص للذهبي، *المرجع السابق* ٢٩٦، وقريب منه في *تاريخ* الطبري ٢٤/٤؛ *طبقات* ابن سعد ٣٥٧/٣.

(١٦٦) النص للذهبي، *المرجع السابق* ٢٩٦، وقريب منه في *تاريخ* الطبري ٢٤/٤؛ *طبقات* ابن سعد ٣٥٧/٣. « كان تعطيل الحد على عبيد الله بن عمر، أول دواعي النقمة على عثمان »؛ راجع: *الكامل*٣: *٧٥* ، *تاريخ* الطبري ٢٣٩:٤.

(١٦٧) انظر: *تاريخ* اليعقوبي ١٦١/٢؛ *طبقات* ابن سعد ٣٥٧/٣؛ *تاريخ* الذهبي، *المرجع السابق* ٢٩٧.

(١٦٨) الذهبي، *المرجع السابق*. راجع: *الكامل* ٧٥:٣؛ *تاريخ* الطبري ٢٣٩:٤

١ - افتتحت أرمينيا في عهده، فأخذ الخمس كله فوهبه لمروان بن الحكم أحد أقاربه[١٦٩] .
٢ - طلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمئة ألف درهم[١٧٠] .
٣ - رد الحكم بن العاص وأعطاه مئة ألف درهم[١٧١] . وكان النبي قد طرده ولعنه ولعن كل من يخرج من صلبه[١٧٢] .
٤ - أقطع عثمان الحارث بن الحكم، أخا مروان، موضعاً بالمدينة يقال له ،روز، وكان النبي قد تصدق به على المسلمين[١٧٣] .
٥ - أقطع مروان بن الحكم «فدكاً»، التي رفض أبو بكر أن يعطيها لفاطمة الزهراء، فماتت غاضبة عليه[١٧٤] .
٦ - أعطى مروان بن الحكم خمس الغزو الثاني لافريقيا[١٧٥] .
٧ - حمى كل المراعي حول المدينة عن مواشي جميع المسلمين، عدا بني أمية[١٧٦] .
٨ - أعطى عبد الله بن أبي سرح، ابن خالته وأخاه من الرضاعة[١٧٧] ، خمس الغزو الأول لافريقيا[١٧٨] .
٩ - أمر لمروان بن الحكم بمئة ألف من بيت المال، وكان قد زوجه ابنته أم أبان، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح ووضعها بين يدي عثمان وبكى. فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي؟

قال: لا ولكن أبكي لأني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله (ص) والله لو أعطيت مروان مئة درهم لكان كثيراً.

فقال عثمان: ألق بالمفاتيح يابن أرقم فإننا سنجد غيرك[١٧٩] .
١٠ - أتاه أبو موسى الأشعري بأموال جليلة من العراق، فقسمها في بني أمية كلها[١٨٠] .
١١ - زوج ابنته عائشة للحارث بن الحكم وأعطاه ثلاثمئة ألف من بيت المال بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه[١٨١] .

---

(١٦٩) *تاريخ الطبري* ٥٠/٥؛ *أنساب الأشراف* ٣٨/٥؛ *تاريخ* أبي الفداء ١٦٨/١؛ *المعارف* لابن قتيبة٨٤.
(١٧٠) *المعارف* ٨٤؛ *العقد الفريد* ٢٦١/٢.
(١٧١) *شيخ المضيرة* ١٦٨.
(١٧٢) *سيرة أعلام النبلاء* ٨٠/٢؛ *أسد الغابة* ٣٤/٢؛ *السيرة الحلبية* ٣١٧/١؛ *الدر المنثور* ١٩١/٤؛ *شيخ المضيرة* ١٦٠.
(١٧٣) *المعارف* ٨٤؛ *العقد الفريد* ٢٨٣/٤؛ *شيخ المضيرة* ١٦٩.
(١٧٤) *المعارف* ١٩٥؛ *سنن* البيهقي ١٣١/٦؛ انظر أيضاً *تاريخ* أبي الفداء.
(١٧٥) *تاريخ الاسلام* للذهبي ٨٩/٢؛ *الكامل في التاريخ* ٤٦/٣؛ *أنساب الأشراف* ٢٥/٥.
(١٧٦) *السيرة الحلبية* ٨٧/٢؛ *أنساب الأشراف* ٣٧/٥.
(١٧٧) *المستدرك* للحاكم ١٠٠/٣.
(١٧٨) *أسد الغابة* ١٧٣/٣؛ *تاريخ* ابن كثير ١٥٢/٧؛ *أنساب الأشراف* ٢٦/٥؛ *تاريخ* الذهبي ٨٩/٢؛ *الكامل في التاريخ* ٤٦/٢.
(١٧٩) *السيرة الحلبية* ٨٧/٢؛ *شرح النهج* للمعتزلي ٦٧/١.
(١٨٠) *شرح النهج* للمعتزلي ٦٧/١.

١٢ - طرد أبا ذر إلى الربذة[١٨٢]؛ وضرب عبد الله بن مسعود[١٨٣].

إضافة إلى أمور كثيرة أخرى يضيق ا ال لذكرها هنا.

لذلك، يقول الإمام محمد عبده، «لما حدث في عهد عثمان ماحدث من قيام الأحداث من أقاربه على ولاية الأمصار ووجد عليه كبار الصحابة، روي أنه قيل لعبد الرحمن (بن عوف): هذا عمل يديك!

فقال: ماكنت أظن هذا به أبداً! ولكن لله علي أن لا أكلمه أبداً.

ثم مات عبد الرحمن وهو مهاجر لعثمان، حتى قيل: إن عثمان دخل عليه في مرضه يعوده، فتحول إلى الحائط لا يكلّمه[١٨٤]».

وقتل ذو النورين - قتل عثمان بن عفان، كما يقول علي بن أبي طالب[١٨٥]، لا ظالماً ولا مظلوماً[١٨٦]. ويبدو أن الحقد عليه كان جارفاً. فقد قال سعيد الأفغاني ا م قتلوه «قتلة تفطّر لها كل قلب، ثم لم يكتفوا حتى عدا أحدهم وهو عمير بن ضابىء عليه ميتاً وهو موضوع على باب، فكسر له ضلعاً من أضلاعه، ثم منعوا دفنه في مقابر المسلمين، وأمر بعضهم بدفنه في مقابر اليهود، وكاد يتم ذلك لولا غضب قريش وخوف المعتدين، ثم دفن ليلاً: خرج به أهله سراعاً ولم يغسل ولم يصل عليه إلا أفراد قلائل. ومع هذا وقف له ناس فرموا الجنازة بالحجارة»[١٨٧].

قاتل عثمان: رواية ابن عساكر

يقول الدكتور البوطي في كتابه الأشهر، «*من فقه السيرة*»، عن قاتل عثمان: «أخرج ابن عساكر عن كنانة مولى صفية وغيره، قالوا: قتل عثمان رجل من أهل مصر، أزرق أشقر»[١٨٨]. وسوف نتوقف مطولاً هنا لمناقشة مسألة قاتل عثمان في «*تاريخ* ابن عساكر»، ليس دف تثبيت التهمة على شخص بعينه، فالموضوع خارج نطاق اهتماماتنا، بل كي نبين بالأدلة القاطعة أسلوب

---

(١٨١) *أنساب الأشراف* ٥٢/٥؛ راجع: *فتوح البلدان١* :٣٧٣-٣٧٥؛ *تاريخ* اليعقوبي ٢: ١٧٢-١٧٣.

(١٨٢) *طبقات* ابن سعد ٢٣٢/٤؛ *مروج الذهب* ٣٣٦/٢؛ *تاريخ* اليعقوبي ١٤٨/٢؛ *عمدة القاري* ٢٩١/٤؛ *فتوح البلدان* ١:٣٧٣-٣٧٥.

(١٨٣) *أنساب الأشراف* ٣٦/٥؛ *تاريخ* اليعقوبي ١٤٧/٢؛ *تاريخ* ابن كثير ١٦٣:٧؛ *المستدرك* ١٣:٣؛ *العقد الفريد* ٢٧٢:٢؛ *تاريخ* الخميس٢:٢٦٨؛ *شرح النهج* ١ : ٢٣٦-٢٣٧؛راجع أيضاً: ترجمة ابن مسعود في كلٍ من: *الاستيعاب*؛ *طبقات* ابن سعد؛ فضائل ابن مسعود في *المستدرك* ٢١٣:٣ وكـ *العمال* ٥٤:٧.

(١٨٤) *ج البلاغة* ٣٥/١.

(١٨٥) *الطبري* ٨/٥.

(١٨٦) كلام علي هذا يتناقض مع قول الدكتور البوطي في «*هذه مشكلا م*» إن عثمان قتل ظلماً. لكن قرب علي من عثمان تاريخياً وجغرافياً وقومياً يجعل كلامه أكثر قبولاً.

(١٨٧) *عائشة والسياسة* ص ٥٢.

(١٨٨) ص ٥٣٨.

تعامل بعض كتابنا الإسلاميين مع النصوص التاريخية، والانتقائية الموجهة المزاجية التي تحكم هذا التعامل:

قدم ابن عساكر[١٨٩] سبعاً وعشرين رواية حول شخصية قاتل عثمان، خمس منها لكنانة الذي ذكره الدكتور البوطي:

١ - قال كنانة إنه رأى رجلاً من أهل مصر أسود، وهو يقول في الدار: أنا قاتل عثمان.

٢ - قال إنه رجل من أهل مصر يقال له حمار.

٣ - قال إنه رأى رجلاً من أهل مصر، يقول: أنا قاتل عثمان.

٤ - قال إنه رأى رجلاً من أهل مصر يطوف حول الدار، ويقول: أنا قاتل نعثل[١٩٠].

٥ - قال ان محمد بن أبي بكر دخل على عثمان لكنه لم يؤذه، بل قتله رجل من أهل البصرة.

روايتان لسيف بن عمر:

٦ - دخل محمد بن أبي بكر عليه، ثم تبعه آخرون، منهم من يجؤه بنعل سيفه، وآخر يلكزه.

٧ - دخل عليه محمد بن أبي بكر، ثم عاد، فثار قتيرة وسودان بن عمران السكونيان والغافقي، فقتلوه.

ثلاث روايات لخليفة:

٨ - أخذ محمد بن أبي بكر بلحيته، وذبحه رجل من بني أسد، اسمه رومان.

٩ - ضربه محمد بن أبي بكر في أوداجه، وبعجه أسود بن حمران بحربة.

١٠ - خنقه رجل يقال له الموت الأسود من بني دوس. واشعره التجوبي بمشقص.

روايتان لابن سعد:

١١ - جاء محمد بن أبي بكر واشار إلى رجل فقام إليه بمشقص.

١٢ - تسور محمد بن أبي بكر من دار عمرو بن حزم ومعه كنانة ابن بشر بن عتاب وسودان بن حمران وعمرو بن الحمق، فطعن محمد جبين عثمان بمشقص في يده، ورفع كنانة مشاقص فوجأ ا في أصل أذن عثمان، ثم علاه بالسيف حتى قتله.

رواية أبي زرعة:

١٣ - قتله سودان بن رومان المرادي.

رواية ابن شهاب الزهري:

---

(١٨٩) *تاريخ* ابن عساكر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، عثمان بن عفان، تحقيق سكينة الشهابي، ص ٤٠٣ وما بعد.

(١٩٠) كان شاتمو عثمان يسمونه نعثلاً، يشبهونه برجل مصري طويل اللحية. وفي اللغة: النعثل هو الشيخ الأحمق. ويقال فيه نعثلة، أي فيه حمق (ابن عساكر ٣٣١).

١٤ - تسور محمد بن أبي بكر وصاحباه من دار رجل من الأنصار حتى دخلوا على عثمان، فقال محمد: إذا أنا ضبطته فادخلا توجآه حتى تقتلاه، فدخل الرجلان فتوجآه حتى قتلاه.

رواية عائشة:

١٥ - دخل محمد بن أبي بكر على عثمان، فأخذ مشقصاً ضربه به في ودجه، فأسرع السيف فيه. ثم دخل التجيبي ومحمد بن أبي حذيفة فضرباه بأسيافهما.

رواية نعيم بن حماد:

١٦ - رجل من أهل مصر، أزرق أشقر.

رواية ابن عائد:

١٧ - دخل محمد بن أبي بكر عليه ثم خرج، فدخل عليه أبو عمرو بن بديل فطعنه بسهم، ثم دخل عليه رومان بن سودان، فضربه بالجرز، فقتله.

رواية خنساء مولاة أسامة بن زيد:

١٨ - دخل محمد بن أبي بكر، فأخذ بلحية عثمان، وأهوى بمشاقص ليجأ ا في حلقه، فقال عثمان: مهلاً يابن أخي، فانصرف محمد، فدخل القوم وخرج محمد راجعاً.

رواية ريطه مولاة أسامة بن زيد:

١٩ - حاول محمد بن أبي بكر قتله، ثم استحيا، فتراجع، ليقتله غيره بالسيف.

رواية الطبراني:

٢٠ - دخل عليه محمد بن أبي بكر، فوجأه في نحره بمشاقص كانت في يده.

رواية ريحانة ختنة عثمان:

٢١ - رأيت محمد بن أبي بكر داخلاً عليه، فدفعني فوقعت مغشياً علي، فرفعت رأسي فإذا عثمان إلى جانبي قتيل.

رواية قيس بن حازم:

٢٢ - دخل محمد بن أبي بكر، فأخذ بلحيته، فجره إلى باب الدار. ثم دخل رجل من كندة من أهل مصر مخترط السيف، فطعنه في بطنه.

رواية وثّاب:

٢٣ - جاء محمد في ثلاثة عشر رجلاً، فأشار إلى أحدهم، فقام إليه بمشقص فوجأ به رأسه. ثم تعاونوا عليه حتى قتلوه.

رواية التاريخ الصغير:

٢٤ - دخل عليه أبو عمرو بن بديل الخزاعي والتنوخي، فطعنه أبو عمرو في ودجه وعلاه الآخر بالسيف فقتله.

٢٥ - رواية تقول: دخل ناس فقتلوه.

٢٦ - رواية تقول: ان قاتله كندي من أهل مصر.

٢٧ - إضافة إلى رواية جانبية، لمحمد بن محمد بن الحسن، تقول إن قاتله رجل من أهل مصر يقال لهم جبلة بن الأيهم أو جبلة بن الأهتم - وهي غير قابلة للتصديق طبعاً.

مناقشة الروايات السابقة:

من الروايات السابقة، تبدو الثلاث الأخيرة غير ذات أهمية لغموضها وتناقضها وبعدها عن تحديد هوية القاتل؛ وكذلك أيضاً رواية نعيم بن حماد.

يرد اسم محمد بن أبي بكر، كمشارك فعلي في عملية القتل أو كمدبر لها، في ست عشرة رواية. وهكذا، إذا ما أهملنا الروايات الضعيفة، فإن نسبة الا ام لمحمد بن أبي بكر هي ٧٠%؛ في حين أن نسبة الا ام هذه، مع تلك الروايات تنخفض إلى ٦٠%.

يرد اسم سودان بن حمران في لائحة الا ام، في أربع روايات، أي مانسبته ١٨%.

يرد اسم عبد الله بن بديل مرتين، وكذلك اسم عمرو بن الحمق - وكلاهما خزاعيان.

لكن الدكتور البوطي يعتمد رواية وحيدة ليس فيها أدنى تحديد لشخص القاتل.

إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المراجع التاريخية الهامة الأخرى[١٩١]، غير ابن عساكر، يمكن أن نصل مع ابن عبد البر إلى النتيجة المنطقية التالية:

كان لمحمد بن أبي بكر اليد الطولى في قتل عثمان وقد «اختلف في من باشر قتله بنفسه، فقيل: محمد بن أبي بكر قتله بمشقص؛ وقيل: حبسه محمد وكان الذي قتله سودان بن حمران؛ وقيل: ان محمداً أخذ بلحيته فهزها.. (ثم) أشار إلى من كان معه فطعنه أحدهم وقتلوه»[١٩٢].

إذاً، لماذا «اختار» الدكتور البوطي رواية بعينها، لراوٍ قدم خمس روايات، منها واحدة تذكر دوراً لمحمد؛ بل اختار الرواية الأكثر غموضاً وبعداً عن تحديد شخص القاتل؛ وأهمل ستاً وعشرين رواية غيرها؛ معظمها يحدد القاتل وأسلوب القتل؟ ولماذا لم يعتمد روايات سيف بن عمر التميمي

---

(١٩١) منها، مثلاً: *تاريخ الطبري* ٤٥/٣؛ *تاريخ اليعقوبي* ١٧٦/٢؛ *سير أعلام النبلاء* ٤٨٥/٣؛ *الاستيعاب* ٤٧٨/٢؛ *تاريخ الخلفاء* للسيوطي ص ص ١٥٦ - ١٦٧.

(١٩٢) النص من *الاستيعاب* بترجمة عثمان ٤٧٨/٢.

الذي اعتمده في حديثه عن «حرب الجمل»؟ وهل حقاً أن بعض المؤرخين الإسلاميين لا يعرفون حقائق التاريخ الإسلامي كاملة ولا يمتلكون الأسلوب التحليلي النقدي في تناول الأحداث التاريخية؟

السلطة: هذا هو الجواب. وسنوضح ذلك بمثال «قاتل عثمان» المناقش آنفاً:

١ - إن اللذين تحوم حولهما شبهات قتل عثمان، ضمن آخرين، هما: محمد بن أبي بكر، ابن الخليفة الأول، وأخو أم المؤمنين عائشة، وربيب علي وابن زوجته. أما الثاني فهو عمرو بن الحمق الخزاعي، وهو صحابي «هاجر إلى النبي بعد الحديبية وصحبه وحفظ عنه أحاديث، وسقى النبي فقال: اللهم أمتعه بشبابه. فمرت عليه ثمانون سنة لا ترى في لحيته شعرة بيضاء. وكان ممن سار إلى عثمان وهو أحد أربعة الذين دخلوا عليه الدار، وصار بعد ذلك من شيعة علي وشهد مشاهده كلها: الجمل وصفين والنهروان»(١٩٣).

٢ - لقد انتقم الأمويون، أقارب عثمان، من محمد بن أبي بكر وعمرو بن الحمق الخزاعي بوحشية يندر مثالها حتى بين الشعوب البدائية. فمحمد بن أبي بكر قتله معاوية بن خديج صبرا، ثم أدخلوه في بطن حمار وأحرقوه(١٩٤). أما عمرو بن الحمق الخزاعي، فقد قتله عامل معاوية بن أبي سفيان على الموصل، وقطع رأسه فبعث به زياد بن أبيه إلى معاوية، وكان أول رأس حمِل في الاسلام من بلد إلى بلد. فأرسل معاوية الرأس إلى زوجة عمرو، آمنة بنت الشريد، وكانت في السجن، حبسها معاوية في سجن دمشق زماناً، ولما ألقي الرأس في حجرها ارتاعت، ثم وضعته في حجرها ووضعت كفها على جبينه ثم لثمت فاه، وقالت: غيبتموه عني طويلاً ثم أهديتموه إلي قتيلاً، فأهلاً به من هدية غير قالية ولا مقلية. وكان قتله سنة خمسين(١٩٥).

إن ماكتبناه سابقاً موجود في أمهات الكتب الإسلامية: فإذا كان غير المختصين يعرفونه، فحري أن يعرفه المختصون؟ لكن معظم هؤلاء لا يقفون عنده كي لا يخلقوا حالة شك عند القارىء: «هل يعقل أن يقتل محمد بن أبي بكر، أخو عائشة وربيب علي، والصحابي عمرو بن الحمق، خليفة النبي وزوج ابنتيه، عثمان؟ وهل يعقل أن يعاقبهما «أمير المؤمنين» معاوية ذه الوحشية؟» والشك سيؤدي حتماً إلى التفكير؛ والتفكير سيطرح أسئلة قد تكون محرجة؛ وقد تؤدي «بالسلطة» القائمة على مفاهيم وشعارات واهية إلى الا يار. وهذا مالا يريده «أصحاب السلطات».

الحل الاسلامي: مثالان مختاران

بعدما استعرضنا نماذج مما اصطلح على تسميته «بالحكم الاسلامي»، وبينا تناقضه الصارخ مع القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لابد أن نقف عند مثالين شهيرين في عصرنا الحالي، يقدمان نفسيهما

---

(١٩٣) *الاستيعاب* ٤٤٠/٢؛ *أسد الغابة* ١٠٠/٤ - ١٠١؛ *الاصابة* ٥٢٦/٢؛ *طبقات* ابن سعد ١٥/٦.

(١٩٤) انظر: حوادث عام ٣٧هـ في الطبري وابن الأثير وابن كثير؛ *الاصابة*، حرف الميم ٣ ق٤٥١/٢؛ *الاستيعاب* ٣٢٨/٣ - ٣٢٩.

(١٩٥) القصة من *أسد الغابة*.

كحكمين إسلاميين مع أ ما أبعد ما يكونان عن ذلك: السودان وأفغانستان - اشتهر الأول بدور مؤسسه في فضيحة نقل يهود الفلاشا إلى فلسطين؛ واشتهر الثاني بإرهابييه الذين دربتهم وكالة المخابرات المركزية الأميركية، بتمويل وهابي، للدفاع عن مصالح الولايات المتحدة في آسيا الوسطى. فماذا حقق هذان النظامان لبلديهما من أمن واستقرار ورفاهية؟

بالنسبة للسودان: تذكر مجلة وهابية أن هذا البلد بعد أربع سنوات من حكم «الأخوان المسلمين»، سقط سعر الجنيه السوداني فيه مقابل الدولار من ١٥ عام ١٩٨٩ إلى ٢٣٠ عام ١٩٩٣؛ وبلغت معدلات التضخم حوالي ٦٠٠%، وارتفعت أسعار بعض السلع إلى ٥٨٢٢%، إلى درجة أن ا اعة دد اليوم أربعة ملايين سوداني[١٩٦].

بالنسبة لأفغانستان: تقول مجلة وهابية أخرى إ ا مجموعة دول في عاصمة واحدة، وإ ا تخطو قرناً إلى الوراء. فأفغانستان الأخوة ا اهدين الأعداء، قلّما ترى حياً من أحياء عاصمتها أو حتى م لاً لم تلحق به القذائف ضرراً؛ إلى درجة أن أحد مجاهديها، قال: «إذا كان الوضع سيتحول إلى دول طوائف فهذا بسيط، لكنني أرى أن الصراع الداخلي في المركز سيستنفد قدرات ا اهدين ليعقبه است اف لهذه القدرات في الأطراف ويسهل هذا الطريق أمام عودة الشيوعيين إلى السلطة كما حصل في طاجكستان»[١٩٧].

---

(١٩٦) / *لة* ٢٩/٧٠٢ - ٣٣.
(١٩٧) *الوسط* ٧٤/ ٤٠ - ٤٣.

نقد الذات أم نقد ... الموضوع!؟

في السنوات الأخيرة، قدم أربعة كتاب من سوريا خمسة أعمال ناقشوا فيها بعض ما كنت أثرته من تساؤلات وإشكاليات. وهؤلاء وفق التسلسل الزمني ل٠صدور أعمالهم، هم: الدكتور محمد سعيد البوطي، الدكتور علي سليمان الأحمد، الأستاذ حامد حسن، الدكتور محمد سعيد البوطي في كتاب آخر✸ . وباستثناء كتاب الأستاذ مرادني، فقد ناقش الباقون ذات المتسائل أكثر مما ناقشوا تساؤلاته: عبر سيل من التهم، والى حد ما - الشتائم. مع ذلك، لم أتردد لحظة في مد جسور التواصل معهم، حتى استطعت [- كما ترأى لي « ظاهرياً » على الأقل، لأن الدكتور البوطي بعد ا اماته المبطّنة✧ في طبعة *هذه مشكلا م* الأولى، واعتذاره لي في الطبعة الثانية، عاد الى الا امات « المبطّنة » في *وهذه مشكلاتنا*!-] أن أغير⌑ بعض قناعا م بذات المتسائل؛ وكانت النتيجة كتابا م التالية:

رغم كلّ ما سبق، أجد نفسي مضطراً لمناقشة بعض ماورد في تلك الكتب من آراء، لوضع النقاط على الحروف، ليس إلاّ.

أولاً: كتاب دعوة الى حوار إسلامي مفتوح:

آ: يتساءل الأستاذ نذير مرادني في كتابه هذا عن رأي السادة العلماء بما طرحته في كتابي حوارات من قول للسيدة عائشة، بأنّ القرآن الكريم تنقصه آية الرجم ورضاع الكبير عشراً التي أكلتها دجاجة بعد وفاة النبي- ويستنكر الأستاذ مرادني ذلك طبعاً[(١)].لكن الحقيقة أنّ دعوى نقص القرآن الكريم لم ترد فقط عن لسان عائشة، فأمهات الكتب الاسلامية تحتوي مثل هذه الأقاويل، التي جاء أغلبها نقلاً عن عمر بن الخطّاب:

✸ قدم البوطي من ثم كتاباً آخر حمل عنوان عائشة أم المؤمنين، لم نرد عليه لأنه لا يستأهل الرد، لكننا بالمقابل قدمنا عملاً تناول الموضوع ذاته حمل عنوان أم المؤ منين تأكل أولادها

✧ في اعتقادي أن أكبر طائفة باطنية في الشرق هذه الأيام هي السنة السوريون؛ فهؤلاء، وهم يواجهون ظروفاً بعينها واجهها غيرهم ممن ينسبون اليهم الباطنية من قبل، اختاروا أسوأ أنواع التركيبة العقلية الباطنية للتعايش مع تلك الظروف! والباطنية غالباً ما تبدأ كظرف سياسي - اجتماعي ثم تتلقّى تكريساً دينياً يكرسها عرفاً أصيلاً!

⌑ للحق أقول، إن الراحل الكبير الدكتور علي سليمان الأحمد، كان واحداً من أكثر من قابلت في الشرق ديمقراطية وحضارية؛ بل كان ثمّة ما أوحى لي في م ل هذا الشخص الكبير أني غادرت الشرق بمصائبه ووجوهه الأبدية وتفاهاته وخوفه من الحقيقة والعقل! الدكتور علي سليمان الأحمد رجل في وطن لا يقدر تلك النوعية من الرجال! والكلام ينطبق حرفياً أيضاً على الأستاذ الصديق الشاعر والمفكّر حامد حسن. رجل بقيمة ومعرفية هذا الانسان، لو كان في أي مكان آخر يحترم نفسه ومفكّريه، لصنعوا له التماثيل وسموا الشواع باسمه! آه يا أستاذ حامد! ما أصعب أن يخلق الانسان في الزمن الغلط والمكان الغلط!

(١) *دعوة الى حوار اسلامي مفتوح*، ص٨٤.

روى ابن عباس أن عمر قال وهو على المنبر: « إنّ الله بعث محمداً (ص) بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما نزل آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها. فلذا رجم رسول الله (ص) ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلّوا بترك فضيلة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله على من زنى إذا أحصن من الرجال... ثم إنا كنا نقرأ فيما نقرأ، من كتاب الله: أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم »(٢).

وذكر السيوطي: أخرج ابن أشتة في المصاحف عن الليث بن سعد؛ قال: «أول من جمع القرآن أبو بكر وكتبه زيد... وإنّ عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها، لأنه كان وحده»(٣).

يذكر اليعقوبي عن عمر، قوله: « والله لقد قرأت في كتاب الله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، نكالاً من الله، والله عليم حكيم. فلا لمكوا عن الرجم. وقد رجم رسول الله ورجمنا، ولولا أن يقول الناس، زاد عمر في كتاب الله، لكتبتها بيدي، فقد قرأ ا في كتاب الله » (٤).

وأخرج الطبراني بسند موثّق عن عمر بن الخطّاب مرفوعاً: « القرآن ألف ألف وسبعة وعشرون ألف حرف »(٥) ، بينما القرآن الذي بين أيدينا لايبلغ ثلث هذا المقدار، وعليه فقد سقط من القرآن أكثر من ثلثيه.

وروى ابن عباس عن عمر، أنه قال: « إن الله عز وجلّ بعث محمداً بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان مما أنزل اليه آية الرجم، فرجم رسول الله (ص) ورجمنا بعده؛ ثم قال: كنا نقرأ: ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم؛ أو: إنّ كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم »(٦) .

وروى نافع أن ابن عمر، قال:

« ليقولن أحدكم قد أخذت القرآن كلّه وما يدريه ما كلّه؟ قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر »(٧).

وروى عروة بن الزبير، أن عائشة قالت:

---

(٢) *صحيح البخاري*، ج ٨ ص٢٦: *صحيح مسلم*، ج ٥ ص١١٦، بلا زيادة « ثم إنا » .
من أجل مسألة رضاع الكبير؛ راجع كتابنا: *أم المؤمنين تأكل أولادها*، فصل عائشة والجنس والمصحف.
من أجل معلومات اضافية، راجع: *صحيح البخاري*، ك الحدود ٦٣٢٨، ك الاعتصام بالكتاب والسنة ٦٧٧٨؛ *صحيح مسلم*، حدود ٣٢٠١؛ *سنن* الترمذي، حدود ١٣٥٢؛ *سنن* أبو داود، حدود ٣٨٣٥؛ *سنن* ابن ماجة، نكاح ١٩٣٤؛ *مسند* أحمد، مسند العشر المبشرين بالجنة ٢٤١، ٢٦٥، ٢٨٥، ٣١٣، ١١٤٧، مسند الأنصار ٢٠٢٦٠، باقي مسند الأنصار ٢٥١١٢؛ *سنن* الدارمي، حدود ٢٢١٩.
(٣) *الاتقان في أحكام القرآن*، ج١ ص١٠١.
(٤) تاريخ اليعقوبي ٢:١٦٠.
(٥) الاتقان، ج١ ص١٢١.
(٦) مسند أحمد، ج١ ص٤٧
(٧) الإتقان ج١ ص٤٠ - ٤١.

« كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي (ص) مئتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن »(٨). - أي: ثلاث وسبعون آية.

وروت حميدة بنت أبي يونس، قالت:

« قرأ علي أبي، وهو ابن ثمانين سنة، في مصحف عائشة: إن الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً، وعلى الذين يصلون الصفوف الأول. قالت: قبل أن يغير عثمان المصاحف »(٩).

وروى أبو حرب ابن أبي الأسود عن أبيه، قال:

« بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل، قد قرأوا القرآن. فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب العرب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطور والشدة ببراءة فأنسيتها، غير أني حفظت منها: لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها، غير أني حفظت منها: يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة »(١٠).

وروى زر، قال: قال حسن بن كعب، يا زر: « كأين تقرأ سورة الأحزاب؟ قلت: ثلاث وسبعين آية! قال: إن كانت لتضاهي سورة البقرة، أو هي أطول من سورة البقرة »(١١).

وروى ابن أبي داود وابن الأنباري عن ابن شهاب، قال: « بلغنا أنه كان نزل قرآن كثيرة، فقتل علماؤه يوم اليمامة، الذين كانوا قد وعوه، ولم يعلم بعدهم ولم يكتب »(١٢).

وروت عمرة عن عائشة، أ ا قالت:

« كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله (ص) وهن فيما يقرأ من القرآن »(١٣).

وروى المسور بن مخرمة، قال:

« قال عمر لعبد الرحمن بن عوف: ألم تجد فيما أنزل الله علينا. أن جاهدوا كما جاهدتم أول مرة. فإنا لا نجدها. قال: أسقطت فيما أسقط من القرآن »(١٤).

---

(٨) الإتقان ج٢ ص٤٠ - ٤١.
(٩) المرجع السابق.
(١٠) صحيح مسلم ج٣ ص١٠.
(١١) منتخب ك العمال امش مسند أحمد ج٢ ص٤٣.
(١٢) المرجع السابق ج٢ ص٥٠.
(١٣) صحيح مسلم ج٤ ص١٦٧.
(١٤) الإتقان ج٢ ص٤٢.

وروى أبو سفيان الكلاعي، أن مسلمة بن مخلد الأنصاري، قال لهم:

« أخبروني بآيتين في القرآن لم يكتبا في المصحف، فلم يخبروه، وعندهم أبو الكنود سعد بن مالك، فقال ابن مسلمة: إنّ الذين آمنوا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ألا ابشروا أنتم المفلحون. والذين آووهم ونصروهم وجادلوا عنهم القوم الذين غضب الله عليهم أولئك لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون »[١٥].

وقد نقل بطرق عديدة عن ثبوت سورتي الخلع والحفد في مصحف ابن عباس وأبي بن كعب:

« اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلّي ونسجد وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكافرين ملحق »[١٦].

وبعد.. فنحن نسأل بدورنا السادة العلماء: ما رأيكم بالشواهد السابقة - وغيرها كثير - والتي يحتويها بعض من أمهات الكتب الإسلامية؟

ب: في حديث الأستاذ مرادني عن « السيدة عائشة والمعارضة »، يورد سيادته آراء كثيرة عن « مواهب » السيدة، كنت أوردت معظمها في « حوارات »، لكنه لم يتطرق قط إلى « الموضوع - الإشكالية »: معارضة النبي وتكفير عثمان وقتال علي؛ مع ذلك، فمن الأفضل تحليل الأسباب النفسية الحقيقية الكامنة خلف «ثورات» السيدة، عوض الحديث عن « مواهبها »:

١ - السيدة عائشة هي الوحيدة بين نساء النبي التي تزوجها بكراً، ولطالما تباهت بذلك؛ وهي الوحيدة التي كانت سنها حين زواجها تسع سنوات، وعمر النبي أربع وخمسون؛ وقد توفي عنها وسنها نحو سبع عشرة سنة[١٧].

٢ - السيدة هي الوحيدة بين زوجات النبي، اللواتي بلغ عددهن تسعاً، غير السراري واللواتي كن يمنحن أنفسهم دون زواج، التي اُتهمت بالإفك مع صفوان بن معطّل السلمي[١٨].

٣ - السيدة هي الوحيدة بين زوجات النبي التي اتهمت ماريا القبطية بالإفك؛ إذ «بعد أن ولدت ابراهيم عليه السلام، وحين وفاته اغتم النبي (ص) غماً كبيراً، فقالت عائشة: لماذا أنت مغتم هكذا؟ إنه في الواقع لم يكن ولدك، وإنما ولد جريح القبطي»[١٩].

---

(١٥) المصدر السابق.
(١٦) الإتقان ج١ ص١٢٢ - ٢١٣.
(١٧) أنظر: الطبري؛ السمط الثمين، ٣٣.
(١٨) أنظر تفسير الآيات ١٢ - ١٦ من سورة النور في معظم التفاسير.
(١٩) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٣٥/١١.

٤ - السيدة هي الوحيدة بين نساء النبي التي نزل فيها القرآن معنفاً بسبب علاقتها بابن عمها طلحة بن عبيد الله التي لم يرض النبي عنها قط[٢٠].

٥ - للسيدة على وجه الخصوص الكثير من الأحاديث ذات الطابع الجنسي، والتي أورد بعضها البخاري في « صحيحه »:

- ✶ كانت إحدانا إذا كانت حائضاً، فأراد رسول الله أن يباشرها، أمرها أن تتزر في فور حيضتها، ثم يباشرها (١: ٦٤).
- ✶ كنت أغتسل أنا والنبي من إناء واحد، وكان يأمرني فأتزر، فيباشرني وأنا حائض. وكان يخرج رأسه إليّ وهو معتكف، فأغسله وأنا حائض (١:٦٤، ٣٤٥).
- ✶ كان رسول الله ليقبل بعض أزواجه وهو صائم، ثم ضحكت (١: ٣٢٩، ٣٣٠).

٦ - كانت السيدة تكن لزوجة النبي الأخرى، سودة بنت زمعة، مودة خاصة؛ وتقول: « ما رأيت امرأة أحب إلي أن أكون في سلاخها (هديها) من سودة بنت زمعة »[٢١]. والسبب هو أن سودة، حين هرمت، أراد النبي أن يطلّقها (- وفي مراجع: طلّقها -)، فقالت له: والذي بعثك بالحق مالي في الرجال حاجة، ولكني أحب أن أبعث مع نسائك يوم القيامة؛ فأعادها إليه. فقالت سودة: فإني جعلت يومي وليلتي لعائشة. فكان النبي يقسم لعائشة يومين: يومها ويوم سودة[٢٢].

جـ: توقف الأستاذ مرادني مطولاً عند قضية الزواج المؤقت أو « زواج المتعة»، إلى درجة أنه وضع على غلاف كتابه عبارة: « حقيقة زواج المتعة » - مستنكراً بشدة طبعاً أن يكون هذا الزواج مباحاً في الشريعة الإسلامية. مع ذلك، فهو يقول عن التسري الذي لا يستطيع أحد القول بتحريمه، بأسلوب إنشائي: « إن التسري كان زواجاً كاملاً دائماً ضمن الضوابط التي وضعها القرآن الكريم الخاصة بالزواج وتعدد الزوجات »[٢٣]. ولما لم يشر الأستاذ مرادني بدقة إلى المراد بتلك « الضوابط »، صار لا بد علينا من « الإشارة » إلى بعض الملاحظات التي تلقي بعض الضوء على المسألة:

١ - إن الهجوم الأخلاقي الطابع (- وهو في حقيقته مذهبي -) على الزواج المؤقت كمصطلح، يحمل تناقضاً ذاتياً صارخاً. لأن الزواج المؤقت موجود في مجتمعاتنا بأسوأ صوره، وإن تحت اسم

---

(٢٠) انظر على سبيل المثال: لباب النقول امش تفسير الجلالين، تفسير الآية ٥٣ من سورة الأحزاب.

(٢١) المسط الثمين، ١٠٣.

(٢٢) انظر على سبيل المثال: العيني، عمدة القاري ١٩٨/٢ - ١٩٩؛ صحيح البخاري ١٩٩٩/٥؛ تفسير ابن كثير ٤٠٦/٢؛ تفسير البغوي ٤٨٦/١؛ إصابة ابن حجر ٣٢٣/١٢؛ جامع البيان للطبري ٣١٠/٥؛ تفسير ابن عطية ٢٤٥/٤؛ تفسير الفخر الرازي ٦٥/١١؛ أسباب الـ ول للسيوطي ٨٤؛ تفسير القرطبي ٤٠٤/٥؛ زاد المسير لابن الجوزي ٢١٦/٢؛ الترمذي ٩٤/٤؛ سنن أبي داود ٣٢٦/٢؛ سنن البيهقي ٢٩٧/٣؛ السمط الثمين للطبري ١٠٣.

(٢٣) ص٢٢.

الزواج الدائم. - وإلاّ فماذا نسمي عمليات زواج بدو النفط، مثلاً، من بعض النساء والتي تتم بمباركة كاملة من رجال دين (- وهؤلاء أيضاً يستنكرون الزواج المؤقت -) يتم إسكا م بالوسائل المتعارف عليها.

٢ - إن الزواج المؤقت « المدروس » هو أحد أشكال الحلول للتأزم الجنسي✧ الحاد الموجود في مجتمعاتنا؛ حيث الصعوبات الاقتصادية تمنع معظم الشبان والفتيات عن الزواج، وتتركهم ضحايا للحاجة الجنسية الملحة التي يصعب تلبيتها خارج إطار الزواج المتعارف عليه - وضحايا بالتالي لكافة أشكال التوتر والتعبير عن هذا التوتر، ومن ذلك مثلاً، التطرف الديني.

٣ - إن التسري الذي اعتبره الأستاذ المرادني « زواجاً كاملاً »، أسوأ، بما لا يقارن، من كل أشكال العلاقات الجنسية، ومن يتابع قصص الجواري والإماء والسراري والغلمان[٢٤] في حياة خلفائنا، « أمراء المؤمنين »، من بني أمية والعباس ومن جاء بعدهم، سيتوقف حتماً عند الملاحظات التالية:

✶ في التسري، المرأة ليست ملك ذا ا، بل ملك « سيدها » الذي يستطيع استعمالها - أو: لا استعمالها - أو بيعها أو إهدائها.

✶ في التسري أيضاً، لا تستطيع المرأة تلبية حاجا ا الجنسية عندما تشاء، لأن ذلك مرتبط حصراً بمالكها. ويمكن فهم حجم هذه المأساة إذا ما عرفنا، مثلاً، أن « أمير المؤمنين » الخليفة المتوكل العباسي، امتلك ١٢٠٠٠ سرية - عدا الغلمان الذين كان أشهرهم « شاهك » الذي قال فيه الخليفة شعراً كثيراً -، فإن عملية حسابية بسيطة ستوصلنا إلى نتيجة تقول، إنه إذا استعمل المتوكل كلاً منهن ليوم واحد فقط، لاحتاج من أجل « إ ائهن » إلى اثنين وثلاثين عاماً وثمانية أشهر وستة أيام من عمره المديد.

لكن أمير المؤمنين المتوكل، الذي هو بدوره ابن لأبيه المعتصم من سرية فارسية، لم يعش للأسف غير أربعين سنة (٨٢١ - ٨٦١م)؛ فقد قتل، رحمه الله، في مجلس الغناء والشراب، في القصر الجعفري بالجوسق. وطبعاً: لا يختلف بقية « أمراء المؤمنين » من بني أمية والعباس ومن جاء بعدهم عن «المتوكل على الله» إلا في الكم عموماً.

✧ ما هم رجال الدين من « التأزم الجنسي » ما دام أي واحد فيهم ما يزال قادراً في أية لحظة، حتى وإن تجاوز المئة عام، على الذهاب إلى إحدى إمارات الأعراب النفطية، وإحضاء ما يلزمه من أخوته المحسنين. وفي سوق النخاسة، يمكن للمال أن يشتري أعذب الأرحام. - وما أكثر الأمثلة على ذلك!

(٢٤) يقول الدكتور صلاح الدين المنجد، في كتابه « الحياة الجنسية عند العرب »: « وكان لاثنين من الخلفاء العباسيين أعظم الأثر في رفع شأن الغلمان والولوع م، هما: الأمين والمعتصم.. وكان مالكو الغلمان يتمتعون م على أ م ملك اليمين.. وكان يحيى بن أكثم [قاض بالبصرة]، يرى أن الغلام إذا كان ملك اليمين حل التمتع به » (ص ص ٥١، ٦٠، ٦١).

✶ مقابل ذلك، في الدعارة، يمكن للعاهرة أن تتخلّى عن مهنتها و«تتوب »، إذا ما أرادت وساعد ا الظروف، لأ ا ليست ملكاً لخليفة أو لأمير نفطي بدوي. بل قد يحدث أحياناً أن تتحول بعض العاهرات من الدعارة إلى التوجيه الأخلاقي والإفتاء الديني، كما يحدث الآن في مصر بتحريض ودعم من كبار رجال الدين، لرفع سوية الهيجان الشعبي الديني إلى أعلى درجا ا.

تعقيب:

يشن كثير من المفكرين الوطنيين الآن، المتدينين وغير المتدينين، هجوماً على الشيخ متولي الشعراوي، باعتباره المسؤول الأول عن نقل بعض عاهرات الفن من التمثيل في « الاستوديوهات » إلى التمثيل في بعض الأماكن ذات الطابع الديني، ويعتبرون ذلك سابقة خطيرة تلطخ بالسواد صفحات تاريخنا الناصع. لكني بعكسهم جميعاً، أرى أن ما فعله الشعراوي(٢٥) جزء من تقليد، إرث، « فولكلور ». فابن عساكر، مثلاً، يذكر في « تاريخه »: « النوار جارية الوليد بن يزيد بن عبد الملك. لا أعلم لمن كانت ولا ممن ابتاعها. إلا أ ا قد أخذت بغير شك عن كبار المغنين الذين كانوا بحضرته: مثل معبد وابن عائشة وحكم، ومن هو فوقهم. وكانت حظية عنده. وهي التي أمرها أن تصلي بالناس - وقد سكر وجاء المؤذن فآذنه بالصلاة - وحلف أن تفعل. فخرجت متلثمة عليها بعض ثيابه، فصلّت بالناس ورجعت »(٢٦).

ليست المشكلة في الوليد، فهذا الخليفة، أمير المؤمنين، مزق القرآن الكريم مرة، وهو يقول:

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

ولا في السيدة نوار، فهي جارية مملوكة لا خيار لها؛ لكن المشكلة هي في حضرات العلماء الأفاضل الذين صلّوا خلف هذه العاهرة السكرى: وكان بينهم حتماً من يفكّر بتكفير آخرين لا يوافقونه على إمارة الوليد لمؤمني عصره.

---

(٢٥) إن إساءة الشعراوي هذه لا تقارن أبداً بإساءاته الأخرى التي أبرزها، دوره في الحض على الفتنة الطائفية في مصر، ودوره في الترويج الإعلامي لشركات توظيف الأموال التي امتلكها محتلون اختاروا الشكل الديني لتمرير عمليا م على الناس البسطاء الذين منذ الخليقة لا يصدقون سوى الشكل، فذهبت نقودهم القليلة وظلّ وجه الشعراوي الصبوح يطاردنا في كل المحطات التلفزيونية العربية المتخلفة.

(٢٦) تراجم النساء، تحقيق سكينة الشهابي، ص٤١١ - ٤١٢؛ ويورد الأصبهاني قصة مشا ة، فيقول: « وذكرت جارية أنه واقعها ذات يوم وهو سكران، فلما تنحى عنها آذنه المؤذن بالصلاة، فحلف ألا يصلي بالناس غيرها، فخرجت متلثمة فصلت بالناس » (الأغاني، دار الكتب المصرية، ٧/٤٧).

ثانياً: وجهاً لوجه أمام التاريخ:

« الشعراء يتبعهم الغاوون » (قرآن كريم ٢٦: ٢٢٤).

الغريب، ونحن في عام حقوق الإنسان[٢٧]، ١٩٩٣، أن يسمح لبعضهم بتوجيه الا امات المتخيلة والأحكام المتسرعة في كل الاتجاهات، ولا يسمح للمتهمين والمحكوم عليهم حتى بالدفاع « الموضوعي » عن أنفسهم.

لن أتحدث هنا عن الا امات السياسية التي تمتلئ ا صفحات هذا الكتاب، فهي موضوعة أصلاً لدغدغة عقول العامة؛ ولأن الأستاذ الشاعر حامد حسن، صاحب هذا الكتاب، لم يقدم دليلاً مادياً واحداً على ا اماته التخيلية تلك؛ بل في اعتقادي أنه هو ذاته، تأكد الآن من أن ما كتبه لم يخرج قط عن إطار الخيال الشعري الجميل، لكني أريد التوقف عند مسألتين وردتا في هذا الكتاب الجميل لغة ووصفاً فعلاً، دف التصحيح الموضوعي ليس إلا:

١ - يقول الأستاذ حامد حسن: « أديب من لبنان يدافع عن كاتب صهيوني عام ١٩٨٥، والصهيونية بواسطة أدا ا وابنتها إسرائيل تحرق لبنان سماء وأرضاً وبحراً»[٢٨]. - والكاتب الصهيوني الذي أشار إليه الأستاذ الشاعر هو فرانتس كافكا، الذي قدمت عنه عملاً بعنوان « التحول ».

آ: رغم اعتباري لبنان جزءاً لا يتجزأ من سوريا، فانتمائي الأسروي هو لسوريا.

ب: « التحول » منشور في دمشق، عام ١٩٨٩، بعدما أخذ مرتين موافقة «اتحاد الكتاب العرب»، الذي ينتمي إليه الأستاذ الشاعر ذاته.

د: كنت أتمنى لو كلّف الأستاذ الشاعر نفسه عناء الاطلاع على الكتاب ليكتشف بذاته أن الهدف منه كان «إخراج كافكا من العباءة الصهيونية» عن طريق تحليل الرموز المعادية لليهودية في الأدب الكافكائي. مع ذلك سأقدم للأستاذ الشاعر ما ذكرته «الموسوعة اليهودية - النسخة الإنكليزية» حرفياً عن كافكا وميوله الصهيونية، وهي الموسوعة التي حصرت جهودها في « صهينة » أهم الأدباء والمفكرين، لكنها فشلت مع كافكا:

« في البداية كانت لكافكا معرفة غامضة بإرثه اليهودي، لكنه تعلّم شيئاً عن الصهيونية من ماكس برود وهوغو برغمان.

سمع عن الحياة اليهودية في أوروبا الشرقية من ايزاك لووي، وهو ممثل في الفرقة المسرحية البيدشية، أقام معه علاقة صداقة. اهتم بالحسيدية، عبر الكاتب غيورغ لانغر. درس العبرية،

---

(٢٧) « ٣٤ اتفاقية لحقوق الإنسان موقعة بين الدول العربية بعضها، وبعض داخل جامعة الدول العربية باستثناء السعودية، التي ترفض التوقيع على مثل هذه الاتفاقيات » (عن مصدر مسؤول بالمنظمة المصرية) (انظر: روز اليوسف ٣٤٠٧/٣٧).

(٢٨) وجهاً لوجه أمام التاريخ، ص٣٠.

شهد محاضرات عن اليهودية في برلين، وحين تعرف على دورا دايمانت ناقش معها فكرة الاستقرار في فلسطين. إن هذا التطور نحو فهم وتثمين أكثر عمقاً للحياة اليهودية يتماثل مع بحث كافكا من أمثولة له في الأصالة وتوقه إلى حياة نقية »(٢٩).

٢ - من الغريب فعلاً أن يقول الأستاذ الشاعر عن الدكتور البوطي، إنه في « هذه مشكلا م »، « تنازل عن التعامل بالمثل وهو حقّه الشرعي واستعاض بالصبر والصفح والتقوى والإيمان بنصر الله [!؟] .

إن من يقرأ كتاب الدكتور البوطي « هذه مشكلا م » يدرك كم كان حليماً وحكيماً، وكاظماً للغيظ »(٣٠). فماذا كان يتوقع الأستاذ الشاعر إذن؟

هل كان يتوقع، مثلاً، فتوى تكفيرية، على نسق فتاوي الطنطاوي وابن جبرين والقرني، تحلّ الدم والعرض، ثم يتطوع أحد الأخوة لتنفيذها؟ وإذا كان الدكتور البوطي ذاته اعتبر أنه تسرع في أحكامه، فكيف يعتبره الأستاذ الشاعر « حليماً وحكيماً وكاظماً للغيظ؟ ».

ثالثاً: هذه مشكلا م و... هذه مشكلاتنا

« إن بعض الظن إثم » (قرآن كريم ٤٩: ١٢).

لا بد أن كثيراً من القراء سيستغربون فعلاً إصراري على موقفي من سماحة العلامـة الـدكتور البوطي، باعتباره واحداً من أبرز أعلام المسلمين في هذا العصر كمفكر، وواحداً من أصدق النـاس وأطيبهم كإنسان، فما قلته في « حوارات » لا أتراجع عنه، فتبديلي لرأيي بين لحظة وأخرى سيوحي بأني أستخف بعقول الناس، وهذا سيدفعهم بدورهم للاستخفاف بعقلي. مع ذلك، أجـدني ملزمـاً بالتعليق على بعض ما ورد في « هذه مشكلا م » و « هذه مشكلاتنا » من آراء:

إن « هذه مشكلا م »، كعنوان، يعني برأي المؤلف، أن الإشكاليات التي وردت في أسئلتي، هي مشكلات المتسائل وليس الذي تطرح عليه الأسئلة! وقد أضاف سماحة الدكتور البوطي في « وهذه مشكلا م »: « مشكلات وهمية، جسد ا أخيلة أولئك الذين ابتدعوها ثم تخيلوها ثم تطارحوها فيما بيننا عن قصد..

إ ا فعلاً مشكلات وهمية مفتعلة، ومن ثم فهي مشكلات أولئك الذين طاب لهم أن يفتعلوها فيتوهموها، بل يوهموا الناس وجودها!.. إ ا مشكلا م هم، وليست مشكلاتنا نحن »(٣١).

★ فهل نحن حقاً من يدعو إلى البعد عن روح العصر ومحاربة الصيرورة واعتقال الزمن في لحظة معينة ومحاربة كل أشكال الحضارة، تحت عنوان «رفض الغرب الكافر»؟.

---

(٢٩) E. Judaeca ١٠/٦٧٣.

(٣٠) وجهاً لوجه أمام التاريخ، ص٣٧.

(٣١) وهذه مشكلاتنا، ص ص ٧، ٨.

* وهل نحن الذين نطالب بتعليب المرأة وسجنها ونروج لأحاديث من أمثال: « ناقصات عقل ودين »، « للمرأة عشر عورات فإذا تزوجت ستر الزواج عورة وإذا ماتت ستر القبر الباقي »؟.
* وهل نحن الذين ندافع عن تعدد الزوجات، لحماية حقبة «المراهقة الثانية»، عند بعض الكهول والعجائز؟.
* وهل نحن الذين نرفض تحريم الرق والتسري؟.
* وهل حقاً أن معارضة عائشة وهم، وهي التي قالت للنبي: « أنت الذي تزعم أنك نبي »؛ وقالت عن عثمان: « اقتلوا نعثلاً فقد كفر »؛ وحاربت علياً في « الجمل »؟.
* وهل أن « حرب الجمل » وما خلّفته من شق في الصف العربي الإسلامي مشكلة وهمية؛ أم أ ا مشكلة حقيقية لأولئك الذين ما يزالون يقولون عن الذين يخالفو م الرأي من المسلمين في حرب الجمل ونتائجها، إ م فاسقون؟.

إن مشكلة سماحة الدكتور البوطي الأولى، هي اعتباره « من ليس معي [بدقة أكثر: ما ليس لي] فهو ضدي »؛ وإلا فكيف نفسر قوله عن مفكر سوري قدم أفكاراً لم تعجب سماحته بأنه « ذو خلفية يهودية »(٣٢)؛ وقوله عن سادة الفكر والفن في سوريا بأ م « صعاليك الأدب » رد أ م اتخذوا موقفاً لم يعجبه؛ وغمزه الدائم من يهودية المسيحيين، عبر الإشارة المتكررة إلى يهودية بولس؟.

إن مشكلاتنا الحقيقية هي: الجهل والتخلف والتعصب. فمن ذا الذي يروج للجهل والتخلف والتعصب؟.

نحن لا نرى حلاً لأزماتنا الحالية سوى العلم وضرب كل أشكال الطائفية عبر حل وطني قومي. لأجل ذلك أرفض أي غمز من انتمائي القومي في « هذه مشكلا م »، لاستعمالي كلمة لا تينية ليست لها ترجمة دقيقة في العربية(٣٣).

وهنا أيضاً لابد أن أسأل سماحة العلامة الدكتور البوطي: من أين جاء بافتراضه أني « رسول الحقيقة الصعبة »(٣٤)؟ إن سلسلة « الحقيقة الصعبة » هي واحدة من أكثر الكتب عدائية لهذا الوطن وشعبه؛ فمن قال لسماحته أني « رسولها »؟ إننا كمبتدئين في العقائد الإسلامية نعرف تماماً أن « بعض الظن إثم »: فما بالكم ذا الظن حين يقدم كحقيقة راسخة في كتاب يتداوله شعب مهتاج يأخذ كلام شيخه على أنه م ّل؟.

بقي سؤال أخير: ما هي « الحكمة البليغة » الكامنة خلف تقديم النص التالي في « هذه مشكلا م »، والذي سأورده كما كتبه سماحة « العلامة » حرفياً:

---

(٣٢) وماذا سنقول إذاً عن ابي هريرة تلميذ كعب الأحبار؟
(٣٣) انظر فصل « الأساطير والعلوم الحديث » في « حوارات ».
(٣٤) هذه مشكلا م، ص١٠٢.

« خطب شاب فتاة من أمها. فسألت عنه شيخاً من شيوخ قبيلته يكن له حباً، فأثنى عليه خيراً وأخذ يذكر لها من محاسنه. وبينما هو يمدحه لها إذ أقبل إليهما من بعيد. فقال لها الشيخ: انظري، ما أحسن ما أقبل، ما انثنى ولا انحنى.. فدنا الفتى، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما سلّم، ما جار ولا خار.. ثم جلس، فقال: ما أحسن والله ما جلس، ما انحط ولا امتط.. فذهب الفتى ليتحرك فضرط[؟!؟!]. فقال الشيخ: ما أحسن والله ما ضرط[؟!] ما أغنها ولا أطنها ولا بربرها ولا فرفرها[؟!].. فنهض الفتى خجلاً، فقال: ما أحست والله ما ض، ما انفتل ولا انخزل.. فلما أسرع ومضى، قال: ما أحسن والله ما خطا، ما ازور ولا افطوطى.. فقالت العجوز: وجه إليه، أيها الشيخ، من يرده. فلو سلح[؟!؟!] لزوجناه »(٣٥).

ويقال: « هذه مشكلا م »

(٣٥) هذه مشكلا م، دار الفكر، ط١، ص٩٧.

الجمل يحملهم إلى... الجنة!؟

ضمن الأسئلة الكثيرة التي طرحناها على سماحة العلامة الدكتور البوطي، والتي أجاب عليها «صحفياً» في البداية، ثم توسع في إجاباته في كتاب *هذه مشكلا م*، الذي عقّبنا عليه في كتابنا *حوارات*، كان ثمة سؤال لم تمكّنا ظروف موضوعية من التعقيب عليه، يتعلق بالتناقض بين حرب الجمل والتبشير بالجنة، يقول:

تناقض إسلامي خارج عن إطار موضوعنا لكنه يعني لي شخصياً الكثير ولم أوفق إلى حله أو فهمه. فمن المعروف أن طلحة بن عبيد الله والزبير وعلي بن أبي طالب والسيدة عائشة رضي الله عنهم مبشرون بالجنة. والنبي (ص) في أحاديث كثيرة له يكفّر المسلم الذي يحارب أخاه المسلم ويخلده في جهنم. وهؤلاء المبشرون بالجنة تحاربوا حتى الموت في موقعة الجمل. كيف يمكن حل مثل هذا التناقض؟ وهل يمكن اعتبار الجنة مجرد وسيلة نفسية ذكية استعملها النبي عليه السلام لحض المؤمنين على بذل أنفسهم في سبيل الدعوة؟».

وكانت إجابة سماحة العلامة الدكتور البوطي:

«ليس في الأمر أي تناقض.. إن كلاً من طلحة والزبير بايع علياً رضي الله عنه عن طواعية ورضى. ولكنهما رأيا أن تلك الفئة التي قتلت عثمان رضي الله عنه فئة باغية، تجب معاقبتها والاقتصاص منها. ولاشك أنه رأي فقهي سديد له مستند صريح من القرآن والسنة. فانضما إلى الذين توجهوا نحو البصرة ابتغاء التعاون لتحقيق هذا الهدف.. ولم يكن لدى علي رضي الله عنه أي رأي مخالف لجوهر هذا الحكم، ولكنه كان يؤثر معالجة الأمر بطريقة أكثر لباقة وحكمة درءاً للفتنة.

إذن فإن كلاً من هذين الصحابيين، ومن كان معهما، لم يتورطوا في أي قتال ى الله ورسوله عنه، بل سعوا إلى تنفيذ أمر الله تعالى: {... فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله} والقتال في شريعة الإسلام أنواع.. ونصوص الشريعة في ذلك منسقة ومتكاملة.

غير أن بوسع من يريد أن يعكر صفو الحقائق التاريخية ويشوه نصاعة رجالها، أن يتلاعب بأخبار هذه الأحداث وأن يجعل منها، بكيده، ناراً وإعصاراً».

❁❁❁

لكن قبل الانتقال للتعقيب على بعض ماورد في *هذه مشكلا م* من آراء حول حرب الجمل وما خلّفته وراءها من شق في الصف العربي، ثم تقديم آرائنا الشخصية في المسألة، لابد من التوقف قليلاً عند الإجابة السابقة، التي لاقت، برأي صاحبها «قبولاً كبيراً من الناس، يقيناً بكل الذي قلت» - لنسأل:

قيل إن سبب الخلاف بين طرفي الجمل هو الاختلاف حول أسلوب معاقبة قتلة عثمان: فمن هم قتلة عثمان؛ وكيف بالإمكان تحديد هويا م، خاصة وأن الكاتب ذاته، في *فقه السيرة*، يقول إن قاتل عثمان شخص أوحد «من أهل مصر، أزرق أشقر»؟ وهل يعقل أن تذهب تلك الألوف المؤلفة إلى البصرة (!!!) لقتل رجل واحد «مصري»، أزرق أشقر؟!

قيل إن الطرفين سعيا إلى تنفيذ أمر الله تعالى، لقتال الفئة الباغية. وفي حرب الجمل يوجد طرفان فحسب: جماعة عائشة وجماعة علي. وهنالك، حسب الإجابة، فئة باغية توجب قتالها. وهكذا، منطقياً، لابد أن تكون إحدى الفئتين باغية، أو كلتاهما معاً، لكن لا يمكن أن تكون الفئتان غير باغيتين. فمن الذي كان باغياً؟!

حرب الجمل والمبشرون بالجنة
بين الحقيقة والوهم!!

«لا يحل دم امرىء مسلم إلا في إحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه فيقتل، أو رجل زنى بعد إحصانه فيرجم، أو رجل قتل نفساً بغير حق».

حديث نبوي

يقول ابن تيمية: «إن الصحابة... إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون»[1]. ويكمل ابن كثير، في الموضوع ذاته: «وأما ماشجر بينهم بعده - عليه الصلاة والسلام - فمنه ماوقع من غير قصد كيوم الجمل، ومنه ماكان عن اجتهاد كيوم صفين، والاجتهاد يخطىء ويصيب ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ، ومأجور أيضاً، وأما المصيب فله أجران»[2]. لذلك، يرى الكاتب المعاصر، عيادة أيوب الكبيسي، «إن المذهب الحق: هو الامساك عما شجر بين الصحابة - رض - كما هو مذهب أهل السنة والجماعة»[3].

هكذا إذن!!!

ألوف القتلى في حرب الجمل، بينهم الزبير بن العوام، الصحابي وابن عمة النبي، وطلحة بن عبيد الله، أحد المبشرين بالجنة: «دون قصد»؟؟

وصفين التي قتل فيها عمار بن ياسر، الذي قال فيه النبي: إن عماراً تقتله الفئة الباغية[4]. وكان من نتائجها، مقتل علي بن أبي طالب، ابن عم النبي وزوج ابنته والخليفة الرابع: «اجتهاد مأجور»؟؟؟

هل هنالك حديث «منسوب» للنبي، يعطي الحاكم الظالم، وكبار القتلة وسفّاكي الدماء، مسوغاً دينياً لجرائمهم، أكثر من حديث «من اجتهد فأخطأ فله أجر» هذا؟.

لماذا... الآن؟

قد يتساءل متسائل: ما الفائدة الآن من طرح موضوع «حرب الجمل» بعد مضي أربعة عشر قرناً، بحيث أوشكت أن تغيب في ذاكرة النسيان؟ الحقيقة أنا مازلنا نعيش حرب جمل، بين حين

---

(١) *العقيدة الواسطية* ٢٥.
(٢) *الباعث الحثيث* ١٨٢
(٣) *صحابة رسول الله* ٣٠.
(٤) انظر: *الاستيعاب* ١١٥٣/٣ - ١١٤١؛ *الإصابة* ٥١٢/٢ - ٥١٣.

وآخر، على شكل حروب داخلية، بأشكال مختلفة. وكحرب الجمل تماماً، فإن جماعة كل طرف من أطراف حروب الجمل المعاصرة، تعمل ماوسعها لتبرير أخطاء غير مبررة، وتصرفات خاطئة؛ وكما في حرب الجمل أيضاً، ماتزال المشاعر هي المسيطرة، والعقل شبه غائب، والحوار أبعد مايكون عن الديمقراطية، واقرب مايكون إلى لغة القمع والسيف!

يلعب الزمن دوراً هاماً في إضفاء القدسية على أشخاص معينين. ويمكن أن يصل التقديس، بفعل عوامل كثيرة، إلى سوية التأليه. وكثيراً مايرتكز الأمان النفسي الذاتي على فعل تقديس ديني لرموز وشخصيات محددة. فيشعر المرء بالتالي بإعاقة نفسية داخلية إذا ماحاول إلقاء نور العقل والحيادية الموضوعية على آراء أو أفعال شخصية ما تحتل عنده قداسة دينية عالية، وذلك كي لا يهز أمانه النفسي الذاتي، القائم أساساً على فعل التقديس هذا. والمسألة - برمتها - إذن، عملية نفسية معقدة، ـدف الابتعاد عن كل مايخرج الذات عن استقرارها، حتى وإن كان كاذباً. من ناحية أخرى، فإن بعض أصحاب الإرادات المشلولة، بحاجة ماسة دائمة إلى رمز مقدس، تكون كلماته وأفعاله عنصر التفعيل الذي لا غنى عنه لصاحب الإرادة المشلولة؛ وهكذا فهو سيخشى أي إنقاص من تلك القداسة، لحاجته الماسة، هو شخصياً، إليها.

مقارنة في غير محلها

في رده على السؤال المتعلق «بحرب الجمل» - البداية الفعلية للتمزق العربي - يحاول *هذه مشكلا م* تبرير أخطاء المشاركة فيها، عن طريق تقديم مثال لا يمكن تشبيهه، بأية حال، بتلك الحرب التي طحنت ألوف البشر. فيقول أولاً: كيف يكون قتل المسلم موجباً للنار بل للخلود فيها إذا كان القاتل مستبيحاً لذلك، ثم يكون القاتل مبشراً بالجنة؟ ويجيب: إن سعادة العقبى لا تستلزم بالضرورة العصمة من الآثام والذنوب. ويضرب لنا مثل حاطب بن أبي بلتعة الذي أرسل في الخفاء مع امرأة كتاباً إلى بعض زعماء قريش في مكة يعلمهم بأن رسول الله (ص) بعد العدة للتوجه إلى مكة بجيش من الأنصار والمهاجرين.. وأعلم الله رسوله بذلك، فاستحصل على الكتاب قبل وصوله إلى قريش. ويعقب *هذه مشكلا م* على ذلك بقوله، إن فعلة حاطب، لم تكن ارتداداً أو رضا بكفر بعد إيمان، وتفهم النبي فعلة حاطب فقال: إنه شهد بدراً، وما أدراك لعل الله أطلع على من شهد بدراً، فقال: اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم. هنا، لابد أن نتساءل؛ إذا سلّمنا بصحة قصة حاطب، كما أورد ا كتب السير،كيف أمكن مقارنة مسألة حاطب - التي كانت بقصد سليم (وإن بدا غير مبرر)، والتي لم تسفر عن شيء سوى انفضاح أمر الرسالة - بقضية حرب الجمل، التي كان الجميع يعرفون إلى أين هم منساقون، والتي أسفرت، كما قلنا، عن آلاف القتلى والجرحى وأدت، فيما أدت، إلى شرخ رهيب في جدار التضامن العربي؟؟؟

الغفران النبوي لحاطب، لا ينطبق أبداً على حالة «الجمل». خاصة، والأحاديث النبوية واضحة تماماً في مسألة الحرب بين طرفين مسلمين.

الزبير بن العوام: تناقض آخر!

يقول *هذه مشكلا م*: إن فتنة الجمل لا تنطوي على مايشير إلى أن كلاً من هذين الصحابيين - طلحة والزبير - قد عصى الله بما صدر عنه، أي، قتال علي بن أبي طالب. لكن *هذه مشكلا م* ذاته، يورد حديثاً للنبي، يقول فيه للزبير: يازبير! أما والله لتقاتلنه - أي، علي بن أبي طالب - وأنت له ظالم. فكيف سنوفق إذاً بين هذين القولين المتناقضين: *هذه مشكلا م* يقول إن الزبير لم يعص الله في قتال علي، والحديث النبوي يقول إن زبيراً سيقاتل علياً وهو له ظالم؟؟

بين الصلاة والقتل: تناقض ثالث!

في محاولة أخرى، غير موفقة لتبرير ماحدث في حرب الجمل، يقول *هذه مشكلا م*: إن سعادة العقبى لا تستلزم بالضرورة العصمة من الآثام. فرب إنسان - ذكر أم أنثى - أسرف على نفسه وارتكب في جنب الله ألواناً من الأوزار، ثم أن الله عز وجل يتداركه بالصفح والغفران يوم القيامة، ويبوئه دار كرامته ورضوانه خالداً فيها. ويضرب لنا مثل حاطب، المشار إليه سابقاً، الذي هو «برأيه»، أخطر بكثير من تلك المه لقات التي سيق إليها كثير من المسلمين، في مهب الفتنة، باجتهاد وقصد سليم.. حتى يصل إلى قوله: ليس هناك من تناقض بين معصية تصدر عن العبد، وقرار الله تعالى بأنه يرحمه ويصفح عنه. ومن جديد، يضرب لنا مثل أربعة أشخاص ضمهم سفر في الطريق، وقاموا إلى الصلاة وقد غمت عليهم السماء وسدت أمامهم الجهات والآفاق.. إن اختلافهم الشكلي اتفاق ضمني.

بغض النظر عن إيماننا المطلق بلا محدودية الغفران الإلهي، فإننا نلمس في الأقوال السابقة محاولة واضحة لمخاطبة العقل الشعبي وحل تناقض «التبشير بالجنة وإنذار المسلمين المتحاربين بالنار»، عن طريق إقحام مفهوم عام، كالغفران الإلهي، بمسألة محددة إسلامياً، كالقتال الإسلامي الداخلي. وفيها نلمس أيضاً تلك العقبة التوفيقية الغريبة، التي ماتزال متأصلة فينا. وهنا، لابد أن نتساءل:

كيف تكون فعلة حاطب أخطر بكثير من حرب الجمل؟ وهل كانت أطراف حرب الجمل تساق إلى المعارك باجتهاد وقصد سليم؟ وإذا كان الاجتهاد والقصد السليم يوصلان إلى مقتل ألوف الأبرياء - بغض النظر عن الجرحى - فإلام يوصل اللاجتهاد والقصد غير السليم؟ وإذا كان اختلافهم الشكلي اتفاقاً ضمنياً فعلامَ اتفقوا؟ وإذا كان شق عصا الجماعة، وقتل ألوف الأبرياء، معصية يرحم الله فاعلها، ويبوئه دار كرامته ورضوانه خالداً فيها، فما هي المعاصي التي لا تغتفر؟. بل كيف يمكن

مقارنة الاختلاف في «القبلة»، الذي انتهى «بصلاة» الأربعة، بخلاف الأربعة في «حرب الجمل»، الذي انتهى «بمقتل» كبار الصحابة والتابعين؟

إن خوفنا على قدسية جماعات «الجمل»، يجرنا إلى خلق أعذار غير مبررة لها، والربط غير المنطقي بين حوادث متناقضة؛ وتلفيق أحاديث نبوية؛ واختراع شخصيات وهمية، شيطانية، نلقي على عاتقها ثقل الأخطاء الفادحة للأطراف «المقدسة». مع ذلك، فتلك طبيعة إنسانية، ظاهرة يمكن أن نجدها عند كل الشعوب وفي كل الديانات.

عثمان بن عفان:

يقول *هذه مشكلا م*: لقد قتل عثمان بن عفان ظلماً، بأيدي طائفة من البغاة: فلماذا قُتل عثمان، ومن الذي قتله؟

«ولي عثمان الخلافة اثنتي عشرة سنة، يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، وإنه لأحب إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأن عمر كان شديداً عليهم، فلما وليهم عثمان، لان لهم ووصلهم»(٥)، لكنه تغير في سنواته الست الأخيرة. فمن المعروف عموماً أن النبي لم يسند أي منصب في فترة حكمه إلى أحد من بني هاشم عدا علي. كذلك لم يعهد أبو بكر، خلال فترة حكمه، لأحد من أفراد قبيلته بمنصب قط. وعين عمر واحداً فقط من بني قومه، ثم عزله. غير أن عثمان، حين خلفه، أخذ يحيد عن هذه السياسة رويداً رويداً، فطفق يعهد إلى أقاربه بالمناصب الكبرى، ويخصهم بامتيازات أخرى اعترض عليها الناس عامة(٦). فقد عزل سعد بن أبي وقاص من حكومة الكوفة وولى عليها الوليد بن عقبة ابن أبي معيط، أخاه لأمه، ثم ولى عليها فيما بعد أحد أقاربه، هو سعيد ابن العاص. وكان عثمان «يسير بالناس سيرة منكرة، ويستبد بالأموال دو م، ويقول عن أرض العراق - التي جعلها عمر من قبل أرضاً للأمة - إ ا بستان قريش»(٧).

نحى عثمان أيضاً أبا موسى الأشعري عن حكومة البصرة، وولى مكانه ابن خاله، عبد الله بن عامر؛ وأقال عمرو بن العاص عن حكومة مصر، وولاها لأخيه للرضاعة، عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وفي حين كان معاوية، زمن خلافة عمر، يتولى دمشق فحسب، جمع عثمان بين يديه، حكومة دمشق وحمص وفلسطين والأردن ولبنان(٨). ثم جعل ابن عمه، مروان بن الحكم، أميناً عاماً للدولة، مما جعل نفوذه يسيطر على الدولة وما فيها ومن فيها. وهكذا اجتمعت السلطات في يد أسرة واحدة. ولم يكن رد فعل هذه الأمور سيئاً على العامة وحدهم، بل على أكابر الصحابة أيضاً(٩).

---

(٥) السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، ١٥٦ وما بعد.
(٦) من ذلك إعطائه مروان بن الحكم مال غنائم أفريقيا! انظر: الكامل لابن الأثير ٤٦/٣.
(٧) انظر: *شرح النهج* ٦/٩ ، ١٦، ٢٣؛ *مروج الذهب* ٣٤١/٢ - ٣٤٢.
(٨) انظر: *البداية والنهاية* لابن كثير ١٢٤٠/٨؛ *أنساب الأشراف* ٢٩:٥؛ *الاستيعاب* ٦٠٤:٢؛ *مروج الذهب* ٣٣٥:٢- ٣٣٦.
(٩) انظر: *الاستيعاب* لابن عبد البر ٦٠٤/٢.

ولئن كان إسناد كافة مناصب الدولة إلى عائلة رأس الدولة نفسها أمراً مثيراً للاعتراض في ذاته أصلاً، فقد تضافرت بعض الأسباب مع هذا الأمر، فأوسع بمعاونتها نطاق الفوضى والاضطراب.

الأول: إن أفراد هذه العائلة الذين ارتقوا في عهد عثمان كانوا جميعاً من الطلقاء. والمراد بالطلقاء تلك البيوت المكية التي ظلت إلى آخر وقت معادية للنبي وللدعوة الإسلامية، فعفا الرسول عنهم بعد فتح مكة ودخلوا في الإسلام. ومعاوية والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم كانوا من تلك البيوتات التي أعطيت الأمان وعفا الرسول عنهم.

أما عبد الله بن أبي سرح، فقد ارتد بعد إسلامه، وكان واحداً من الذين أمر الرسول بقتلهم حتى ولو وجدوا تحت ستار الكعبة، لكن عثمان سارع إليه، وجاء به إلى الرسول، فعفا عنه لأجل عثمان لا غير.

الثاني: إن هؤلاء الناس لم يكونوا يصلحون لتولي زعامة الحركة الإسلامية لأ م لم يستفيدوا من صحبة النبي وتربيته، و ذا الاعتبار يقف هؤلاء الناس في آخر صفوف الصحابة والتابعين لا في أولها.

مروان بن الحكم

أسلم الحكم بن أبي العاص، عم عثمان ووالد مروان، في فتح مكة، ثم جاء إلى المدينة وأقام فيها. لكن الرسول أمره بالإقامة في الطائف، وكانت أول أسباب ذلك إفشاءه للمناورات التي كانت تتم في السر بين الرسول وأكابر الصحابة، والتي كان يسمعها الحكم بطريقة أو بأخرى؛ وثاني الأسباب أنه كان يقلد النبي، حتى رآه يفعل ذلك[١٠].

وكان مروان وقتذاك في السابعة أو الثامنة، فسكن الطائف مع أبيه. فلما تولى أبو بكر الخلافة، التمس منه الحكم السماح له بالعودة إلى المدينة، فأبى. كذلك لم يسمح له عمر بالعودة، بعد استخلافه. فلما تولى عثمان، أعاده إلى المدينة. وقد علل ذلك بأنه كان توسط له عند النبي، فوعده بالسماح له بالعودة إلى المدينة[١١].

لهذا لم يقبل الناس تعيين مروان بن الحكم أميناً عاماً للدولة، حتى وإن صدقوا أن الرسول قبل وساطة عثمان ووعده بأنه سيسمح له بالعودة إلى المدينة، ومن ثم لم يعترضوا على عودته. إلا أنه كان صعباً عليهم أن يصدقوا أن ابن هذا الشخص، الذي أخطأ في حق الرسول، سيكون أهلاً لأن يصبح معاوناً للخليفة من دون أكابر الصحابة، خاصة وأن الوالد المذنب كان لا يزال على قيد الحياة، وله قدر من النفوذ على أمور الدولة عن طريق ابنه[١٢].

---

(١٠) انظر: *الاستيعاب* ١١٨/١، ١١٩، ٢٦٣.

(١١) انظر: *الإصابة* ٣٤٤/١ - ٣٤٥؛ *الرياض النضرة* ١٤٣/٢.

(١٢) ظل حياً حتى أواخر عثمان، حيث توفي عام ٣٢هـ.

الوليد بن عقبة:

كان الوليد بن عقبة من بين الذين أسلموا بعد الفتح، فكلفه النبي بجباية صدقات بني المصطلق. إلا أنه بعد أن وصل المنطقة التي تسكنها هذه القبيلة، خاف، ورجع إلى المدينة دون أن يقابلهم، وقال للنبي: إن بني المصطلق، رفضوا دفع الزكاة وكادوا يقتلوني. فغضب الرسول وبعث جيشاً لقتالهم، وكادت تقع واقعة كبرى لولا أن رؤساء بني المصطلق علموا في الوقت المناسب، فجاؤوا إلى المدينة، وقالوا: إن هذا الشخص لم يأتنا قط، وكنا ننتظر أحداً يأتي ليجبي منا الزكاة. ف لت هذه الآية: {يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتهم نادمين}[(١٣)].

بعد ذلك بسنوات قليلة، استوظف أبو بكر الوليد. ثم عين في آخر عهد عمر، عاملاً على المنطقة التي كانت تسكنها بنو تغلب في الجزيرة العربية[(١٤)]. وفي عام ٢٥هـ، رقّاه عثمان في هذا المنصب، الصغير جداً، فجعله حاكم الكوفة بدلاً من سعد بن أبي وقاص. وهناك فشا أمر إدمانه الخمر، حتى أنه صلى الصبح أربع ركعات، وهو سكران، ثم التفت إلى الناس، فقال: أزيدكم؟[(١٥)] وبعدما انتشر خبره في المدينة، أمر عثمان بإقامة الحد عليه[(١٦)].

بنات عثمان وثروته:

تتحدث مصادر التاريخ عن استخدام بنات عثمان وتمتعهن بالحلي المملوك لبيت مال المسلمين. وتشهد الدولة الإسلامية أول خليفة يترك عند مماته ثروة طائلة، فيحصون لعثمان يوم مقتله عند خازنه من المال خمسين ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وغير ذلك قيمة ضياعه بوادي القرى التي قدرت بمبلغ ١٠٠٠٠٠ دينار. هذا عدا الخيل والإبل، وغيرها من المقتنيات والممتلكات[(١٧)].

سببان بارزان للثورة:

١ - تولية عثمان معاوية، طيلة مدة خلافته، أهم مناطق الدولة آنذاك. ولقد تربع معاوية على حكومة هذه المنطقة مدة طويلة، حتى استقرت جذوره، وتثبتت أوتاده فيها، فلم يبقَ داخل سلطان المركز الرئيس للدولة، بل أصبح المركز الرئيس معتمداً عليه، خاضعاً له.

---

(١٣) الحجرات، ٧. راجع تفسيرها في *الاستيعاب* ٦٠٣/٢؛ وعند *الطبري والقرطبي والزمخشري وابن كثير والنيسابوري والرازي*، وفي *الدر المنثور وامتاع الاسماع*. من أجل معلومات اضافية حول الوليد، راجع: *سيرة* ابن هشام ٣٨٥:١؛٢٥:٢؛ *أنساب الأشراف* ٢٠٤:٢؛ *مروج الذهب*٢: ٣٣٥-٣٣٦؛ *العقد الفريد*٢٧٢:٢؛ *شرح النهج* ٣ : ٤٣ : ١٨؛ *تاريخ* اليعقوبي ٢٠٣:٢.

(١٤) انظر: *عمدة القارىء* ٢٠٣/١٦.

(١٥) *البداية والنهاية* ١٥٥/٧.

(١٦) ابن قدامة، *المغني* ٣٣٢/١.

(١٧) انظر: *شرح النهج* ٦/٩ ، ١٦، ٢٣؛ *مروج الذهب* ٣٤١/٢ - ٣٤٢؛ محمد عمارة، *علي بن أبي طالب* ١٨ - ٢٠.

٢ - تعيين مروان بن الحكم في أهم منصب في الخلافة. فقد استغل مروان طيبة قلب عثمان وثقته فيه، وارتكب من الأعمال ماكانت تقع مسؤوليته على عثمان لا محالة، في حين كان يقترفها دون تصريحه أو علمه. أضف إلى هذا أن مروان دأب على محاولة إفساد العلاقات الطيبة بين عثمان وأكابر الصحابة، حتى اعتبره عثمان حاميه وناصحه أكثر من صحابته القدامى[١٨]. ليس هذا فحسب، بل إن مروان ألقى في مجمع الصحابة خطباً فيها من التهديد ماكان السابقون لا يحتملون سماعه من الطلقاء، إلا على مضض شديد، ومن ثم كان الناس - بل والسيدة نائلة زوجة عثمان ذاته - يرون أن المسؤولية الكبرى في خلق المشاكل، في حياة عثمان تقع على عاتق مروان، حتى أن السيدة، قالت لزوجها: فإنك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الله قدر ولا هيبة[١٩].

لذلك، يقول المودودي: «لاشك أن هذا الجانب من سياسة عثمان كان غلطاً. والخطأ خطأ أياً كان فاعله. أما محاولة إثبات صحته باصطناع الكلام لغواً وعبثاً، فهو أمر لا يقتضيه العقل، ولا يرضاه الإنصاف، كما أن الدين لا يطالبنا بعدم الاعتراف بخطأ صحابي من الصحابة»[٢٠].

أطراف حرب الجمل... ومقتل عثمان!

١ - عائشة:

في النصف الثاني من حقبة خلافته، كانت السيدة عائشة «من أشد الناس على عثمان حتى أ ا أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله (ص)، فنصبته في م لها، وكانت تقول للداخلين إليها: هذا ثوب رسول الله لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنته... وقالوا إ ا كانت أول من سمى عثمان نعثلاً (اسم أحد يهود المدينة)، وكانت تقول: اقتلوا نعثلاً[٢١]! قتل الله نعثلاً! فقال عثمان في آل أبي قحافة (أسرة عائشة) ماقال، وغضب حتى ماكان يدري مايقول»[٢٢].

كانت السيدة عائشة «بمكة، خرجت إليها قبل أن يقتل عثمان، فلما قضت حاجتها، انصرفت راجعة، فلما صارت في بعض الطريق، لقيها ابن أم كلاب (أحد معارفها)، فقالت له: مافعل عثمان؟ قال: قتل! قالت: بعداً وسحقاً!»[٢٣] «أبعده الله بما أقدمت يداه! وما الله بظلام للعبيد»[٢٤].

---

(١٨) انظر: *طبقات* ابن سعد ٣٦/٥.
(١٩) انظر: *الطبري* ٣٩٦/٣ - ٣٩٧.
(٢٠) انظر: *الخلافة والملك* ٧١، حول أخطاء عثمان، انظر: *الخلافة والملك* ٦٣ وما بعد.
(٢١) انظر: *الطبري* ٤٧٧/٤؛ *تاريخ* ابن أعثم ١٥٥؛ *ابن الثير* ٨٧/٣؛ *ابن أبي الحديد* ٧٧/٢؛ *شرح النهج* ٤٥٨/٤؛ *تاج العروس* ١٤١/٨؛ *لسان العرب* ١٩٣/١٤؛ في نص *الامامة والسياسة*، وردت عبارة « اقتلوا نعثلاً فقد فجر » (٧٢:١)؛ وفي غيره نجدها تقول: « اقتلوا نعثلاً فقد كفر ».
(٢٢) انظر: *عائشة والسياسة* ٥٥، ٥٦، ٤٠، *البدء والتاريخ* ٢٠٥/٥.
(٢٣) *اليعقوبي* ١٨٠/٢؛ راجع أيضاً: *الامامة والسياسة* ٦٧:١.
(٢٤) كتاب *الجمل* للمدائني ١٥٠.

بعد تولي علي الخلافة[٢٥]، راحت السيدة «تحرض الناس وتلعن قتلة عثمان! والناس معها يلعنون قتلة عثمان! فيقول علي: يلعنون قتلة عثمان؟! والله مايلعنون إلا أنفسهم، فهم قتلوه»[٢٦].

٢ - طلحة بن عبيد الله:

القرشي التيمي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، أحد الخمسة الذين آمنوا على يد ابن عمه، أبي بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى.

بلغت ثروة طلحة، زمن خلافة عثمان، حداً كبيراً. فقد كان «يغلّ بالعراق مابين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار»[٢٧]. وقيل إن غلته من العراق وحده، كانت «ألف دينار كل يوم»[٢٨]. مع ذلك، «كان من أشد الناس على الخليفة المقتول (لأنه) كان يطمح إلى ولاية الأمر»[٢٩]، أي الخلافة. فلم «يكن يخفي ميله إلى الثائرين ولا تحريضه لهم، ولا إطماع فريق منهم في نفسه. وكثيراً ماشكا عثمان منه في السر والجهر»[٣٠]، فكان يقول: «اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنه حمل هؤلاء وألّبهم. والله لأرجو أن يكون منها صفراً، وأن يسفك دمه؛ إنه انتهك مني مالا يحل له»[٣١].

وبعدما حاصر الناس عثمان، «أجلب عليه محمد بن أبي بكر بني تيم، وأعانه طلحة بن عبيد الله على ذلك»[٣٢]. «ومنع طلحة عثمان أن يدخل الماء العذب. فأرسل علي لطلحة، وهو في أرض له على ميل من المدينة، أن دع هذا الرجل فليشرب من مائه ومن بئره، يعني من رومه، ولا يقتل من العطش، فأبى»[٣٣]. كما كان طلحة يبعث إلى أهل البصرة كتباً «بالتحريض على قتل عثمان»[٣٤].

وحين ثار علي لمقتل عثمان، قال طلحة: «لو دفع مروان (بن الحكم) لم يقتل»[٣٥]. مروان، بدوره، رأى في طلحة أحد قتلة عثمان، لذلك رماه بسهم في حرب الجمل، فقتله. ثم قال: «لا أطلب والله بعد اليوم بثأر عثمان، وأنا قتلته»[٣٦]. وقال لأحد أبناء عثمان: «لقد كفيتك ثأر أبيك من

---

(٢٥) من أجل المزيد عن علاقة السيدة بعثمان، راجع فصل «عائشة والمعارضة» في «*حوارات*».انظر أيضاً كتابنا، *أم المؤمنين تأكل أولادها*.
(٢٦) طه حسين، *علي وبنوه* ٤٦/٢.
(٢٧) العقاد، *عبقريات إسلامية* ٨٩/٣.
(٢٨) عبد الرحمن الشرقاوي، *علي إمام المتقين* ١٦١.
(٢٩) *علي وبنوه* ٩.من أجل ثروة طلحة، راجع: *طبقات* ابن سعد ١٥٨:٣ ط لايدن؛ *أنساب* البلاذري ٧:٥؛ *مروج الذهب* ٤٣٤:١؛ *العقد الفريد* ٢٧٩:٢؛ *الرياض النضرة* ٢٥٨:٢؛ *دول الاسلام* ١٨:١؛ *الخلاصة* للخزرجي ١٥٢؛ *تاريخ* الطبري ٤٠٤:٤؛ *شرح النهج* ٥:١٠.
(٣٠) *المصدر السابق* ٣٥.
(٣١) انظر: *الطبري* ١٢٢/٥؛ *ابن الأثير* ٧٣/٣.
(٣٢) سعيد الأفغاني، *عائشة والسياسة*، ٥٠.
(٣٣) انظر: *الطبري* ١١٣/٥.
(٣٤) *علي إمام المتقين* ٣٥.
(٣٥) *الأنساب* ٧٤/٥.
(٣٦) *اليعقوبي* ١٨٢/٢.

طلحة»[37]. من ناحية أخرى، فقد قال طلحة قبيل موته: «كان مني في دم عثمان شيء ليس توبتي منه إلا أن يسفك دمي في طلب دمه»[38].

٣ - الزبير بن العوام:

القرشي، الأسدي، حواري النبي وابن عمته صفية، زوج أخت عائشة، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أحد الستة أصحاب الشورى، كان ممن هاجر إلى الحبشة، وهو الرابع أو الخامس في الإسلام.

لم يكن الزبير أقل غنى من طلحة. فبعدما مات، قُسم ماله بين ورثته، «فإذا هو خمسون ألف ألف ومائتا ألف»[39]. وكان عنده «ألف فرس وألف أمة»[40]. وكانت له «عدة دور فخمة في البصرة، والكوفة، ومصر، والإسكندرية»[41].

تروي المصادر التاريخية أن أكثر من كان يؤلب على عثمان، هم «طلحة والزبير ومحمد بن أبي بكر وعائشة»[42]. لكن الزبير، كان وجه الخصوص، لم ينشط في رد الثائرين على عثمان «نشاطاً ملحوظاً، ولم ينشط في تحريضهم نشاطاً ملحوظاً أيضاً. ولكنه ظل يترقب وهواه مع الثائرين، ولعله لم يكن يظن أن الأمر سيصير إلى ماصار إليه... (لكنه) لم يكن أقل من طلحة طموحاً إلى ولاية الأمر»[43]، أي الخلافة.

٤ - علي بن أبي طالب:

يقول محمد بن سيرين: «ماعلمت أن علياً ا م في دم عثمان حتى بويع. فلما بويع ا مه الناس»[44]. وتتفق أغلب المصادر على دور علي في حماية عثمان. فقد «كان يخذل الناس عن الفتنة والثورة ماوجد إلى تخذيلهم سبيلاً. وقد سفر مابينهم وبين عثمان، وسفر بينهم وبينه مرة أخرى وأخذ لهم منه الرضا، وحاول حين استيأس من ردهم بعد أن احتلوا داره على غرة من أهلها أن يقوم دون عثمان فلم يستطع، واجتهد في أن يوصل إليه الماء العذب حين أدرك الظمأ لشدة الحصار»[45]. ولكن نقطة الضعف في موقف علي، كانت علاقته القوية بمحمد بن أبي بكر، الذي أشارت إليه أصابع الإ ام في قضية مقتل عثمان. لكن ربما أن استعجال عائشة وصحبها لقتاله في الجمل، لم يترك له مجالاً لبحث دقيق في مسألة قتل الخليفة.

---

(٣٧) *علي وبنوه* ٤٦/٢.
(٣٨) *أسد الغابة* ١٥/٤.
(٣٩) *عبقريات إسلامية* ٨٩/٣.
(٤٠) *علي إمام المتقين* ١٦١.
(٤١) *مروج الذهب* ٣٤٢/٢. من أجل ثروة الزبير، راجع: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب بركة المغازي ٢١:٥؛ *شذرات الذهب* ٤٣:١؛ *طبقات* ابن سعد ٧٧:٣ ط لايدن؛ *تاريخ* ابن كثير ٢٤٩:٧.
(٤٢) *البدء والتاريخ* ٢٠٥/٥.
(٤٣) *علي وبنوه* ٧/٢ - ٩.
(٤٤) *العقد الفريد* ٩٠/٣.
(٤٥) *علي وبنوه* ٧/٢.

يروي ابن تيمية أن محمد بن أبي بكر، كان «قد امتلأ قلبه غيظاً من عثمان، فصار يشغب عليه... ويقال إنه أتى ذنباً يوجب الحد، فأقام عليه عثمان الحد، فعظم الأمر عليه لما له من الشرف بأبيه أبي بكر»(٤٦). ويقول السيوطي، إنه لما «ولى (عثمان) عبد الله بن أبي السرح مصر، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه.. (فولى عثمان عليهم) محمد ابن أبي بكر.. فخرج محمد ومن معه.. فلما كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة، إذا هم بغلام أسود.. (فجاؤوا به إلى محمد)، فقال: غلام من أنت؟.. وعرفه رجل أنه لعثمان! فقال محمد: إلى من أرسلت؟ قال: إلى عامل مصر! قال: برسالة... ثم فك الكتاب بمحضر منهم، فإذا فيه: إذا أتاك محمد وفلان وفلان، فاحتل في قتلهم... (فعادوا) إلى المدينة... فلم يبق أحد منهم إلا حنق على عثمان... ثم (دخل علي على عثمان فسأله): هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم!... قال: فأنت كتبتَ هذا الكتاب؟ قال: لا... (وعرفوا من الخط أنه لمروان بن الحكم)، فسألوا عثمان أن يدفع إليهم مروان، فأبى... فحاصر الناس عثمان، ومنعوه الماء.. فتسور (صعد السور) محمد (بن أبي بكر)، ولا يعلم أحد ممن كان معه... ولم يكن معه (عثمان) إلا امرأته، فقال لهما محمد: مكانكما! فإن معه امرأته حتى أبدأكما بالدخول، فإذا أنا ضبطته، فادخلا، فتوجاه (تضرباه) حتى تقتلاه، فدخل محمد، فأخذ بلحيته، فقال له عثمان: والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني، فتراخت يده، ودخل عليه الرجلان، فوجآه حتى قتلاه، وخرجوا هاربين من حيث دخلوا»(٤٧).

محمد بن أبي بكر: النفي والتأكيد

ليس محمد بن أبي بكر شخصية عادية في التاريخ الإسلامي. فهو أخو السيدة عائشة، وابن الخليفة الأول، أبي بكر الصديق، من زوجته أسماء بنت عميس التي تزوجها علي بعد وفاة زوجها، فنشأ محمد في كنفه، وخاض معه «الجمل» و«صفين»، ثم ولاه علي على مصر عام ٣٧هـ. لذلك لا نستغرب أن يحاول بعضهم نفي التهمة عنه، اعتماداً على روايات قالت إن القاتل شخصاً آخر(٤٨). لكن غالبية الروايات القديمة تؤكد على دوره في قتل عثمان، وإن ظهر اختلاف في مشاركته الشخصية في عملية القتل(٤٩).

---

(٤٦) *منهاج السنة* ٢٠٠/٢.

(٤٧) *تاريخ الخلفاء* ١٥٦.

(٤٨) *علي وبنوه* ٦٨/٢.

(٤٩) انظر: *تاريخ الخلفاء* ١٦٠ - ١٦١؛ *اليعقوبي* ١٧٦/٢؛ *ذيب التهذيب* ٨١/٩؛ *الطبري* ٤٥/٣؛ *مروج الذهب* ٣٤٥/٣.

إن «*تاريخ* ابن عساكر»[٥٠] يقدم لنا مسحاً شاملاً لروايات مقتل عثمان، يؤكد معظمها أن القاتل هو محمد بن أبي بكر. في حين بدا الاختلاف واضحاً بين الروايات القليلة التي ذكرت أن القاتل ليس محمداً، خاصة في تحديد هوية القاتل.

إضافة إلى ماسبق، ثمة أدلة كثيرة، تؤكد على دور محمد بن أبي بكر الأساسي في مسألة مقتل عثمان، نذكر منها:

١ - غضب عائشة «على أخيها محمد لسعيه على عثمان وسمته مذمماً، وكانت تقول»:[٥١] «قتل الله مذمماً بسعيه على عثمان»[٥٢].

٢ - حادثة مقتل محمد بن أبي بكر على يد معاوية بن خديج، الذي قال له قبل أن يقتله: «قتلت ثمانين من قومي في دم الشهيد عثمان، وأتركك، وأنت صاحبه»[٥٣]؛ «إني إنما أقتلك بعثمان»[٥٤]. فقال له محمد: «وما أنت وعثمان، إن عثمان عمل بالجور ونبذ أحكام القرآن... فقمنا إليه، فقتلناه»[٥٥]. «فغضب معاوية فقدمه فقتله، ثم ألقاه في جيفة حمار، ثم أحرقه بالنار... (ويقال) إنه أتي بمحمد أسيراً إلى عمر بن العاص، فقتله، يعني بعثمان»[٥٦].

٣ - لما بلغ أم حبيبة، قريبة عثمان، زوجة النبي، وأخت معاوية بن أبي سفيان قتل محمد وتحريقه، شوت كبشاً وبعثت به إلى عائشة تشفياً بقتل محمد بطلب دم عثمان، فقالت عائشة: «قاتل الله ابنة العاهرة(!)، والله لا أكلت شواء أبداً»[٥٧].

٤ - قول المودودي: «إن قتلة عثمان كانوا ضمن الجيش الصغير الذي جهزه علي»[٥٨]؛ وطه حسين: «إن محمداً كان قد شارك في أمر عثمان»[٥٩].

مع ذلك، فإن علياً سأل محمداً ما إذا كان اشترك[٦٠] في القتل، «فأنكر محمد، وصدقه علي، ولم يمض في التحقيق أكثر من ذلك»[٦١].

---

(٥٠) ص ٤٠٩ وما بعد.
(٥١) *عائشة والسياسة* ٧٢.
(٥٢) *أنساب الأشراف* ١٠٢/٥؛ *العقد الفريد* ٩٨/٣؛ بلاغات النساء ١٢؛ *البيان والتبيين* ٢٠٩/٢.
(٥٣) *سير أعلام النبلاء* ٧٢.
(٥٤) *الطبري* ٧٩/٤.
(٥٥) *الطبري* ٧٩/٤.
(٥٦) انظر: *سير أعلام النبلاء* ٤٨٢/٣؛ *الطبري* ٧٩/٤؛ *عائشة والسياسة* ٢٦٥.
(٥٧) انظر: *التمهيد والبيان*، مخطوط، ذكر امتناعها عن أكل الشواء، ٢٠٩؛ *تذكرة خواص الأمة*؛ ذكر حرب الخوارج، ١١٤.
(٥٨) *الخلافة والملك* ٨٠.
(٥٩) *علي وبنوه* ١١٩/٢.
(٦٠) أحمد صالح، *اليمين واليسار في الإسلام* ١٠٨.
(٦١) *تاريخ* الطبري ٨/٥.

في معرض حديثه عن أسباب حرب الجمل، يقول *هذه مشكلا م*: إن علياً أراد أن يؤخر المطالبة بدم عثمان ريثما يستقر له الأمر، في حين أن طلحة والزبير، اللذين بايعاه من أول يوم.. رأيا الإسراع في ذلك هو الأضمن لسلامة الأمر ودرء أسباب الفتنة، وعرضا على علي خدما ما.

إذا كانت الأخبار والسير تساعدنا في فهم دور طلحة والزبير في حادث مقتل عثمان، والذي أشرنا إليه باختصار في حديثنا السابق عن ذلك الحادث؛ فإنه ليس ثمة مصدر يمكنه مساعدتنا في فهم كيف «عرضا على علي خدما ما»، وهما اللذان حارباه في «الجمل» بعد مضي ستة أشهر على توليه الخلافة[٦٢]. أما بشأن المبايعة التي كانت «من أول يوم»، كما يقول *هذه مشكلا م*؛ فإن مصادر أخرى تروي قصة المبايعة بشكل مختلف:

يروي الطبري، إنه بعدما بايع «الناس علي بن أبي طالب، فأرسل إلى الزبير وطلحة، فدعاهما إلى البيعة، فتلكأ طلحة، فقال مالك الأشتر (أحد أعوان علي)، وسل سيفه: والله لتبايعن به أو أضربك مابين عينيك. فقال طلحة: وأين المهرب منه؟ فبايعه. وبايعه الزبير والناس. (وقيل): إنما بايع طلحة والزبير علياً كرهاً، وقال بعضهم: لم يبايع الزبير... وقالا (طلحة والزبير) بعد ذلك: صنعنا خشية على أنفسنا. (وقيل إن علياً، بعد خروجه من المسجد بايعه) من بايعه، وبايعت الأنصار علياً إلا نفراً يسيراً، فقال طلحة: مالنا من هذا الأمر إلا كسحة أنف الكلب... بايعت والسيف فوق رأسي. فقال سعد (الراوي): لا أدري والسيف على رأسه أم لا. إلا أني أعلم أنه بايع كارهاً. (ويقال إن القوم) جاؤوا بطلحة، وقالوا: بايع! فقال: إنما أنا أبايع كرهاً. ثم جيء بالزبير، فقال مثل ذلك»[٦٣]. أخيراً، يلخص طه حسين حادث المبايعة، فيقول: «امتنع طلحة والزبير عن البيعة، فأكرههما الثائرون عليها... ورضي (علي) أن يستكرههما على البيعة لموقفهما من عثمان والثائرين به»[٦٤].

إذن! ماهي الأسباب الفعلية لثورة طلحة والزبير على علي؟

يروي أحد المصادر «أن الزبير كان يطمح في ولاية العراق، وطلحة في ولاية اليمن، فلما أرسل علي الولاة ولم يكن لهما حظ في الولاية نقما عليه، وتكلما في شأنه، فاستأذنا علياً في الخروج إلى مكة لأداء العمرة، ولكنه لم يخف عليه أمرهما، فقال لهما: والله ماالعمرة تريدان!

---

(٦٢) قتل عثمان يوم ١٨ ذي الحجة عام ٣٥ هـ. وانتهت حرب الجمل، التي سبقتها حروب صغيرة أخرى، يوم ١٥ جمادى الآخر، عام ٣٦هـ (انظر: *عائشة والسياسة*).

(٦٣) انظر: *الطبري* ٤٥٢/٣ - ٤٥٦.

(٦٤) علي وبنوه ٩/٢ - ١٩.

وإذن! فقد كانت المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان ستاراً يخفون تحته أغراضهم في الحكم والسلطان وانتزاع الخلافة من علي»[٦٥].

كذلك، تروي الأخبار والسير، أنه من أسباب ثورة الزبير وطلحة على علي، عودته إلى شرع المساواة بين المسلمين، الذي أقر زمن خلافة أبي بكر، ونقضه عمر وسار عثمان على درب عمر، و»بلغ في معارضتهم لقرار التسوية هذا حد نقضهم بيعتهم لعلي، وإعلان الحرب عليه تحت ستار الطلب بدم عثمان، على حين كانوا هم الذين تقدموا الناس في الثورة على عثمان؟!...

(وحين سألهما علي): ماالذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟... قالا: خلافك عمر بن الخطاب في القسم.. قال علي... لقد وجدت رسول الله يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به.. (فأجاب الزبير) في ملأ من الناس: هذا جزاؤنا من علي! قمنا له في أمر عثمان حتى قتل، فلما بلغ بنا مابلغ، أراد جعل فوقنا من كنا فوقه»[٦٦].

لم يقف «الصراع على السلطة» عند حدود طرفي حرب الجمل، بل لقد كان يمتد أحياناً ليضرب بين أفراد الجماعة الواحدة ذا ا. ففي الطريق إلى حرب الجمل، كان طلحة والزبير يتصارعان على رئاسة ا موعة بصورة اختلافهما «أيهما يصلي بالناس، ثم يتفقان بعد خطوب على أن يصليا بالناس هذا يوماً وهذا يوماً»[٦٧]. وعلى ذلك علّق معاذ بن جبل، فقال: «والله لو ظفرنا لافتتنا: ماخلّى الزبير بين طلحة والأمر، وما خلّى طلحة بين الزبير والأمر (يعني الخلافة)»[٦٨].

الأشتر النخعي

يقول *هذه مشكلا م* فما أن أعلن علي (رض) الصلح والوفاق وابلغ الناس أنه مرتحل في الغد، قبل استعار نار حرب الجمل، حتى اجتمع رجال من رؤوس الفتنة فيهم الأشتر النخعي... وتذاكروا فيما بينهم خطورة الأمر، وإن اتفاق الصحابة يعني إحداق الخطر م. وقال منهم قائل؛ فلنلحِق علياً إذن بعثمان!... فمن هو الأشتر النخعي هذا، الذي اعتبره *هذه مشكلا م* أحد رؤوس الفتنة؟

جاء في «سير أعلام النبلاء» عن «الأشتر النخعي»، أنه «ملك العرب، مالك بن الحارث النخعي، أحد الأشراف والأبطال المذكورين.

حدث عن عمر، وخالد بن الوليد، وفقئت عينه يوم اليرموك. وكان شهماً مطاعاً زعراً، ألّب الناس على عثمان وقاتله، وكان ذا فصاحة وبلاغة. شهد صفين مع علي، وتميز يومئذ، وكاد يهزم

---

(٦٥) النص لمحمد النجار من كتاب «*علي بن أبي طالب*» ٨٧ - ٨٨. بالنسبة لمسألة الولاية، انظر: *الطبري* ١٥٣/٥؛ *اليعقوبي* ١٢٧/٢؛ *ابن أعثم* ١٦٦؛ *ابن كثير* ٢٢٧/٧.

(٦٦) النص لمحمد عمارة من كتاب *علي بن أبي طالب*، ص٣١. من أجل مسألة القسم، انظر: *فتوح* ابن الأعثم ٢٤٨/٢؛ *شرح النهج* ٤١/٧ - ٤٢.

(٦٧) طه حسين، *علي وبنوه* ٣٧/٢.

(٦٨) *عائشة والسياسة* ١٠٣.

معاوية، فحمل عليه أصحاب علي لما رأوا مصاحف جند الشام على الأسنة يدعون إلى كتاب الله. وما أمكنه مخالفة علي. فكف. ولما رجع علي من موقعة صفين، جهز الأشتر والياً على مصر، فمات في الطريق مسموماً... ولما بلغ علي نعيه، قال: إنا لله، مالك، وما مالك! وهل موجود مثل ذلك! لو كان حديداً لكان قعيداً، ولو كان حجراً لكان صلداً، على مثله فلتبكِ البواكي»[٦٩].

وقال علي عنه أيضاً: «كان الأشتر لي كما كنت لرسول الله»[٧٠].

وقال عنه ابن الزبير: «التقيت مع الأشتر يوم الجمل، فما ضربته حتى ضربني خمساً أو ستاً، ثم جر برجلي فألقاني بالخندق، وقال: والله لولا قربك من رسول الله (ص) مااجتمع فيك عضو إلى عضو»[٧١].

عبد الله بن سبأ: خرافية الشخص وأزلية الرمز!

في معرض حديثه عن محرك الخيوط في حرب كبار الصحابة في «الجمل»، يقول *هذه مشكلا م*: «لكن عبد الله بن سبأ قال لهم (أي، لجماعته): إن نجاتكم في مخالطة الناس. فإذا التقى الناس فأنشبوا الحرب والقتال بين الناس، ولا تدعوهم يجتمعون! وسيمتنع الناس من حولكم بالقتال دفاعاً عن أنفسهم». فمن هو عبد الله بن سبأ هذا؟ وماهي أهمية الدراسة الموضوعية لهذه الشخصية، في هذا الزمن بالذات؟

عبد الله بن سبأ، كما تصوره الروايات، هو «يهودي عبر عنه بابن السوداء أحياناً. أظهر الإسلام في عصر عثمان ليكيد المسلمين فتنقل في الحواضر الإسلامية، مصر، والشام، والكوفة، والبصرة، مبشراً برجعة النبي وأن علياً هو وصيه وأن عثمان غاصب حق هذا الوصي، فمال إليه وتبعه جماعات من كبار الصحابة والتابعين من أمثال عمار بن ياسر، وأبي ذر، ومحمد بن أبي حذيفة، وغيرهم؛ واستطاع أن يجيش الجيوش لقتل الخليفة عثمان حتى قتلوه في داره. وهكذا تتسلسل الحوادث حتى تنتهي إلى حرب الجمل، (ويظهر) وسيط للصلح اسمه القعقاع بن عمر ويقوم بالسفارة للصلح بين علي وعائشة وطلحة والزبير؛ حتى إذا تم أمر المعسكرين على الصلح ورأى (السبأيون) أتباع «عبد الله بن سبأ» ذلك خافوا على أنفسهم من مغبة هذا الصلح، فاجتمعوا سراً في سواد الليل يتشاورون فأوعز إليهم رئيسهم بطل القصة «ابن سبأ» أن يندسوا بين الجيشين، فيهجم من اندس منهم في جيش علي على جيش عائشة، ومن اندس منهم في جيش عائشة يهاجم جيش علي، ويثيروا الحرب فجأة، فراقت لهم الخطة، ونفذوها

---

(٦٩) ٣٤/٤ - ٣٥.
(٧٠) *العقد الفريد* ٢٠١/٣؛ انظر أيضاً: *عائشة والسياسة* ٢٠٤.
(٧١) *العقد الفريد* ٢٠١/٣؛ انظر أيضاً: *عائشة والسياسة* ٢٠٤.

في غلس الليل دون علم علي وعائشة. وهكذا أنشبت الحرب خلافاً لرغبة قادة الجيشين. وهكذا وقعت حرب الجمل»[٧٢].

إن أهمية معالجة البعد التاريخي لهذه الشخصية التي سنبين لاحقاً أ ا خرافية تكمن فيما يلي:

١ - إن نفي أي وجود تاريخي «فعلي» لشخص ابن سبأ سينفي حتماً عن مجموعة من الصحابة والتابعين، مثل أبي ذر وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر والأشتر النخعي، كو م «شرذمة» يقودها هذا الفرد اليهودي.

٢ - هذا النفي ينفي أيضاً عن كبار صحابة النبي، وهم زوجته وابن عمه وابن عمته وابن عم زوجته، أن يكونوا مجرد شخصيات منفعلة، مشلولة الإرادة، تحركها خيوط تنتهي بأصابع فرد يهودي أوحد؛ وتحميل أخطاء «حرب الجمل» لأصحا ا الفعليين لا يعني الإنقاص من قيمتهم الدينية، فكل إنسان معرض للخطأ. وكل الديانات والأيديولوجيات شهدت صراعات داخلية، على مدى العصور.

٣ - إن عبد الله بن سبأ، «شيطان» حرب الجمل، الشخص الخرافي، مايزال رمزنا الأزلي، في معالجة أخطائنا. وكالشيطان تماماً الذي يبرز في المواقف الصعبة ليخلي الذات البشرية من حمل الإثم الكريه، يظهر عبد الله ابن سبأ - الرمز عند كل نكبة تلم بنا، ليضعنا فوق الخطأ والشبهة؛ وذلك عوضاً عن المناقشة الموضوعية للأسباب والنتائج. وهكذا، منذ «حرب الجمل» مروراً «بحرب الخليج» وإلى ماشاء الله، سنظل نقع في المشاكل الصعبة، مادام عبد الله بن سبأ في خدمتنا دائماً - وإن بأسماء مختلفة.

مناقشة الحقيقة التاريخية لابن سبأ

ظهرت كتب كثيرة تحدثت عن عبد الله بن سبأ. وقد اعتمدت غالبيتها الساحقة الرأي التقليدي حول دور هذا الشخص في يوم الدار وحرب الجمل. لكن عملين[٧٣] - وصلا إلى يدي - انفردا في معالجة دقيقة، موضوعية، لحقيقة هذا الشخص تاريخياً، وحللا بشكل تفصيلي تناقض الروايات بشأنه، وتوصلا بالتالي إلى دحض أي وجود فعلي لهذا الشخص.

---

(٧٢) مرتضى العسكري، *أحاديث أم المؤمنين* ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٧٣) العمل الأول: *عبد الله بن سبأ*، المدخل. تأليف مرتضى العسكري، العميد السابق لكلية أصول الدين في بغداد، ط. القاهرة، ١٣٨١هـ. و*عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى*: طبعة ثانية منقحة ومضافة من مجلدين. بيروت ١٩٩١.

العمل الثاني: *عبد الله بن سبأ*، تأليف د. عبد العزيز صالح الهلالي، من قسم التاريخ بجامعة الملك سعود، الجزيرة العربية. نشر جامعة الكويت ١٩٨٧.

إن أخبار ابن سبأ، التي روى الطبري (ت ٣١٠هـ) وابن عساكر (ت ٥٧١) أقلّها، تستند إلى سيف بن عمر التميمي (ت ١٨٠هـ)، الذي يرويها عن عطية عن يزيد الفقعسي: فما قيمة هؤلاء الرواة في ميزان الجرح والتعديل؟

جاء في «ميزان الاعتدال» عن سيف: «ضعيف متروك الحديث، فليس فيه خير»[(٧٤)]؛ فالذهبي يستنكر اعتماده كرواية[(٧٥)]. ويدعمه في ذلك فلهاوزن[(٧٦)]. «قال النسائي في سيف: متروك الحديث، ليس بثقة ولا مأمون. وقال فيه أبو داوود: ليس بشيء، كذاب. وقال الفيروزآبادي: صاحب تواليف. ونقل ابن عبد البر عن أبي حيان، قوله: سيف متروك، وإنما حديثه للمعرفة»[(٧٧)]. وقال عنه بروكلمان: «كان يحرف الأحاديث، يعظم بعضها ويحقّر بعضها، ولكنه كان يحسن الوصف والبيان، فاغتر الطبري بذلك، واختار كتبه مصدراً أصيلاً في تاريخه لما روى من الوقائع في أوائل الإسلام. وتبع الطبري المتأخرون»[(٧٨)].

أما عطية فهو عطية بن الحارث الهمداني. ولهذا الرجل سمعة طيبة عند أصحاب كتب الجرح والتعديل عدا ابن حزم، الذي قال عنه: «محدث ضعيف»[(٧٩)]. لكن رويت عنه بعض الإسرائيليات[(٨٠)].

من جهة أخرى، يزيد الفقعسي رجل نكرة، لا يوجد له غير خمس روايات في الطبري، وليس له ذكر في معظم كتب الجرح والتعديل أو التراجم.

في مقاطع أخرى، يذكر الطبري ابن السوداء والسبأية، وهي، عدا روايتين، تأتي كما يلي: سيف عن محمد (بن عبد الله بن سودان بن نويرة) وطلحة (بن الأعلم الحنفي). ولا ذكر في تلك الروايات لابن سبأ. أما السبأية فهم عموم المشاركين في الثورة على عثمان.

روايات سيف «ليوم الدار»

لم يرد عند الرواة والإخباريين المتقدمين أي ذكر عن ابن سبأ ودوره في الأحداث الدامية التي بدأت في خلافة عثمان وانتهت بعد مقتل علي. ومن هؤلاء نذكر: «عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ)، محمد بن مسلم ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤)، ابن اسحاق (ت ١٥٠هـ)، الواقدي (ت ٢٠٧)، خليفة بن خياط (ت ٢٤٠)، ابن سعد (ت٢٨٢) في كتاب الطبقات، ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧) في

---

(٧٤) الذهبي، *ميزان الاعتدال* ٢٥٥/٢.

(٧٥) *Encyclopedia of Islam* ١/٥١

(٧٦) *Ibid*

(٧٧) انظر: مرتضى العسكري، *عبد الله بن سبأ*، ٦١.

(٧٨) *تاريخ الأدب العربي* ٧٣/٣.

(٧٩) *جمهرة أنساب العرب* ٣٩٣.

(٨٠) انظر: *تاريخ الطبري* ٩٢/٤ - ٩٣.

فتوح مصر وأخبارها، أبو حنيفة الدينوري (ت ٢٨٢) في الأخبار الطوال، الكندي (ت ٢٨٣) في كتاب الولاة والقضاة، اليعقوبي (ت ٢٩٢) في تاريخه، والمسعودي (ت ٣٤٦) في كتبه»[٨١].

أخذ الطبري، كما أشرنا، أخبار ابن سبأ عن سيف. ولسيف هذا أكثر من كتاب، تحدثنا المصادر عن اثنين منها: كتاب الفتوح الكبير والردة وكتاب الجمل ومسير عائشة وعلي[٨٢]. لكن من مناقشة روايات «يوم الدار»، يبدو أن له كتاباً آخر حول الفتنة ومقتل عثمان. عن الطبري أخذ ابن الأثير (ت ٦٣٠) وابن كثير (ت ٧٧٤) وابن خلدون (ت ٨٠٨) والمستشرقون، إضافة إلى أبي الفداء (ت٧٣٠)، رشيد رضا (١٣٥٦)، والكتاب المعاصرين: سعيد الأفغاني، حسن إبراهيم، أحمد أمين، وفريد وجدي[٨٣].

يعطي سيف ابن سبأ الدور الرئيس في مقتل عثمان؛ ويذكر لنا اسمه، أصله، منشأه، وعقيدته.

في «تاريخ الطبري» ثلاث روايات لسيف عن ابن سبأ في خلافة عثمان:

الأولى: عن يزيد الفقعسي، عام ٣٠هـ، وتحكي عن تحريض ابن السوداء أبا ذر الغفاري ضد معاوية[٨٤].

الثانية: عن يزيد الفقعسي، عام ٣٣هـ، وتحكي عن نزول ابن السوداء عند لص من البصرة يدعى حكيم بن جبلة. أخرجه عبد الله بن عامر، عامل عثمان في البصرة، إلى الكوفة. وابن السوداء هنا هو رجل من أهل الكتاب، رغب في الإسلام[٨٥].

الثالثة: عن يزيد الفقعسي، عام ٣٥هـ، وتحكي عن عبد الله بن سبأ؛ وهو يهودي من أهل صنعاء أمه سوداء، أسلم زمن عثمان، وتنقل في بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم: الحجاز، البصرة، الكوفة، الشام، ومصر. وتحكي هذه الرواية أيضاً، كيف أرسل عثمان رجالاً إلى الأمصار، كان منهم عمار بن ياسر، الذي أرسل إلى مصر، حيث استماله قوم منهم عبد الله بن السوداء. تعرض هذه الرواية عقيدتين من العقائد المنسوبة لابن سبأ: الرجعة، من قوله، «محمد أحق بالرجعة من عيسى»؛ والوصاية، من قوله، «علي وصي محمد». وأن عثمان أخذ الخلافة دون حق[٨٦].

ثمة رواية مكملة نجدها في «تاريخ الإسلام» للذهبي، وتحكي عن ذهاب ابن السوداء إلى مصر حيث حاك مؤامرة ضد عثمان، لتولية عبد الله بن أبي سرح[٨٧].

---

(٨١) انظر: عبد العزيز الهلالي، ١٣.

(٨٢) انظر: ابن نديم، *الفهرست*، ١٠٦.

(٨٣) انظر: مرتضى العسكري، *عبد الله بن سبأ*، ط. القاهرة ١٣٨١ هـ، ص ٢٥.

(٨٤) *الطبري* ٢٨٣/٤.

(٨٥) ٢٦٤/٤.

(٨٦) ٣٢٦/٤ - ٣٢٧.

(٨٧) ١٢٢/٢ - ١٢٣.

الرواية الأولى:

إن قصة ابن السوداء «مع أبي ذر (موضوعة) لإظهار أن مواقف أبي ذر من معاوية ترجع إلى أفكار يهودي حاقد على الإسلام[88]. لكن أبا ذر بدأ نقده لعثمان في مرحلة مبكرة، فأبعده إلى الشام فانتقد معاوية، فشكاه إلى عثمان، فكلف الأخير معاوية أن يسيره إلى المدينة. وأقام بعدها في الربذة[89].

إن أبا ذر ليس إمعة تسيره آراء يهودي حاقد على الإسلام، وهو الذي استاء مرة من كعب الأحبار، وقال له: «أتعلمنا ديننا ياابن اليهودية؟»[90]. وسيف، الذي يذكر وحده هذه القصة، يناقض نفسه حين يخبرنا في الرواية الثانية أن ابن سبأ دخل الإسلام عام ٣٢هـ أو ٣٣هـ.

الرواية الثانية:

يخبرنا سيف هنا أن ابن السوداء رجل رغب بالإسلام: فهل أسلم فعلاً؟

صورة حكيم بن جبلة، اللص بمفهوم سيف، تتناقض مع صورته عند المدائني والذهبي والمسعودي: «أحد الأشراف الأبطال»[91].

وإذا كان ابن السوداء ذه الخطورة، لماذا اكتفى ابن عامر بطرده، دون سجنه أو إرساله إلى الخليفة؟.

الرواية الثالثة:

التناقض هنا حاد: فمتى كان ابن سبأ في الشام؟ هل كان هناك عام ٣٠هـ، كما في الرواية الأولى، أي قبل أن يسلم، أم كان عام ٣٤، بعد اعتناقه الإسلام، كما في الرواية الثالثة؟ لكنه التقى في الشام أبا ذر، وهذا توفي على الأرجح عام ٣١هـ؟

إن هذه الرواية موضوعة أساساً لإظهار فشل ابن السوداء مع أهل الشام، الذين دانوا بالطاعة المطلقة للخليفة عثمان؛ وأن من قام ضد الخليفة كان ضالاً، عبر الحديث عن علاقة ابن السوداء بأبي ذر. أما ظهور ابن السوداء في مصر عام ٣٥هـ، فهو للدفاع عن عثمان الذي ا م بتوليته لأقاربه وإدخال عمار بن ياسر في دائرة ابن السوداء. مع ذلك، فجواد علي يشكك في إرسال عثمان عماراً إلى مصر، وهو الذي اصطدم به مراراً[92].

---

(٨٨) عبد العزيز الهلالي ١٩.

(٨٩) انظر: *اليعقوبي* ١٧١/٢ - ١٧٣؛ الذهبي، *سير* ٦٣/٢ - ٧٥؛ *طبقات* ابن سعد ٢٢٦/٤ - ٢٣٢؛ ابن شعبة، *تاريخ المدينة* ١٠٣٤/٣ - ١٠٤١.

(٩٠) انظر: ابن الأثير، *الكامل* ١١٥/٣؛ الذهبي *سير* ٦٨/٢؛ ابن شعبة ١٠٣٧/٣.

(٩١) الذهبي، سير ٥٣١/٣.

(٩٢) مجلة ا مع العلمي العراقي ٨١/٥.

بالنسبة للجزء الثاني من الرواية الثالثة الذي يتحدث عن عقيدة ابن سبأ، فهو موضوع أساساً لطعن الشيعة بنسبة مذهبهم إلى يهودي حاقد على الإسلام. رغم أن المذهب الشيعي لم يتبلور إلا في نهاية القرن الهجري الأول[٩٣]. لكن سيف ذاته، يخبرنا، في روايتين، عن موقف للسبئية معارض للوصي، علي بن أبي طالب[٩٤].

الرواية المكملة:

إن هدف الذهبي من روايته هذه هي إظهار أن تولية عثمان أخاه في الرضاعة، عبد الله بن أبي سرح، جاء استجابة لطلب المصريين الذين يديرهم ابن السوداء ليس إلا. لكن الذهبي يقع في تناقض فاضح حين يقول أن ابن السوداء ظهر في مصر عام ٣٥هـ، ويروح يروي وقائع حدثت عام ٢٧هـ، كعزل عمرو بن العاص[٩٥].

روايات سيف عن دور ابن السوداء في **حرب الجمل:**

يتوقف سيف هنا في الرواية عن يزيد الفقعسي، ويتوقف بالتالي ورود اسم ابن سبأ، بل ابن السوداء والسبأية.

إن لروايات سيف هذه حول دور ابن السوداء في حرب الجمل أهدافاً عديدة، أهمها:

١ - إخلاء رؤساء طرفي النزاع من مسؤولية حرب الجمل.

٢ - تحميل السبئية وزر تلك الحرب.

٣ - خلق شخصية، هي القعقاع بن عمرو، تحاول الإصلاح بين طرفي النزاع، وإفشال السبئية له.

تحفل روايات سيف بتناقضات كثيرة، نذكر منها:

١ - تناقضات رقمية بشأن المشاركين في المعارك من أهل الكوفة.

٢ - يروي سيف أن جماعة الجمل قتلوا جميع قتلة عثمان من أهل البصرة عدا حرقوص بن زهير[٩٦]: فلماذا بقوا في البصرة ولم يتجهوا إلى مكة أو المدينة أو الكوفة التي قد يكون فيها بعض من قتلة عثمان؟

٣ - يتساءل الدكتور عبد العزيز الهلالي، قائلاً: «هل يمكن أن نصدق رواية سيف هذه بحيث تجعل ابن السوداء اليهودي العقل المدبر لهؤلاء الجماعة معظمهم من أصحاب السابقة في

---

(٩٣) انظر: عرفان عبد الحميد، *دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية*، ٢٧.
(٩٤) انظر *تاريخ* الطبري ٤٣٨/٤.
(٩٥) انظر *تاريخ* الطبري ٤٣٨/٤.
(٩٦) *تاريخ* الطبري ٤٧٢/٤.

الجهاد بل منهم من تذكر له صحبة، كما أن بعضهم كانوا رؤساء مطاعين في قبائلهم؟»[٩٧].

٤ - هل يعقل أن يكون علي بهذه السذاجة بحيث يجعل من الأشتر الرجل الثاني في جيشه، وعامله بعد الحرب على مصر، وهو الذي اقترح على ابن السوداء إلحاق علي بعثمان؟

٥ - يذكر سيف أن عدي بن حاتم كان أحد جماعة ابن السوداء. لكنه يقول عنه، في ذكر حروب الردة: «كان خير مولود ولد في أرض طي وأعظمه عليهم بركة»[٩٨]. وهو الذي قال له عمر: «آمنت إذ كفروا، وعرفت إذ أنكروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا، إن أول صدقة بيضت وجوه أصحاب رسول الله (ص) صدقة طي»[٩٩]. وشخصية ابن عدي، كما يصورها سيف، مليئة بالتناقضات: فهو مرة متردد في بيعة علي، وثانية يأتمر بابن السوداء، وثالثة من الثائرين على عثمان.

٦ - إذا كان الصلح ممكناً، كما يقول سيف، لأمكن ذلك في المدينة أو مكة؛ وما كان لأطراف المعركة بحاجة للخروج إلى البصرة للتصالح هناك.

٧ - إذا كان الصلح ممكناً، لماذا عبأ الطرفان الجيوش؛ ولماذا لم يتفاوضوا بعيداً عن ساحة المعركة؟

٨ - يجعل سيف من اليهودي، ابن السوداء، رئيساً لقبيلة عربية من عبد قيس: فهل هذا ممكن؟

٩ - يختفي ابن السوداء، كما ظهر، فجأة: كيف يحصل ذلك؟ إن الجواب المنطقي الوحيد هو انتهاء كتاب سيف، الذي اعتمده الطبري، بشأن حرب الجمل.

رواية الشعبي:

ثمة رواية أخرى عن ابن سبأ رواها الشعبي، وأوردها الجاحظ[١٠٠]، عبد القاهر البغدادي[١٠١]، والخطيب البغدادي[١٠٢] الذي نقل نصه ابن عساكر في *تهذيب تاريخ دمشق*[١٠٣]. ورواية الشعبي مسندة إلى زحر بن قيس: فمن هو هذا الرجل؟

---

(٩٧) *عبد الله بن سبأ*، ٣٥.
(٩٨) *تاريخ الطبري* ٢٥٣/٤.
(٩٩) *الإصابة* ٤٦٨/٦.
(١٠٠) *البيان والتبيين* ٨١/٣.
(١٠١) *الفرق* ٢٣٥.
(١٠٢) *تاريخ بغداد* ٤٨٧/٨.
(١٠٣) ٣٧٢/٥ - ٣٧٣.

إنه أحد قتلة الحسين بن علي، الذي أرسله عبيد الله بن زياد بن أبيه برأسه إلى يزيد حيث خطب أمامه مفاخراً بقتل الحسين[١٠٤]. وهو من الذين شهدوا زوراً على حجر بن عدي وجماعته بأ م دعوا إلى الكفر[١٠٥].

الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) هو واحد من أقدم الذين ذكروا ابن سبأ، مع ابن حبيب (ت ٢٤٥هـ) في «*المحبر*».

تذكر رواية الجاحظ عن زحر، قوله: «قدمت المدائن بعدما ضرب علي... فلقيني ابن السوداء وهو ابن حرب... فقال لا يموت»[١٠٦].

ويروي الخطيب البغدادي عن زهر، قوله: «بعثني علي على أربعمائة من أهل العراق وأمرنا أن ن ل المدائن... جاء رجل... من الكوفة... قال: (قتل علي)... قال عبد الله بن وهب السبائي: لا يموت»[١٠٧].

ويروي عبد القاهر البغدادي، عن الشعبي، قوله: «إن ابن سبأ قيل له: إن علياً قتل. فقال: إن جئتمونا بدماغه في صرة لم نصدق بموته حتى ي ل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها.

وقد ذكر الشعبي: أن عبد الله بن السوداء (وهو، هنا، غير ابن سبأ) كان يعين السبأية على قولها، وكان ابن السوداء في الأصل يهودياً من أهل الحيرة فأظهر الإسلام، وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورئاسة فذكر لهم أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصياً، وأن علي (رض) وصي محمد (ص)... فرفع علي قدره... ثم بلغه غلوه فيه فهم بقتله، فنهاه ابن عباس... فلما خشي من قتله وقتل ابن سبأ الفتنة التي خافها ابن عباس، نفاهما إلى المدائن، فافتتن ما الرعاع بعد قتل علي (رض) وقال لهم ابن السوداء: والله لينبعن لعلي في مسجد الكوفة عينان تفيض إحداهما عسلاً والأخرى سمناً، ويغترف منهما شيعته»[١٠٨].

إن الروايات الثلاثة السابقة، المختلفة في كل شيء تقريباً، تتفق في رفض ابن سبأ لفكرة موت علي. والرواية الثالثة تركز على الطعن في علي وابن عباس، اللذين اونا في حدود الله؛ وعلى اعتبار فكرة الوصي من أصل يهودي.

---

(١٠٤) انظر *تاريخ* الطبري ٤٥٩/٥.
(١٠٥) انظر *تاريخ* الطبري ٢٧٠/٥.
(١٠٦) انظر: مصادرهم المذكورة آنفاً.
(١٠٧) انظر: مصادرهم المذكورة آنفاً.
(١٠٨) انظر: مصادرهم المذكورة آنفاً.

ابن أبي الحديد:

في «*شرح ج البلاغة*»، يقدم لنا الكاتب المعتزلي، ابن أبي الحديد، ثلاث روايات عن «ابن سبأ»:

تقول الأولى إن ابن سبأ هو أول من جهر بالغلو في علي، فقال له وهو يخطب: أنت الله. فأمر علي «بأخذه وأخذ قوم كانوا على رأيه»(١٠٩).

وتقول الثانية، إن علياً صادف قوماً اتخذوه رباً وإلهاً، فحرقهم في النار(١١٠).

وتقول الثالثة، إن علياً مر بقوم يأكلون في رمضان، قالوا بألوهته، فنهاهم عن ذلك، فأبوا فأحرقهم. لكن ابن عباس شفع لابن سبأ، الذي تاب، فعفا عنه، وأبعده من الكوفة إلى المدائن، حيث صارت له فرقة. ولما مات علي، أنكر ابن سبأ موته(١١١).

وبغض النظر عن تناقضات روايات ابن أبي الحديد، لابد أن نتساءل:

١ - هل يعقل أن يرفض أتباع ابن سبأ أمراً لعلي، وهم يعتقدون أنه خالقهم ورازقهم؟

٢ - وهل يعقل أن يعاقب علي، ابن عم النبي وزوج ابنته وأحد خلفائه، بالإحراق المنهي عنه شرعاً؟

٣ - وهل يعقل أن يتوب ابن سبأ عن «كفره» ولا تتوب جماعته؟

٤ - وهل يعقل أن يشفع ابن عباس، الذي كان عامل علي على البصرة وليس الكوفة كما تقول الرواية، برجل كابن سبأ؟

السبأية؟؟؟

ذكرت مصادر كثيرة، قديمة وحديثة، السبأية كجماعة تبعت عبد الله بن سبأ.

يقول الطبري، إن السبأية تسمية أطلقت على معارضي بني أمية عموماً والشيعة بشكل خاص(١١٢). وقال أيضاً، إ م أتباع المختار(١١٣)، أحد الثائرين على بني أمية.

السبأية، عند البلاذري، وصف للخوارج والشيعة(١١٤). ويرى ابن حزم أن السبأية هم السبابية التي انقسمت عن النضيرية(١١٥). فإذا وجدت السبأية في عهد علي: متى وجدت النضيرية؟. عند

(١٠٩) ٥/٥.
(١١٠) ٥/٥ - ٦.
(١١١) ٦/٥ - ٧.
(١١٢) انظر *جامع البيان في تفسير آي القرآن* ١٨٧/٦؛ *تاريخ* الطبري ١١٣/٥.
(١١٣) *تاريخ* ٢٥/٥، ٤٤، ٦٦.
(١١٤) انظر *أنساب* ق ٤، ج١، ص ١٧٦ - ١٧٧، ٢٤٥.
(١١٥) *الفصل* ١٦٥/١.

الأشعري، السبابية هم أتباع عبد الرحمن بن سبابة[١١٦]. أما المقدسي فيرى أن السبأية هي الطيارة، الفرقة التي تزعم أن علياً في السحاب، لم يمت[١١٧].

السبأية عند فلهاوزن هي الكيسانية[١١٨]. أما ماسينيون فيرى أن «السبأية في عصر المختار من فرق العينية»[١١٩].

إذن، لا يمكن اعتبار السبأية اسماً لفئة معينة، بل تسمية أطلقت على المعارضة دون تحديد عقائدي.

ابن سبأ: الهوية الضائعة

لا سبيل على الإطلاق لرسم صورة واقعية لهوية ابن سبأ، بالاعتماد على الروايات والأخبار، قديمها وحديثها. وهنا نستعرض باختصار «هويات» ابن سبأ في المصادر المختلفة:

فهو يهودي من أهل صنعاء، أمه سوداء، لذلك دعي بابن السوداء[١٢٠].

وهو يهودي من الحيرة[١٢١].

وهو يهودي عربي اسمه عبد الله بن وهب الهمداني[١٢٢]؛ أو عبد الله بن وهب الراسبي[١٢٣]؛ أو عبد الله بن وهب الراسبي الهمداني، وله مساعدان: عبد الله بن حرس وابن الأسود[١٢٤].

وهو عبد الله بن سبأ العجلي، الذي هو من قبيلة عجل العربية، المشهورة بغلا ا[١٢٥]. وهو همداني نفاه علي إلى المدائن[١٢٦]. وهو من قبيلة عربية سكنت الكوفة[١٢٧].

وهو يهودي دون تحديد لموطنه الأصلي[١٢٨] وهو يهودي فلاشي استمد من أرضيته الفلاشية مذهب «المسيح الآتي»[١٢٩]. وهو ليس يهودياً البتة[١٣٠].

---

(١١٦) الأشعري، *مقالات الإسلاميين* ١١١/١.
(١١٧) *البدء والتاريخ* ١٢٩/٥.
(١١٨) *الخوارج والشيعة* ١٦٨.
(١١٩) *Encyclopedia of Islam*
(١٢٠) انظر *تاريخ* الطبري ٤٥٩/٣؛ *E.O. Islam*؛ عبد الله فياض، *تاريخ الإمامية* ٩٣؛ أحمد عطية الله، *القاموس الإسلامي* ٢٢٢/٣؛ أحمد أمين، *فجر الإسلام* ٢٦٩.
(١٢١) محمد أبو زهرة، *تاريخ المذاهب الإسلامية* ٣٢/١؛ فريد وجدي، *دائرة المعارف* ١٧/٥.
(١٢٢) البلاذري، *أنساب* ٣٨٢/٢.
(١٢٣) *الإمامة والسياسة* ١٣٣/١.
(١٢٤) سعد الأشعري، المقالات والفرق ٢٠.
(١٢٥) الشعراني الصوفي، *مقدمة نافعة للخوض في العقائد*، مخطوط ٢.
(١٢٦) رأي ماسينيون: انظر: بدوي، *شخصيات قلقة* ٢٤.
(١٢٧) *الدولة العربية وسقوطها*.
(١٢٨) النوبختي، *فرق الشيعة* ١٦.
(١٢٩) انظر: M. Eliade, *E. of Religion*; *E.O. Islam*.
(١٣٠) Levi Della Vida. R٣٠. ١١١،٩١٢،٤٩٥.

ابن سبأ هو ابن السوداء بن حرب بن وهب[١٣١]. وابن سبأ هو ابن السوداء فحسب[١٣٢]. وابن سبأ شخص غير ابن السوداء[١٣٣].

متى ظهر.. وأين..؟

ابن سبأ رجل «أسلم زمن عثمان» دون تاريخ محدد[١٣٤]. وحرض الناس عليه، «على أساس المطالبة بحقوق علي»[١٣٥]. وهو يظهر على عهد عثمان، عام ٣٠هـ، ويختفي بعد معركة الجمل، عام ٣٦هـ[١٣٦]. وهو يظهر أيضاً عام ٣٣هـ[١٣٧].

يظهر ابن سبأ زمن خلافة علي[١٣٨]، في الكوفة[١٣٩]. وهو يظهر أيضاً في الكوفة قبيل مقتل علي ثم يختفي وتنقطع أخباره بعد قتل علي[١٤٠].

ظهرت السبأية قبل مقتل عبد الله بن سبأ «بعد أن أحرق علي جماعة كانت تعبده»[١٤١]. ولا يعرف ماإذا كان الحرق لابن سبأ أم لأتباعه[١٤٢].

وظهرت السبأية أيضاً بعد مقتل علي[١٤٣].

وابن سبأ كان «ربما مؤسساً أو بطلاً لفرقة أو أكثر من تلك التي رفعت من مكانة علي الدينية... والشيعة تصوره أحياناً كأنموذج للغلاة الذين لعنهم جعفر»[١٤٤] الصادق. وقد ذكر بعضهم قصة إحراق أصحابه دون أن يسميهم بالسبأية[١٤٥].

تناقض العقائد:

السبأية، عند الطبري، تقول برجعة محمد؛ وعند أحمد أمين، برجعة محمد ثم علي، وذلك بالإشارة إلى عقيدة اليهود بعودة النبي إلياس (إيليا هو النبي أو الخضر)، مضيفاً إلى تعاليم ابن سبأ اليهودية أخرى مزدكية.

---

(١٣١) *E.O. Islam* ١/٥٥.

(١٣٢) الشهرستاني، *الملل والنحل* ١٧٤/١. ابن حزم، ٣٢٥/١.

(١٣٣) انظر: البغدادي، *الفرق بين الفرق*؛ الاسفراييني، *التبصر في الدين*.

(١٣٤) انظر: *تاريخ* الطبري، *العبر* لابن خلدون.

(١٣٥) *E.O. Islam* ١/٥١.

(١٣٦) القاضي عبد الجبار، *تثبيت دلائل النبوة* ٥٤٥/٢ - ٥٤٦.

(١٣٧) انظر: الطبري.

(١٣٨) النوبختي، *فرق الشيعة*، ١٦؛ السيوطي، *الوسائل* ١٣٥.

(١٣٩) *Encylopedia of Religion* ٥/٥٧٥.

(١٤٠) انظر: الأشعري، *مقالات الإسلاميين* ٨٦/١ - ٨٨؛ المقدسي، *البدء والتاريخ* ١٢٥/٥ - ١٢٦؛ البغدادي، *الفرق بين الفرق* ٢١، ٢٣٣ - ٢٣٥؛ الاسفراييني، *التبصير* ١٠٨ - ١٠٩؛ ابن حزم، *الفصل* ٣٢٥/١، ٤٦/٥؛ الشهرستاني، *الملل والنحل* ١٧٤/١؛ السمعاني، *كتاب الأنساب* ٢٤/٧؛ الهمذاني، *تثبيت دلائل النبوة* ٢٤٩/٢؛ ابن عبد ربه، *العقد الفريد* ٢٨١/٢ - ٢٩١.

(١٤١) *شرح النهج* ٣٠٩/٢.

(١٤٢) *E.O. Islam*

(١٤٣) الأشعري، *المقالات والفرق*، ٢٠٩.

(١٤٤) *E.O. Islam*

(١٤٥) البلاذري، *أنساب* ١٦٦/٢؛ الذهبي، *سير* ٣٤٦/٣؛ المفيد محمد بن النعمان، *كتاب شرح عقائد الصدق* ٦٣.

يتفق أحمد عطية الله وموسوعة الإسلام، النسخة الانجليزية، مع الطبري في الإشارة إلى رجعة علي عند السبأية، لكن الأول يضيف إلى تعاليمهم اليهودية أخرى فارسية(١٤٦). لكن ثمة من يقول، «إن آمال الرجعة المسيحية عند ابن سبأ، لا يمكن فهمها إلا على ضوء الأساس الفلاشي»(١٤٧).

تذكر مصادر كثيرة عن السبأية، قولهم، إن علياً لم يمت، بل رفع إلى السماء(١٤٨). ويقول فريدلاندر في ذلك: «إن دور ابن سبأ الرئيس ليس إعلان ألوهة علي، بل إنكار موته، وذلك بقوله إنه مات ظاهرياً (تشبيه) وإنه سيعود من السماء ثانية (مسيانية) - وربما قام هذا على أساس يهودي يمني مرتبط مع فلاشية أثيوبية»(١٤٩).

لكن الشهرستاني وأحمد عطية الله يقولان إن ابن سبأ اعتبر في علي جزءاً من الله، الذي أعطاه معرفة الغيب؛ ويقول الشهرستاني بأن ابن سبأ اعتقد بتناسخ هذا الجزء الإلهي في الأئمة بعد علي. وعلي بالتالي إله ارتفع إلى الغيوم والرعد صوته(١٥٠) الجلي. من ناحية أخرى، يقول إن ابن سبأ اعتبر نفسه نبياً للإله علي(١٥١). لكن فريد وجدي يعتبر ألوهة علي تدريجية، بدأت بإعلان النبوة، وانتهت بالتأليه(١٥٢).

علي، أخيراً، برأي ابن سبأ «وريث (أو وصي) محمد الذي اختاره الله، مثلما هو يشوع (بن نون) بالنسبة لموسى»(١٥٣).

آراء في ابن سبأ

١ - طه حسين:

ينفي طه حسين، في «علي وبنوه» وجود ابن سبأ، بالاعتماد على الحقائق التالية:

١ - سيف التميمي راوية مشهود له بالكذب.

٢ - معجزات ابن سبأ تتطلب كائناً خارقاً ومسلمين بلهاء عاجزين عن أية مبادرة ذاتية.

٣ - سكوت عثمان عن ابن سبأ، أمر متناقض لا سبيل إلى فهمه.

٤ - لا يوجد دليل تاريخي مرموق أوحد يشير إلى أن علياً أحرق جماعة كانت تؤلهه.

---

(١٤٦) ذكرت أعمالهم سابقاً.

(١٤٧) M. Eliade, *Encyclopedia of Religion* ٥/٥٧٥.

(١٤٨) انظر: *عبر* ابن خلدون ٣٥١/١؛ *بيان وتبيين* الجاحظ ٨١/٣؛ *تاريخ بغداد* ٤٧٦/٨؛ الجرجاني، *التعريفات* ٧٩؛ أسامة بن منقذ، *كتاب العصا* ٣٨٦؛ *الأشعري* ٨٦/١.

(١٤٩) *E.O. Islam* ١/٥٥

(١٥٠) *Ibid.*

(١٥١) انظر كتابه: *الخلاصة*.

(١٥٢) *دائرة معارف القرن العشرين* ١٧/٥.

(١٥٣) *Encyclopedia of Islam* ١/٥٥.

٥ - لا يمكن أن يكون علي وأصحابه من الغفلة بحيث يدبر ابن سبأ المكيدة في معسكرهم وهم لا يشعرون. لكن الحقيقة أن الطرفين التقيا في البصرة قبل «الجمل»، فتناظروا، فلم تغنِ عنهم المناظرة شيئاً، فكانت الحرب.

٦ - اختفاء أثر ابن سبأ في «صفين» حيث الجو ملائم جداً لخلق الفتن، خاصة حين اختلف أصحاب علي في مسألة التحكيم.

٢ - جواد علي:

١ - يرفض جواد علي تصديق قصة ابن سبأ لكنه لا يكذ ا.

٢ - يرفض بالكامل قصة ابن سبأ مع أبي ذر.

٣ - يجد تناقضاً واضحاً في صورة هذا اليهودي الذي أظهر إسلامه، والذي ينصاع إليه شيوخ المسلمين، بتلك الطريقة التي تقدمها لنا الأخبار والسير.

٤ - يفسر السبأية أولاً، على أ م جماعة من أهل اليمن، اختلقوا لهم مؤسساً من أب سبئي وأم سوداء(١٥٤). ثم يعرفها كحركة اجتماعية ذات اتجاه اشتراكي، تحاملت على عثمان لتساهله مع أقاربه(١٥٥).

٣ - كامل الشيبي:

في «الصلة بين التصوف والتشيع»، ينفي كامل الشيبي أي وجود لابن سبأ، ويعتبر أنه عمار بن ياسر، وذلك بالاعتماد على مايلي:

١ - كان عمار يدعى بابن السوداء.

٢ - عمار يماني، وكل يماني كان يسمى بابن سبأ.

٣ - كان عمار، كابن سبأ، من مناصري علي.

٤ - كابن سبأ، كان عمار في مصر، يشغب على عثمان.

٥ - كابن سبأ أيضاً، منع عمار الصلح يوم الجمل.

٦ - كان لعمار أخ يدعى عبد الله؛ وابن سبأ يدعى عبد الله.

٧ - كابن سبأ أيضاً، كان لعمار علاقة بأبي ذر، مناصر علي الآخر.

---

(١٥٤) *مجلة الرسالة*، عدد ٧٧٥ ص٥٢٥.

(١٥٥) *مجلة / مع العلمي العراقي* ٥: ٩٠.

وهكذا كانت ثمة مناقشة مطولة لحكاية عبد الله بن سبأ، الشخص الخرافي الذي يحمله المؤرخون وزر حرب الجمل، وما أرفقها من مآسي. وقد هدفنا من تلك المناقشة إلى غرضين:

أولاً: إن نفي وجود عبد الله بن سبأ، اليهودي «الفرد» الذي يعتبر سبب حرب الجمل، التي أدت، ضمن أشياء أخرى، إلى مقتل كثير من الصحابة والتابعين، هو رفض كامل لأسطورة العقلية اليهودية القادرة على فعل كل شيء، والتي يحاول بعض المؤرخين ترسيخها في اللاوعي الشعبي. وإذا كان فرد يهودي أوحد أوصل العرب المسلمين إلى وضع كارثي من الصراع الداخلي؛ في زمن صحابة الرسول ويفصلنا عن خير القرون خمسة عشر قرناً. فما بالكم الآن ونحن نجاور خمسة ملايين يهودي؟

ثانياً: إن مناقشة أسطورة ابن سبأ تظهر بوضوح أسلوب تناول معظم كتابنا للحدث التاريخي. فهم على استعداد أن يجعلوا من الخرافات حقائق تسير على ساقين إذا كان ذلك يخدم أهدافهم الذاتية ويثبت قناعا م النفسية؛ وعلى استعداد أيضاً لطمس أوضح الحقائق وأرسخها إذا ما تعارضت مع أهدافهم الذاتية وقناعا م النفسية. فما يلفت النظر فعلاً عند غالبية كتابنا، هو تلميعهم لأسطورة ابن سبأ لتحميله وزر «الجمل» في حين يلقون بظلال نسيان قائمة على شخصيات يهودية فعلية، لعبت أدواراً مريبة «هامة» في تاريخنا، وذلك حتى لا يخلقوا في الوعي الشعبي، وفي وعيهم هم أنفسهم، شعور الشك المزعج، الذي سيقود حتماً إلى بداية التفكير.

من أبرز الشخصيات اليهودية «الفعلية» في التاريخ العربي، كعب الأحبار وموسى بن ميمون؛ فمن هما هذان الرجلان، وماذا كان دور كل منهما في زمنه، ولماذا لا تسلّط عليهما تلك الأضواء المسلّطة على الشخص الأسطوري، «ابن سبأ»؟

كعب الأحبار

مايزال هنالك كتاب إسلاميون يؤكدون حتى الآن أن كعب الأحبار كان مسلماً؛ لكن قبل أن نعالج هذه المسألة، سنحاول معرفة ماذا يقول الاسرائيليون الحاليون عن كعب.

تقول «الموسوعة اليهودية - النسخة الانجليزية»، عن كعب الأحبار: «إنه من جنوب جزيرة العرب والذي عاش زمن عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني (٦٣٤ - ٦٤٤م)، وعثمان بن عفان، الخليفة الثالث (٦٤٤ - ٦٥٦م). كان كعب ينحدر على الأرجح من الحميريين المتهودين. تحول إلى الإسلام أثناء حكم عمر. تشير صفة الأحبار (جمع حبر = عالم ديني يهودي غير مسلم) إلى أنه كان مصَنفاً بين العلماء. وبالفعل، فأقوال عديدة للحاخامين وكلمات من الأغاداه (الأدب الديني اليهودي غير التشريعي، مقابل الهالاخا التشريعية) مذكورة باسمه في الأدب الاسلامي، الأمر الذي

نستنتج منه أنه كان يعرف الشرع الشفوي (التلمود). كان كعب أحد أتباع عمر حين دخل الأخير القدس، وبناء على طلبه، حدد له المكان الذي كان الهيكل قائماً عليه. وبحسب التقاليد، فقد حاول المسيحيون إخفاءه عن الفاتحين. وحين تم الكشف عن هذا الموقع، حاول كعب حث عمر على بناء المسجد (مسجد عمر) شمال الصخرة، بحيث تحول القبلة إليها بدلاً عن مكة. لكن عمر رفض هذا الاقتراح، معتبراً أنه موحى بميول يهودية. ثم وبخ كعب بقسوة وجعل قبلة المسجد في مقدمة جبل الهيكل (جنوب الصخرة). وينسب الجغرافي الهمذاني إلى كعب قولاً يشهد على توقيره للصخرة: «قال الله للصخرة: أنتِ عرشي ومنك صعدت إلى السماء...». وبحسب الطبري وابن الأثير، ظل كعب مع عمر حتى قتل. وقد حذر عمر قبل الهجوم عليه بأيام من أنه سيموت قريباً. كان كعب حاضراً في بلاط الخليفة الثالث. وهنالك كانت له بعض المشاحنات مع مسلم تقي، هو أبو ذر. يقول البلاذري: «إن عثمان سأل كعباً ما إذا كان يسمح للحاكم بأن يأخذ نقوداً من بيت مال المسلمين إذا كان بحاجة لذلك على أن يردها فيما بعد. ولم يجد كعب غضاضة في هذا العمل. فقال له أبو ذر عندئذ: أتعلمنا يابن اليهود؟».

روى الطبري والمسعودي حوادث مشا ة. وهذه الحوادث (إضافة إلى القصة المذكورة آنفاً حول القبلة) تظهر أن موقف المؤرخين من كعب لم يكن متجانساً. ينظر إليه كأنموذج بدئي «للإنتهازية اليهودية»[1] .

أما «موسوعة الاسلام، النسخة الانجليزية»، فتقول إن كعب الأحبار «جاء إلى المدينة أثناء خلافة عمر بن الخطاب، ثم رافقه إلى القدس عام ٦٣٦م (الطبري ٢٤٠٨/١). وبعد تحوله (إلى الإسلام) صار على علاقة وطيدة بالخليفة، حيث تنبأ له بموته قبل ثلاثة أيام.

حاول معاوية جذبه إلى دمشق ليكون مستشاراً له، لكن يبدو أنه انسحب إلى حمص حيث مات (طبري ٢٤٧٣/٣).

ا م عمر كعباً بالتهود حين تعامل مع جبل الهيكل في القدس كمكان مقدس (طبري ٢٤٠٨/١ - ٢٤٠٩)»[2] .

ذلك ماقاله الإسرائيليون والمستشرقون المعاصرون عن كعب الأحبار: فما الذي يقوله الكتاب العرب المسلمون المعاصرون عنه؟

يقول أحمد أمين، على سبيل المثال: «كعب الأحبار، أو كعب بن ماتع، يهودي من اليمن، ومن أكبر من تسربت منهم أخبار اليهود إلى المدينة ثم إلى الشام، وقد أخذها عنه إثنان، هما أكبر من نشر

---

(١) *E. Judaeca* ١٠/٤٨٨.

(٢) *E. of Islam*

علمه: ابن عباس - وهذا يعلل مافي تفسيره من اسرائيليات - وأبو هريرة... كل تعاليمه كانت شفوية، وما نقل عنه يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية وأساطيرها. جاء في الطبقات الكبرى (٧:٧٩) حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبد الله بن عبد القيس جالساً إلى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ. وقد لاحظ بعض الباحثين أن بعض الثقاة كابن قتيبة والنووي لا يروي عنه أبداً... ويروي ابن جرير أنه جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام، وقال له: اعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام.

قال: وما يدريك؟

قال: أجده في كتاب الله عز وجل في التوراة.

قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟!

قال: اللهم لا، ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك وهذه القصة، إن صحت، دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها هو في هذه الصيغة الإسرائيلية»[٣].

كعب الأحبار عند المؤرخين المسلمين:

سوف نتوقف هنا عند حدثين هامين في حياة كعب الأحبار الاسلامية: تصرفاته في القدس بعدما فتحها العرب، ودوره في مقتل عمر. ثم نحلل الحدثين، ونطرح بعض الأسئلة.

روى الطبري أن عمر بن الخطاب، حين دخل القدس، قال أحد اليهود: «أتاك الفاروق[٤] في جندي المطيع، ويدركون لأهلك بثأرك من الروم»[٥].

ويكمل الطبري: «لما شخص عمر إلى إيلياء (القدس)، فدنا من باب المسجد، فقال: ارقبوا لي كعباً!

فلما انفرق به الباب، قال: لبيك اللهم لبيك، بما هو أحب إليك!

ثم قصد المحراب، محراب داود عليه السلام، وذلك ليلاً، فصلى فيه، ولم يلبث أن طلع الفجر، فأمر المؤذن بالإقامة، فتقدم وصلى بالناس، وقرأ م «ص»، وسجد فيها، ثم قام، وقرأ م في الثانية صدر «بني إسرائيل» (الاسراء)، ثم ركع ثم انصرف، فقال: علي بكعب.

فأُتي به، فقال (عمر): اين ترى أن نجعل المصلى؟

---

(٣) *فجر الإسلام* ١٦٠ - ١٦١

(٤) إن لقب الفاروق الذي اشتهر به عمر، يثير اشكالات عديدة: فمن أطلق عليه هذا اللقب، وماذا يعني أصلاً؟ إن سياق النص السابق، يظهر دون لبس، أن يهوديين على الأقل، قالا حين دخل عمر القدس: «أتاك الفاروق في جندي المطيع؛ ابشري أوري شلم! أتاك الفاروق ينقيك مما فيك». ويخبرنا ابن كثير أن لقب الفاروق، برأي عائشة، أطلقه النبي على عمر؛ لكنه يضيف، «بل سماه أهل الكتاب» (*الكامل* ٥٣/٣)؛ ويورد الطبري (*تاريخ* ١٩٥/٤ - ١٩٦) رواية عائشة المذكورة آنفاً، لكنه يقول، «إن أهل الكتاب كانوا أول من قال لعمر: الفاروق. وكان المسلمون يأثرون ذلك من قولهم ولم يبلغنا أن رسول الله (ص) ذكر من ذلك شيئاً». مع ذلك، فكثير من المصادر المعاصرة تغفل تماماً الرواية الثانية، وتركز على رواية عائشة فحسب. لكننا نتساءل: كيف عرف ذلك اليهودي الذي دخل عمر مدينته، أن لقب هذا الفاتح هو «الفاروق»؟ وأين - ومتى - سمى النبي عمر بالفاروق، «كمفرق» بين الكفر والإيمان؟ إن «فاروق» بالعبرية، من (فارق)، وتعني: «حرر، خلص، أنقذ، أعتق»، واليهود، كما رأينا اعتبروا عمر «محرر القدس ومعتقها ومنقذها».

(٥) *الطبري* ٦١٢/٣.

فقال: إلى الصخرة!

فقال: ضاهيت والله اليهودية ياكعب، وقد رأيتك وخلعك نعليك!

فقال: أحببت أن أباشره بقدمي.

فقال: قد رأيتك، بل نجعل قبلته صدره، كما جعل رسول الله (ص) قبلة مساجدنا صدورها، إذهب إليك، فإننا لم نؤمر بالصخرة، ولكن بالكعبة»[٦].

يعرض ابن كثير الموضوع ذاته بإضافات أخرى، فيقول: «إن عمر حين دخل بيت المقدس سأل كعب الأحبار عن مكان الصخرة، فقال: ياأمير المؤمنين؛ أذرع من وادي جهنم كذا وكذا ذراعاً فهي ثم.

فذرعوا فوجدوها وقد اتخذها النصارى مزبلة، والغرض أ م اتخذوا مكان قبلة اليهود مزبلة. استشار عمر كعباً أين يضع المسجد، فأشار عليه بأن يجعله وراء الصخرة، فضربه في صدره، وقال: ياابن أم كعب، ضارعت اليهود!

وأمر ببنائه في مقدم بيت القدس»[٧].

يكمل الطبري، فيقول: «ثم قام (عمر) من مصلاه إلى كناسة قد كانت الروم قد دفنت ا بيت المقدس في زمان بني إسرائيل؛ فلما سار إليهم أبرزوا بعضها، وتركوا سائرها، وقال: ياأيها الناس! اصنعوا كما أصنع!

وجثا في أصلها (...) فسمع التكبير خلفه، وكان يكره سوء الرعة في كل شيء، فقال: ماهذا؟

فقال (بعضهم): كبر كعب وكبر الناس بتكبيره!

فقال: علي به!

فأُتي به، فقال (كعب): ياأمير المؤمنين، إنه قد تنبأ على ماصنعت الروم نبي منذ خمسمئة سنة!

فقال (عمر): وكيف؟

فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأديلوا عليهم، فدفنوه، ثم أديلوا عليهم، فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس فبغوا على بني اسرائيل، ثم أديلوا الروم عليهم إلى أن وليت، فبعث الله نبياً على الكناسة، فقال: أبشري أوري شلم (القدس)! عليك الفاروق ينقيك مما فيك؛ وبعث إلى القسطنطينية نبي، فقال: ياقسطنطينية! مافعل أهلك ببيتي! أخربوه وشبهوك كعرشي! وتأولوا علي! فقد قضيت أن أجعلك جلحاء (خالية من الشجر) يوماً ما، لا يأتي إليك أحد»[٨].

---

(٦) *تاريخ* الطبري ٦١١/٣.

(٧) *تاريخ* الطبري ٦١٢/٣.

(٨) *تاريخ* الطبري ٦١٢/٣.

المناقشة:

١ - لم يشارك كعب الأحبار في أي من معارك المسلمين، سوى ذهابه مع عمر بن الخطاب، لتسلم القدس «سلمياً».

٢ - شك عمر الدائم بكعب الأحبار، باعتباره يهودياً.

الطلب بمراقبة كعب بعد دخول القدس.

قوله لكعب: ضاهيت اليهودية.

قوله له أيضاً: خلعت النعل، وهي عادة يهودية عند دخول مكان مقدس عندهم.

٣ - اكتفاء عمر بن الخطاب، وهو المعروف بالصرامة وبدرته الشهيرة، بتعنيف كعب شفوياً، رغم محاولة الأخير تغيير قبلة المسلمين إلى القدس - هيكل سليمان.

٤ - تكبير كعب حين نظف عمر مكان الهيكل، وكان المسيحيون في القدس قد حولوه إلى مزبلة.

٥ - رغم شك عمر الواضح في تصرفات كعب اليهودية التي لا لبس فيها، فهو اختار أن يسأله عن موضع الصخرة «ويستشيره» في شأن بناء المسجد، مسجد عمر.

هنا لابد من السؤال: كيف استطاع كعب أن يكون له هذا الدور في عهد عمر، وهو الرجل الأقوى في زمانه؟

لقد استطاع كعب، بذكائه الحاد وثقافته اليهودية العميقة، أن يلبي غرور عمر عن طريق اختلاق أحاديث عن أنبياء يهود تنبأوا بأن «الفاروق سينقي أوري شلم مما هو فيها». لكن كل من له معرفة كافية بالشرعين اليهوديين، المكتوب والشفوي، تنفي تماماً حكايا كعب المختلفة تلك.

مثلاً: إرسال نبي إلى القدس ليخبرها بمجيء عمر!

تنبؤ نبي على ماصنعت الروم قبل خمسمئة سنة من وصول عمر إلى القدس!

إرسال نبي إلى القسطنطينية، ينذرها بأن الله سيجعلها جلحاء، الأمر الذي لم يحدث حتى الآن.

لقد استغل كعب جهل العرب بثقافات الآخرين - وكنا قد أشرنا إلى مافعله عمر ببعض مكتبات زمانه - فكان يختلق من الأخبار والأحاديث، وينسبها إلى كتب اليهود المقدسة، دون أدنى دليل - وكانوا يصدقونه، لأنه لا يوجد فيهم من اطلع، أو بشكل أدق، سمح له بالاطلاع، على تلك الكتب.

والغريب أن يهود الزمن الحالي، استغلوا هذا الجهل العربي الموروث، في واحدة من أهم حرو م ضد العرب: «العرب لا يقرأون» - هكذا قال بثقة سياسي اسرائيلي راحل.

لابد أن نذكر أخيراً، أن ألد أعداء اليهود، كانوا: الرومان والفرس[٩] ، ومعروف أن عمر بن الخطاب، الذي ارتبط بكعب بعلاقة «استشارية»، هز عرشي هاتين الإمبراطوريتين: فهل يمكن أن نربط بين المسألتين، خاصة وأن الكثير من خفايا التاريخ الإسلامي ماتزال غامضة؟ ولماذا قرأ عمر في صلاته مقاطع من سورتي (ص) و(الإسراء) في بيت المقدس، على وجه التحديد؟

من قتل عمر بن الخطاب؟

من المتعارف عليه عموماً أن قاتل عمر هو أبو لؤلؤة ا وسي. لكن كبار المؤرخين الإسلاميين أخبرونا أن كعب الأحبار جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام، وقال له: إعهد فإنك ميت في ثلاثة أيام؛ أو: قد فني أجلك!

وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً. فقال عمر: وما يدريك؟

قال: أجده في كتاب الله عز وجل في التوراة!

قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟!

قال: اللهم لا! ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فني أجلك!

فلما كان من الغد، جاءه كعب، فقال: يا أمير المؤمنين! ذهب يوم وبقي يومان!

ثم جاءه من غد الغد، فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة؛ وهي لك إلى صبيحتها!

فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة؛ وكان يوكل بالصفوف رجالاً؛ فلما استوت جاء فكبر. ودخل أبو لؤلؤة في الناس، في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات، إحداهن تحت سرته، وهي التي قتلته.

وقال عمر قبيل وفاته:

توعدني كعب ثلاثاً أعدها ولاشك أن القول ماقال لي

المناقشة:

١ - قال الكاتب أحمد أمين، إن كعباً كان يقف «على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها في هذه الصيغة الإسرائيلية»[١١] . لكن يبدو أن كعباً رتب المؤامرة بكاملها، بعدما انتهى عمر من تحرير فلسطين ومحيطها من الروم.

٢ - عودة كعب هنا ايضاً إلى إرضاء غرور عمر، بقوله إنه موجود في «كتاب الله» التوراة؛ وتعجب - أو إعجاب - عمر من ذلك.

---

(٩) انظر: *التلمود البابلي*، ترجمة نبيل فياض، الفصل الأول.

(١٠) انظر: *تاريخ* الطبري ط سويدان ١٩١/٤؛ *كامل* ابن الأثير ٥٠/٣؛ *طبقات* ابن سعد ٣٣١/٣؛ *تاريخ الخلفاء* للسيوطي؛ *ابن كثير* ٥١/٣.

(١١) *فجر الاسلام* ١٦١.

٣ - ثقة كعب المطلقة بذاته وبسعة نفوذه، بحيث يأتي إلى عمر يومياً ليؤكد له موعد قتله.
٤ - اختيار عمر «اللامبالاة» أمام ديدات كعب، رغم أن أخباراً كثيرة أكدت شكوك عمر الدائمة بنوايا كعب.
٥ - الغريب أن يخرج كعب من مأساة قتل عمر كالشعرة من العجين؛ لكن الأغرب أن يكون «حاضراً» في بلاط عثمان، خاصة وأن الجميع كانوا يعرفون حكايته في مقتل عمر: فهل يمكن أن يساعدنا ذلك في فهم جو الفوضى الذي عم أثناء خلافة عثمان بن عفان؟!

موسى بن ميمون

يقول ابن أبي أصيبعة (١٢٠٣ - ١٢٦٩م). في كتابه الشهير «طبقات الأطباء»، عن موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤م): «الرئيس أبو عمران موسى بن ميمون القرطبي، يهودي، عالم بين اليهود، ويعد من أحبارهم وفضلائهم، وكان رئيساً عليهم في الديار المصرية... وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين (الأيوبي) يرى له ويستطبه، وكذلك ولده الملك الأفضل علي. وقيل أن الرئيس موسى قد أسلم في المغرب وحفظ القرآن و«اشتغل بالفقه» (!!!) ثم إنه لما توجه إلى الديار المصرية ارتد!»[١٢].

تكمن أهمية الرواية السابقة في صدورها عن ابن أبي أصيبعة، الطبيب الذي تعلّم الطب في المارستان الناصري في القاهرة[١٣] ! والذي كان صديقاً لابراهيم بن موسى بن ميمون، الذي كان بدوره في خدمة الملك العادل[١٤].

من هو ابن ميمون؟

«مابعد موسى غير موسى»!

مثل يهودي

تقول «الموسوعة اليهودية، النسخة الانجليزية»، عن موسى بن ميمون: «أشهر شخصية يهودية في الحقبة المابعد تلمودية، وواحد من أعظم الشخصيات اليهودية على الإطلاق؛ ولد ابن ميمون في قرطبة بإسبانيا، لأب هو ديان قرطبة (ديان: قاض ديني يهودي) ، وهو أيضاً عالم شهير...

نتيجة لسقوط قرطبة بأيدي الموحدين في أيار أو حزيران عام ١١٤٨م، وكان موسى قد بلغ لتوه عامه الثالث عشر، انتشر الاضطهاد الديني، الأمر الذي اضطر ميمون (والد موسى) لمغادرة قرطبة برفقة عائلته وضاع أثرهم (...) حتى عام ١١٦٠م حين استقروا في فاس. مع ذلك، فخلال سنوات التيه تلك، والتي يصفها ابن ميمون ذاته بأ ا حقبة «كان فيها عقلي متعباً، وسط نفي مقدر

(١٢) *طبقات الأطباء* ٥٨٢.
(١٣) *المنجد* ٥٠
(١٤) *طبقات الأطباء* ٥٨٣.

من الله، في رحلات وتقاذفات فوق عواصف البحر» (اية تفسير المشنا)، وضع أسس علومه الواسعة المتنوعة بل حتى عمله الأدبي أيضاً. فعام ١١٥٨م، لم يبدأ مسودة «السراج» وتفسيره الهام للمشنا (أحد جزئي التلمود) فقط، بل كتب في السنة ذا ا، بناء على طلب أحد أصدقائه، مقالة في التقويم اليهودي، وأخرى في المنطق، كما أكمل كتابة ملاحظاته حول تفسير عدد من رسائل التلمود البابلي، إضافة إلى عمل كان هدفه استخلاص الهالاخا (القسم التشريعي) من التلمود الاورشليمي. وبحسب مصادر اسلامية فإن العائلة تحولت إلى الاسلام رسمياً في مكان ما في الفترة مابين عامي ١١٥٠ و١١٦٠م. لكن سعاديا بن ديان، يقول: إن المسلمين يقولون الشيء ذاته عن عدد من علماء اليهود، مثل دوناش بن تميم، حسداي بن حسداي، وغيرهما!

على أية حال، عام ١١٦٠م، كان ميمون وابناه، موسى وداود، وابنته، في فاس. فقد غير عبد المؤمن، الحاكم الموحدي، موقفه من اليهود، عندما تقدمت به السن؛ فصار أكثر اعتدالاً حيال أولئك الذين يعيشون وسط المغرب، الذي كان جزءاً من مملكته. لهذا السبب ربما ارتأى ميمون عام ١١٥٩م أو بداية عام ١١٦٠م أن فكرة الهجرة إلى فاس مع أسرته جديرة بالاعتبار. لقد سكن ابن ميمون فاس حين كان يستوطن فيها الحاخام يهودا هاكوهين بن شوشان، الذي وصلت شهرته بالعلم والتقوى إلى اسبانيا، وكان ابن ميمون آنذاك في الخامسة والعشرين من العمر، فدرس على يديه. كان عدد من اليهود قد تحولوا إلى الاسلام ظاهرياً عندئذ وكانت ضمائرهم تعذ م، الأمر الذي حض ميمون على كتابة عمله «رسالة التعزية»[١٥] الذي أكد لهم فيه أن من يؤدي صلواته وان بأقصر صيغة ويقوم بأعمال صالحة يظل يهودياً (حمداه غنوزاه ٧٤ - ٨٢). أثناء ذلك، كان ابنه يعمل في تفسيره للمشنا، كما واصل أيضاً دراساته العامة، خاصة للطب؛ وهو في عمله الطبي يشير دائماً إلى ماحصل عليه من مسلمي شمال افريقيا من معارف وتجارب...

لا تشير رسائل الأب أو ابنه، وكذلك أقوال ابن ميمون بعد مغادرته مراكش، إلى اضطهادات أو اعتداءات دموية؛ لكن ابن ميمون في السطور الأولى من «رسالة في التبديل القسري للدين»، يستنكر بعنف إدانة المتحول عن دينه قسرياً من قبل «الحاخام المزيف الذي لم يختبر قط ماعانته جماعات يهودية عديدة من صنوف الاضطهاد»؛ وانتهى إلى القول انه على اليهودي أن يهاجر إذا ماأُجبر على انتهاك الشرع الإلهي: «عليه أن لا يبقى في دنيا ذلك الملك؛ وان يبقى في بيته حتى يهاجر». ويقول مرة أخرى، بإلحاح أشد: «عليه أن لا يبقى في منطقة التحول القسري بأي شكل؛ وكل من يبقى في مكان كهذا إنما يجدف على اسم الله وهو شرير كالآثم عن قصد؛ أما بالنسبة

---

(١٥) يقول ابن ميمون ذا الصدد: «إنه لم يطلب إليهم أن يؤدوا شعائر هذا الدين أداءً عملياً، بل كل ماكان يطلب إليهم هو أن يتلوا صيغة لا يؤمنون ا، وان المسلمين أنفسهم يعرفون أ م غير مخلصين في النطق ا، وإنما يفعلون ذلك ليخادعوا جماعة من المتعصبين».

.(*Letter to Consolation in* Yellin, ٤٠)

لأولئك الذين يضللون أنفسهم بالقول ا م سيبقون حتى يأتي المشيح (المسيح المنتظر) ويقودهم في حرب إلى القدس، فلا أعرف كيف سيطهرهم (المشيح) من وصمة عار تبديل الدين» (حمداه غنوزاه ١١ ب - ١٢آ).

عمل ميمون وأولاده وفق هذه النصيحة، مثل كثيرين غيرهم حتماً. ومن المفترض أن مغادرة ابن ميمون لبلد الموحدين حدثت عام ١١٦٥م، وهي مغادرة، كما يقول سعاديا بن ديان (سدير هادوروت في حمداه غنوزاه، ٣ب)، حرض عليها استشهاد يهودا بن شوشان، الذي دعي إلى التخلي عن ديانته، ففضل الموت على الارتداد. وهرب ميمون وعائلته.. إلى عكّا(١٦)... حيث أقاموا نحو ستة أشهر، أقاموا خلالها صداقة حميمة مع الديان يافث بن علي... وزاروا معه القدس. وعن ذلك، يقول ابن ميمون: «دخلت البيت الكبير المقدس وصلّيت هناك يوم الخميس السادس من مار حشوان»(١٧)... غادرت العائلة فلسطين مبحرة إلى مصر. وبعد إقامة قصيرة في الاسكندرية، انتقلت الأسرة إلى القاهرة وأقامت في الفسطاط، بلدة القاهرة القديمة.

في تلك الفترة، مات ميمون، إما في فلسطين أو في مصر. وقد اقترح أن سبب اختيار الاسكندرية هو وجود «أكاديمية أرسطو، معلم الاسكندر»، «خارج البلدة» آنذاك، والتي «كان الناس يأتون إليها من كافة أرجاء العالم لدراسة حكمة أرسطو الفيلسوف». لكن دوافع الانتقال إلى القاهرة غير مؤكدة. مع ذلك، فقد كان أثر ابن ميمون كبيراً ومؤثراً للغاية في القضاء على سلطة القرائين المسيطرين آنذاك حتى أنه فاق في ذلك أثر كل حاخاميات القاهرة؛ وهو أمر فوق الشكوك؛ ففي القرن السابع عشر، قال ديان في مصر اسمه يعقوب فرجي، إن هذا التحدي هو الذي أجبر ابن ميمون على الانتقال إلى القاهرة.

كان ابن ميمون في السنوات الثمان الاولى خالياً من كل هم. فقد كان أخوه داود، تاجر الأحجار الكريمة، يتولى إعالته، فاستطاع بالتالي تكريس ذاته بالكامل لتحضير أعماله للنشر ولعمله الشاق المشرف، كقائد ديني وعلماني للطائفة. فأكمل تفسيره للمشنا، «السراج»، عام ١١٦٨م. لكنه أصيب بضربة عاصفة في السنة التي تلتها. فقد غرق أخوه داود في المحيط، حيث كان في رحلة عمل، تاركاً خلفه زوجة وطفلين؛ ولم تضع معه ثروة العائلة فحسب، بل أموال الآخرين أيضاً. كان وقع الصدمة سيئاً على ابن ميمون. فقد عانى من ا يار نحو سنة، ثم كان عليه أن يبحث عن مورد لعيشه. فقرر العمل في مجال الطب، رافضاً فكرة تحصيل عيشه من التوراة.

(١٦) وصل ابن ميمون إلى فلسطين وقت كانت مسرحاً للصليبيين، العنيفين وغير المضيافين، فلم يكن قادراً على التجذّر هناك.
انظر: M. Eliade, *E. of Religion* ٩/١٣١.

(١٧) الاسم الذي أُطلق على الشهر الثامن من السنة اليهودية في حقبة مابعد السبي، وهو يختصر عادة إلى حشوان. أما اسمه قبل السبي فهو «بول» (١ مل ٦:٣٨).

لم تأتِ شهرة ابن ميمون بسرعة، لكنها لم تبدأ بالذيوع، إلا بعدما تم تعيينه كواحد من أطباء الفاضل[١٨]، الذي عينه صلاح الدين وزيراً وكان حاكم مصر الفعلي بعد مغادرة صلاح الدين البلد عام ١١٧٤م... وحوالي عام ١١٧٧م، تم تعيينه رسمياً رئيساً للطائفة في الفسطاط...

كانت سنوات حياته في تلك الحقبة الأكثر عملاً وإثماراً. فقد تزوج في مصر من أخت ابن المالي، أحد مستشاري الملك، الذي تزوج بدوره من أخت ابن ميمون الوحيدة - كانت زوجة ابن ميمون الأولى قد ماتت صبية - وأنجبا ابناً واحداً هو ابراهيم، الذي كرس ذاته بكل حب لتعليمه... ورغم انشغاله بحمل عمله الثقيل واهتمامه بمسائل الطائفة، ومراسلاته الكثيرة إلى كافة أرجاء العالم اليهودي، فقد استطاع تدوين العملين الكبيرين اللذين قامت شهرته عليهما أساساً: المشنيه توراه (جمع عام ١١٨٠م) ودليل الحائرين (جمع عام ١١٨٥ وربما ١١٩٠).

وغالباً ماكان يجري الاستشهاد بالمقطع التالي من رسالته إلى مَترجمه («للدليل») (دليل الحائرين مكتوب أصلاً باللغة العربية)، صموئيل بن طيبون، التي يصف فيها واجباته وهمومه الكثيرة، بهدف إقناع ابن طيبون بالعدول عن زيارته[١٩]:

«إني أقيم في مصر (الفسطاط) والسلطان يقيم في القاهرة (القاهرة)؛ وهذان المكانان يبعدان عن بعضهما مسافة رحلة يوم سبت. إن واجباتي حيال السلطان ثقيلة جداً؛ فأنا مجبر على زيارته كل يوم؛ باكراً في الصباح؛ وحين يكون هو أو أحد أولاده، أو أي من حريمه، موعكاً، لا أجرؤ على مغادرة القاهرة، بل يجب أن أبقى جلّ يومي في القصر. وغالباً مايحدث أن يمرض واحد أو إثنان من موظفي الملك، ولابد أن أسهر على علاجهم. وهكذا يتضمن نظامي اليومي الذهاب إلى القاهرة في الصباح الباكر جداً، حتى لو لم يحدث أي شيء، ولا أعود إلى مصر حتى مابعد الظهر. وعندها أكون شبه ميت من الجوع... لأجد القاعات ملأى باليهود والأغراب، النبلاء والعامة، القضاة والحجاب، الأصدقاء والأعداء - خليط من الناس في انتظار عودتي.

نتيجة لذلك، لا يمكن لاسرائيلي أن يلتقي بي على انفراد، غير يوم السبت. ففي ذلك اليوم، تأتي إليّ الطائفة كلها، أو معظم أفرادها، بعد الخدمة الصباحية (في الكنيس)، حيث أعلّمهم واجباتهم خلال الاسبوع بطوله؛ فندرس سوية حتى مابعد الظهيرة، وعندها يغادرونني. لكن بعضهم يعود، ويظل يقرأ معي من بعد خدمة مابعد *الظهيرة* حتى صلاة المساء... بهذه الطريقة أمضي اليوم».

---

(١٨) يقول ول ديورانت: اختير طبيباً لنور الدين علي، أكبر أبناء صلاح الدين، والقاضي الفاضل البيساني، وزير صلاح الدين (*قصة الحضارة* ١٢١/١٤).

(١٩) يقول أيضاً في تلك الرسالة: أُخبرك أني أحرزت شهرة كبيرة في الطب بين كبار الناس، مثل قاضي القضاة، الأمراء... وغيرهم... وهذا مايجبرني على قضاء وقتي في القاهرة باستمرار أزور المرضى.
انظر: M. Eliade, *E. of Religion* ٩/١٣١.

بعكس سلاطين مصر السنة، كان حاكم اليمن شيعياً، وكان يمارس الاضطهاد الديني، فيعطي اليهود حرية الاختيار بين التحول إلى الإسلام أو الموت. ولم يؤد هذا إلى موت العديدين فحسب، بل لقد ظهر بين اليهود أيضاً مسيح دجال أو مبشر بقدوم المسيح، رأى في هذه الحوادث الظلام الدامس الذي يسبق الفجر، الذي يبشر بقرب مجيء العصر المسياني. فاستدار يهود اليمن بيأس إلى ابن ميمون، الذي استجاب لمطلبهم عام ١١٧٢م[٢٠] بالرسالة اليمنية. وكانت موجهة للحاخام نتانئيل الفيومي، والذي طُلب إليه إرسال نسخة عنها إلى كل الجماعات في اليمن.

كانت (الرسالة) محررة بعبارات بسيطة على نحو مقصود: «بحيث يمكن للرجال والنساء والأولاد قراء ا بسهولة»...

كانت آثار الرسالة هائلة. إلى درجة أن يهود اليمن أدخلوا صلاة «لأجل نفس معلمنا موسى بن ميمون» في القوديش، عرفاناً منهم بالجميل لرسالة الأمل؛ كذلك لابد من الإشارة إلى أن ابن ميمون استخدم نفوذه في البلاط لتخفيف الضرائب الثقيلة عن كاهل يهود اليمن.

مع إكمال «الدليل»، وصل عمل ابن ميمون الأدبي إلى ايته، ورغم صحته المتعبة ظل على رأس عمله كرئيس للطائفة اليهودية وكطبيب للبلاط، إضافة إلى مراسالاته الكثيرة...

مات ابن ميمون يوم ١٢٠٤/١١/١٣»[٢١] .

المناقشة:

في النص السابق، المأخوذ عن «الموسوعة اليهودية»، حقائق واضحة وحقائق بحاجة إلى توضيح أُخفيت بشكل مدروس:

١ - ابن ميمون، دون ريب، أكبر عقلية يهودية على مر العصور. إضافة إلى ثقافته الهامة جداً، خاصة في التلمودين، البابلي والأورشليمي - ثقافة تؤهل صاحبها للخوض في كل شيء.

٢ - عند ابن ميمون كراهية متأصلة لكل ماهو عربي مسلم. ونستدل على ذلك من رسالتيه: «في التبديل القسري للدين»، و«الرسالة اليمنية».

٣ - مايهم للغاية هو الفترة التي أمضاها ابن ميمون بين عامي ١١٥٠ و١١٦٠ والتي يعمل اليهود جاهدين على إحاطتها بالغموض. فقد قيل انه كان في إقليم البروفانس الفرنسي؛ حيث تبحر في العلوم الواسعة. لكن من المعروف أن ازدهار «القبالة» كان في تلك المنطقة، وفي ذلك الزمن تحديداً. وكان من أعلامها آنذاك: ابراهام بن دافيد، يعقوب الناصري، موسى النحمندي، وشلومو بن ابراهام ادريت[٢٢] . - ولابد أن ابن ميمون احتك ذا الفكر، ان لم يكن اعتنقه

---

(٢٠) يجب أن نلاحظ هنا، أن الأيوبيين دخلوا اليمن عام ١١٧٣، أي بعد وصول رسالة ابن ميمون إليها بأشهر. ولا نعرف بدقة دور اليهود في ذلك.

(٢١) *Encyclopeadia Judaica* ١١/٧٥٤ .

(٢٢) انظر ماكتبه موشيه اديل عن القبالة في *E. of Religiom*; Article: Qabbala .

فعلاً، لأن جلّ تصرفاته بعد ذلك، تبدي البصمة «القبالية». إضافة إلى أن أكبر ممثلي الاتجاه القبالي، وهو ابراهام أبو لافيه (١٢٤٠ - ١٢٩١م)، استند في أفكاره على نظام ابن ميمون الميتافيزيكي والسيكولوجي.

٤ - إن ترك ابن ميمون فلسطين رغم ارتباطه العاطفي بالمكان والتحريم الديني على الفرد اليهودي العودة إلى مصر - ليس بسبب الاضطهاد الديني كما زعم، لأن يهوداً كثيرين كانوا يعيشون هناك آنذاك، كالديان يافث بن علي مثلاً، ولأن ابن ميمون، كقبالي «أصيل» لن يكون صعباً عليه التأقلم مع أي جو، كما حصل في فاس الاسلامية، بما في ذلك الجو الصليبي - وليس لأن الاسكندرية كانت تضم «أكاديمية أرسطو»، كما زعمت «الموسوعة اليهودية»، فهو لم يلبث هناك إلا قليلاً: فقد وصل ابن ميمون إلى القاهرة عام ١١٦٧ أو ١١٦٨. هذا يعني أنه وصل إلى القاهرة في أكثر أيامها اضطراباً: الصليبيون في الخارج، وتدهور الحكم الفاطمي، الذي سقط عام ١١٧١، في الداخل. مما أدى إلى قيام الحكم الايوبي.

٥ - زواجه، في ظل حكم الأيوبيين الأكراد، من شقيقة ابن المالي، أحد مستشاري (!) السلطان - وهو مايلقي الضوء أكثر على دور اليهود في البلاط - وزواج ابن المالي، بدوره، من شقيقة ابن ميمون.

٦ - الرسالة اليمنية، التي لم تذكر «الموسوعة - اليهودية» كافة محتواها، تكشف رغم ذلك عن أشياء كثيرة:

- أرسل ابن ميمون رسالته إلى يهود اليمن عام ١١٧٢ واحتل الأكراد الأيوبيون اليمن عام ١١٧٣، وأسقطوا الحكم العربي فيها.
- استخدام ابن ميمون نفوذه في بلاط السلطان من أجل تخفيف الضرائب عن يهود اليمن - وقد نجح في ذلك: فما هو حجم نفوذ ابن ميمون في ذلك البلاط فعلاً؛ وماذا قدم يهود اليمن للسلطان مقابل معروفه إليهم؟

ابن ميمون وصلاح الدين:

ماذا كانت إذاً علاقة ابن ميمون بصلاح الدين؟

إن صلاح الدين الأيوبي، هو واحد من حكّام مسلمين نادرين، تحدثت عنهم «الموسوعة اليهودية» بامتداح مطنب، ملفت للنظر: «كان موقف صلاح الدين من اليهود، المسيحيين، بل حتى المسيحيين الذين عاشوا في ظل حكمه، شديد التسامح. وبحسب يهودا الحريزي[٢٣] ، فقد أصدر (صلاح الدين)، عام ١١٩٠م، مرسوماً دعا فيه اليهود إلى الاستيطان في القدس، وكان الصليبيون

(٢٣) يهودا بن سليمان الحريزي، مترجم وشاعر عبراني، ولد في إسبانيا، وزار الشرق، حيث أطلع الجاليات اليهودية هناك على الثقافة العبرية الإسبانية.

حظروا عليهم الاقامة فيها أثناء احتلالهم المدينة. وبالفعل، فإن الحاخام الحريزي، حين زار القدس عام ١٢١٦ (مات صلاح الدين عام ١١٩٣)، وجد فيها جماعة يهودية معتبرة مكونة من مهاجرين من فرنسا، المغرب، وسكان عسقلون السابقين»[٢٤]. - فما هو دور ابن ميمون في هذا المرسوم السلطاني؟

كان لشهرة ابن ميمون الطبية الدور الأبرز في لفت أنظار البلاط إليه، والتي «أتاحت له أن يجمع بين رعاية السلطان صلاح الدين ورعاية نخبة ا تمع القاهري»[٢٥] . وهكذا «استخدم ابن ميمون نفوذه في بلاط السلطان لحماية يهود مصر، ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد»[٢٦] ، «وابتناء كنس[٢٧] ومدارس»[٢٨] .

كانت مكانة ابن ميمون رفيعة جداً عند صلاح الدين: «فعام ١١٨٧، أفهم أحد قضاة المسلمين صلاح الدين أن ابن ميمون مرتد عن الاسلام، وطالب ان توقع عليه عقوبة القتل التي هي جزاء المرتدين، لكن الوزير (وزير صلاح الدين الذي كان صديق ابن ميمون الحميم) أنقذ ابن ميمون حين قال، إن الرجل الذي أُرغم على اعتناق الاسلام لا يمكن أن يعتبر مرتداً بحق»[٢٩] . وقبل صلاح الدين بحجة وزيره.

ويذكر «ول ديورانت» أن صلاح الدين الذي أعدم الفيلسوف والامام الشافعي، «شيخ الإشراق»، شهاب الدين بن يحيى السهروردي، متهماً إياه بالخروج عن الدين، غض الطرف تماماً عن موسى بن ميمون، الذي نشر في الشهر ذاته، «مقالة في بعث الموتى»، وعبر فيها عن تشككه في عقيدة الخلود الجسمي[٣٠] . كما أصم صلاح الدين أذنيه أيضاً عن تسفيه عبد اللطيف البغدادي لابن ميمون، بعد صدور «دليل الحائرين»، وا امه له بأنه «يهدم أركان جميع الأديان بالوسائل نفسها التي يخيل إلى الناس أنه يدعمها ا»[٣١] .

صلاح الدين والعرب الفاطميون:

بعد أن أشرنا باختصار إلى لمحات من علاقة صلاح الدين الأيوبي الكردي باليهود عموماً وبابن ميمون خاصة، لابد من إشارة سريعة أخرى إلى موقفه من الفاطميين العرب، خاصة على الصعيد الفكري، الذي يشكل العنصر الأهم في الحضارة العربية الفاطمية.

---

(٢٤) *E. Judaeca* ١٤/٦٦٩
(٢٥) جورج طرابيشي، *معجم الفلاسفة* ٣١.
(٢٦) Zeitlin, *Mimoniades*, ١٧٨ .
(٢٧) يقول جورج طرابيشي: بعد أن فتح صلاح الدين القدس، استحصل (ابن ميمون) لأبناء ملته على أساس في التوطن فيها، وفي فلسطين بصفة عامة. *المرجع السابق* ٣٢.
(٢٨) *المرجع السابق* ٣٢.
(٢٩) Arnold, Sirt., *Preaching of Islam*, ٤٢١
(٣٠) *قصة الحضارة* ١٢١/١٤.
(٣١) *المرجع السابق*.

يتحدث المقريزي عن الثقافة العربية الفاطمية، التي هي أعظم ثقافة عرفتها مصر في تاريخها حتى وقتنا الحالي، فيقول: إن دار الكتب في القاهرة «كانت من عجائب الدنيا، ويقال انه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي بالقاهرة في القصر. ويقال ا ا كانت تشمل على ألف وستمئة ألف كتاب...

أخذ جنودها عبيدهم وإماؤهم (الأكراد الايوبيون) برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم، وأحرق ورقها تأولاً منهم أ ا خرجت من قصر السلطان، وأن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم، سوى ماغرق وتلف وحمل إلى سائر الأقطار، وبقي منها مالم يحرق وسفّت عليه الرياح التراب فصالا تلالاً باقية إلى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب»[٣٢] .

ويبدو أن هذا قدر الحضارة: تنضج فيأتي البدائيون لقتلها.

(٣٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط. دار صادر، ٤٠٦/١.

كلمة أخيرة

يقول سعيد الأفغاني في كتابه «*عائشة والسياسة*»: «إني لشديد الإعجاب بذكاء ابن السوداء وصدق فراسته وعمق دراسته للناس، لقد عرف من يختار من الشام، ولقد وفق التوفيق كله ذه المقالة التي فصلها على مزاج أبي ذر، فلم يكد يلقيها إليه حتى طار ا أبو ذر مندفعاً إلى معاوية وهذا هو فن ابن السوداء الذي أنجح مساعيه: فهم جيد للناس وأمزجتهم ونفوسهم واستخبارات صادقة منظمة انتفع ا أعظم انتفاع في إحكام خطط الشر، واستغلال حسن لغفلة سواد المسلمين عن نياته، وخداع ماكر لهم عن دينهم وسلامة دولتهم. لقد جنى الروم من دسائس ابن السوداء خيراً كثيراً: إذ شغل القوى الإسلامية بعضها ببعض فكسر شوكتها وصرفها عن الاندفاع في الفتوح، وإن الذي استتبعت من شرور بعد ذلك آخذ بعضها برقاب بعض أفظع هولاً وأشنع. ولو وقع ابن السوداء هذا لانكلترا اليوم لاستغنت في إبادة عدوها من جيوش وأساطيل ومنظمات تعج بالفنيين الخبراء[1] ».

... وهكذا، ينتهي إلى ا ام مجلة مصرية، بأسلوب ابن سبأي، أ ا «ممولة بأموال يهودية»[2] ، لأن رئيس تحريرها كتب «مرة ينكر وجود ابن السوداء»[3] : فهل هنالك مصادرة للفكر أكثر من هذه؟.

يبقى السؤال حول معركة الجمل وتناقض مسألة التبشير بالجنة قائماً: فهل من جواب مقنع.؟.

---

(١) ص ٦٢.
(٢) ص ١٨٥ هامش.
(٣) ص ١٨٥ هامش

ملحـــق

قبيل صدور هذه الطبعة✧ بأيام قليلة، فاجأنا الشيخ البوطي بكتاب جديد حمل عنوان «*عائشة أم المؤمنين*». وكعادته، امتلأ هذا العمل بالا امات الفارغة والألفاظ غير المهذبة والحكايا المختلقة - كل ذلك بأسلوب باطني هو أرخص أنواع الباطنية المحدثة لأنه أغباها. وقد أصر علينا الكثير من الأصدقاء والمعارف أن نرد على هذا الكتاب غير المعقول. وحتى يسعفنا الوقت والرغبة، نكتفي الآن بقول ما يلي:

أولاً: هذا الكتاب يظهر دون أي لبس أن البوطي يسعى بكل قواه للمحافظة على ذاته في الواجهة الثقافية، ولا يجد لذلك سبيلاً غير النبش في دفاتره القديمة الصفراء، خاصة وأنه استهلكَ (أو استَهلَكَ ذاته) بطريقةٍ مثيرة للشفقة.

ثانياً: هذا الكتاب يوضح بالكامل أننا لا نسعى لا من بعيد ولا من قريب إلى التحرش بالعلاّمة حتى ننال شيئاً من شهرته أو نقتبس بعضاً من علمه أو نقتطف ومضةً من أخلاقه - التحرش، كالعادة، هو من جانب الشيخ.

ثالثاً: بالنسبة للألفاظ والتعابير الجارحة التي يستخدمها العلاّمة نقول:

تذكر المصادر الإسلامية المعتمدة من سيادة الشيخ أن معاوية بن أبي سفيان أحرق، عن طريق عامله معاوية بن خديج، محمد بن أبي بكر بعد قتله، وإلقائه في جيفة حمار. وحتى هنا المسألة عادية بالنسبة لمعاوية وممارساته. لكن غير العادي أن تقوم أم حبيبة بنت أبي سفيان، أخت معاوية، وزوجة النبي (يعني من أمهات المؤمنين) بشي كبش وإرساله إلى أم المؤمنين الأخرى، عائشة بنت أبي بكر، أخت محمد القتيل، تشفياً بقتل محمد بطلب دم عثمان. الأغرب من كل ذلك أن تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) لأم المؤمنين الأخرى أم حبيبة (محبة التشفي): «قاتل الله ابنة العاهرة، والله لا أكلت شواءً بعده أبداً»!

كانت فإذا هذه أخلاق وممارسات اللواتي يعتبرهن البوطي أمثولته، لا عجب إذاً أن يستخدم الشيخ ألفاظاً قد تثير اشمئزاز آخرين تربوا على أمثولاتٍ مختلفة - مختلفة بالكامل!!!

✧ الطبعة الرابعة.

البخاري منافقاً

قبل طباعة هذا العمل بأيام، صدر كتابٌ جديدٌ للأستاذ سليم الجابي، تعليقاً على كتابي « *حوارات* » وكتاب الدكتور سعيد البوطي، « *هذه مشكلا م* »، بعنوان: « *الرأي في المرأة والحرية والتراث* ». - ولمّا كان الوقت والظرف لا يسمحان لنا برد مفصل على هذا الكتاب، كان لا بد من إيراد الملاحظات التالية:

١ - أحسد الأستاذ الجابي على استطاعته وضع اسم الدكتور البوطي على غلاف كتابه - واسمي طبعاً - رغم أن لا علاقة له، لا من قريب ولا من بعيد، بالحوار الذي دار بيني وبين البوطي، وبكتابينا. فأنا لم أستطع الإشارة إلى أن كتابي « *حوارات* » هو تعقيب على « *هذه مشكلا م* »، الذي امتلأ بدوره بالا امات الفارغة؛ إضافة إلى أني لم أستطع أيضاً وضع العنوان الذي اخترته للكتاب: «نحن... مشكلاتنا» - فاستخدمت عنواناً حيادياً، لا يوحي بأي شيء: «*حوارات*». وقديماً قيل: درهم حظ خيرٌ من قنطار علم.

٢ - قال الأستاذ الجابي، في معرضه دفاعه عن عائشة بنت أبي بكر، إ ا لا يمكن أن تكون قد قالت عن عثمان بن عفّان: « اقتلوا نعثلاً فقد كفر ». ويستعيذ بالله « من هذا الافتراء » (ص١٢٤)! لكن دعو ا إلى قتل عثمان أسهل بكثير من حر ا علي بن أبي طالب في « الجمل »، التي راح ضحيتها مابين ٢١,٥٠٠ (*العقد الفريد*) و٣٠٠٠٠ (*تاريخ اليعقوبي*)، بمن فيهم ثلة من الصحابة والتابعين والمبشرين بالجنة. - فهل حرب الجمل افتراء أيضاً؟.

٣ - أشكر للسيد الجابي جرأته حين قال: في معرض دفاعه عن عائشة، إن الذين استندت إليهم في فصل عائشة في « *حوارات* »: منافقون. وحتى يكون الكلام أوضح، سنذكر أسماء أولئك المنافقين، كما وردت في كتابنا: الطبري، النسائي، القرطبي، الزمخشري، ابن سعد، ابن عبد ربه، أحمد صاحب المسند، اليعقوبي، ابن أبي الحديد، البلاذري، البخاري... فمن هو غير المنافق؟ نرجو أن يتبرع أحدهم، ويدلّنا عليه، حتى نستطيع اعتماده في ما يمكن لنا أن نكتب أو نقول.

بالمناسبة، فإني أوافق الأستاذ الجابي كثيراً في إطلاق صفة النفاق، خاصة على إمامنا البخاري. فهذا « *الصحيح* » - هكذا اسمه - هو واحد من أهم أسباب تخلّف المسلمين، عبر الخزعبلات التلمودية التي دسها فيها الحاخام الأكبر «المتأسلم» كعب الأحبار عبر الحاخام الأصغر أبي هريرة. وهاكم الدليل:

منذ أيام، اغتلم علماء (علاقتهم بالعلم الفعلي كعلاقتي بلغة الاسكيمو، لكنهم يمتلكون معرفة عميقة بتلك الأمور الهامة « كالاستنجاء والتجمر بالحجارة » وما شابه) مصر واهتاجوا لأن الكاتب وحيد حامد تجرأ وأشار إلى موضوع « عذاب القبر ». وحتى لا نتهَم باللاموضوعية، سنورد هذا الحديث على ذمة إمامنا البخاري، الذي نسبه إلى عائشة:

« دخلت علي عجوزان من عجز « يهود » المدينة، فقالتا لي: إن أهل القبور يعذّبون في قبورهم، فكذبتهما... ودخل علي النبي، فقلت له: يا رسول الله، إن عجوزين، وذكرت له... فقال: صدقتا، إ م يعذّبون عذاباً تسمعه البهائم كلها! فما رأيته « بعد » في صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر ». وكي يزيد إمامنا الطين بلّة، قال في موضع آخر: « خرج النبي وقد وجبت الشمس « فسمع » صوتاً، فقال: يهود تعذّب في قبرها ».

هذا يعني أن عهد تبليغ الرسالة كاد يشارف على ايته دون أن تعرف « أم المؤمنين » بحكاية عذاب القبر، لو لم تأتِ العجوزان اليهوديتان وتخبراها بالأمر

- و« بعدها » صار النبي يتعوذ في صلاته من هذا العذاب أيضاً.

مثال آخر: يقول البخاري، إن النبي قال: « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة... ». ورغم أن إله البخاري هنا، تلمودي الشكل والمضمون، إلا أنه لا يوجد وهابي واحد يعترض على هذا الإله التلمودي. مع ذلك، فإله البخاري هذا، يتناقض تماماً مع العقيدة الوهابية:

١ - إله البخاري يكشف هنا عن ساقه، والكشف عن السابق سيثير الإحساس بالشبق والغلمة حتماً عند علمائنا الوهابيين.

٢ - إذا كان إله البخاري سيكشف عن ساقه، فهذا يعني أنه إما يرتدي بنطال الفرنجة الكفّار، أو أنه يرتدي جلباباً طويلاً: والاثنان يتنافيان مع العقيدة الوهابية السمحة التي تفضل الجلباب القصير الذي يكشف أصلاً عن الساق الرائعة دون أدنى حاجة إلى رفعه، والذي يرتديه كثير من طلاب معهد « الفتح » (لا أعرف ماذا يفتحون) الإسلامي في دمشق.

خـ ـ ـ ـ ـ ـاتمـ ـة

« إنا أنزلناه قرآناً (**عربياً**) لعلّكم (**تعقلون**) »

(قرآن كريم ١٢: ٢)

قبل أيام، أصدر كاتب إسلامي « غير عربي » يقول عن نفسه إنه « علم من أعلام الإسلام في هذا الزمن » عملاً تناول فيه بالنقد المبطّن (- أو الباطني: لا فرق-) بعض آراء طرحتها، وقال فيه إن « القصد [من طرح تلك الآراء] تعكير أسباب الرؤيا الصافية لتاريخنا ولمبادئنا ولقادة حضارتنا ». وهنا أتساءل، كشخص ينتمي إلى أسرة « نجدية »، ونجد، على حد علمي، لا تقع في طاجكستان ولا كردستان ولا أرمينيا: هل يعقل أنه كلّما اعتنق « لنا » أحد هنود حمر نيكاراغوا، أو أحد صينيي كوالالامبور، أو أحد زنوج بوركينا فاسو، الوهابية أو إحدى «الصرعات» المشا ة، أن يأتي « إلينا » ويطالبنا باسم معتقده « الجديد »، بالتخلي « له » عن تاريخنا، عن ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا، كعرب أصلاء؟ وهل صارت الوهابية والصرعات الأخرى « قومية » تبيح لصاحبها، حتى وإن كان من الأسكيمو، أن يعتبر تاريخنا العربي جزءاً لا يتجزأ من تاريخه؟

من ناحيتي، لم أهتم شخصياً إلا بالتاريخ العربي، عدا محاولة لدراسة تاريخ الأكراد حين نشرت دراستي عن اليزيديين « عبدة إبليس »؛ وحين أدرس التاريخ العربي بنقد، وهجوم أحياناً - وليس على طريقة « عبدة الجثث » - لا أهتم إلا باكتشاف تلك العناصر التي أوصلتنا، كعرب، إلى هذا التخلّف المدقع!

يبقى السؤال: « هل أن حضرات العلماء « الأفاضل » لا يعرفون كل تلك الأخطاء، التي نشير إلى بعضها أحياناً، والتي تحفل ا كتب هذا التاريخ؟ ». والجواب: إذا كانوا لا يعرفو ا، فهم غير جديرين حتى بلقب « تلاميذ »

- لكنهم يعرفو ا.

لماذا إذاً لا يتحدثون عنها إطلاقاً؟ ببساطة لأن هذه الأخطاء والمفاهيم المهترئة المحنطة كانت على الدوام سيف السلطة الذي استطاع به كل العصابيين والمرضى والفساق سوق الناس. وما زال هذا السيف فاعلاً حتى الآن. فهل يعقل أن يتخلوا عن سلاحهم الوحيد.

إن مصيبة التاريخ العربي والدين الإسلامي هي في أولئك الذين دخلوا الإسلام من غير العرب. فهؤلاء، خاصة وأ م يشعرون بنقص في إحساسهم الإسلامي كو م غير عرب، كي يثبتوا لأنفسهم

- ومن ثم لغيرهم - أ م مسلمون فعلاً، يتعصبون بمَرَضية واضحة للتاريخ، حسنه وسيئه، ويدافعون بعنف الجهلة عن كل تلك الجثث المحنطة في قبور الماضي.